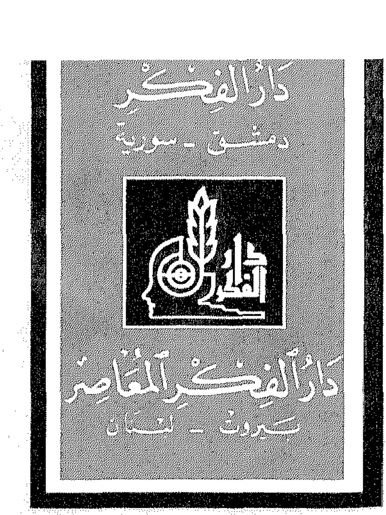
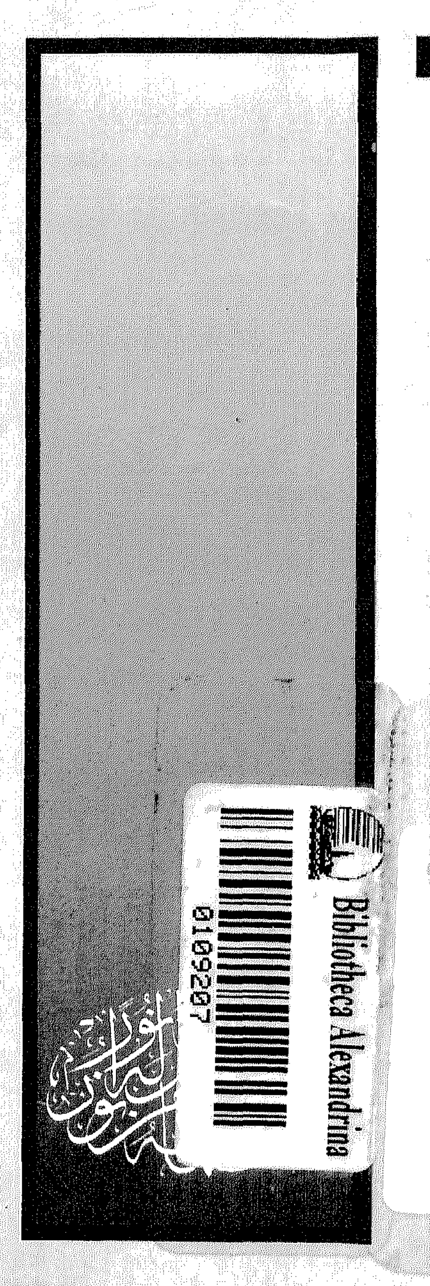


ابن خلدون

شفاء السائل وتهذيب المسائل

تحقيق

الدكتور محمد مطيع الحافظ



الدكتور محمد مطيع الحافظ

من مواليد دمشق ١٩٤٠ م .

المؤهلات العلمية :

- الإجازة في اللغة العربية من جامعة دمشق ١٩٧٤ م .

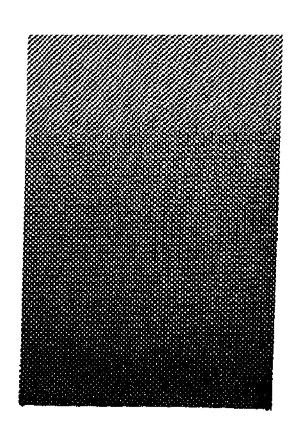
- شهادة شؤون المخطوطات العربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٠ م .

- الماجستير في اللغة العربية من جامعة البنجاب ١٩٨٨ م .

- دكتوراه في الدراسات الإسلامية (علوم القرآن) أكاديمية العلوم (باكو) ١٩٩٤ م .

يعمل حالياً : الباحث الأول في دائرة أوقاف دُبي ، الإمارات العربية المتحدة .

وله عدد كبير من الكتب منها المحقَّقة ، ومنها المؤلَّفة منفرداً أو مشاركاً .



بسم الله الرحمن الرحيم

شِفَاءُ السَّائِلِ وَتَهْذِيبُ الْمَسَائِلِ

شفاء السائل وتهذيب المسائل/ تأليف أبي زيد عبد الرحمن بن
محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي؛ تحقيق محمد مطيع
الحافظ. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦. - ٢٣٢ص؛ ٢٥سم.
بآخره فهارس متنوعة.
١-٢١٨,٩ خ ل د ش ٢- العنوان ٣- ابن خلدون
٤- الحافظ

مكتبة الأسد

ع- ٢٠٨٧/٩/١٩٩٦

شِفَاءُ السَّائِلِ وَتَهْذِيبُ الْمَسَائِلِ

تأليف

الإمام العلاَّمة الفقيه المؤرِّخ

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد

ابن خلدون

الحضرمي الإشبيلي المالكي

٧٣٣ هـ - ٨٠٨ هـ

ينشر عن مخطوطة نادرة

ومعه ثلاث رسائل في السلوك الصوفي

لابن عباد (ت ٧٩٢ هـ) ، والقباب (ت ٧٧٨ هـ) ، واليوسي (ت ١١٠٢ هـ)

تحقيق

الدكتور محمد مطيع الحافظ

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الرقم الاصطلاحي: ١٠٨٦,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-295-3
الرقم الموضوعي: ٢٦٠
الموضوع: التصوف والأخلاق
العنوان: شفاء السائل وتهذيب المسائل
التأليف: ابن خلدون
التحقيق: د. محمد مطيع الحافظ
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٢٣٢ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢).
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

الطبعة الأولى
1417هـ = 1996م

المحتوى

الموضوع	الصفحة



الحمد لله الذي اصطفى عباده المتَّقين ، وألهمهم العمل في طريق الهدى واليقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ المبعوث رحمةً للعالمين ، الذي سنَّ لهم في ذاك الطريق سنَّة التمكين فصفت في محبَّته قلوب العارفين .

وبعد :

فلعلَّ التَّصوف الإسلامي هو التطبيق العلمي والعملي لتعاليم الإسلام بنصه وروحه ، فيه يحدد المسلم صلته بالخالق وسلوكه مع المخلوقين ، وفيه يراعي الفرد أفعاله الظاهرة البيِّنة التي تجمعه بالناس ، ووجدانه الخفي المستتر الذي يشدّه إلى الله ... وبهذا يعيش عيش الصفاء والوضوح من خلال منهج يمضي على طريق تحقيقه من أجل الوصول إلى الله تعالى الغاية الأخيرة .

الصوفي بهذا المعنى يتميز بأخلاقه التي عرف بها السالكون إلى الحق ، واتخذوها شعاراً لهم ملخصه « الدخول في كلِّ خُلُق سَنِيّ ، والخروج من كلِّ خُلُق دَنِيّ » ، و « التَّصوف أخلاق فمن زاد عليك في الْخُلُق فقد زاد عليك في الصفاء » ، وهم بهذا السلوك في هذا الطريق يبتعدون عن المظاهر الفارغة ، ويتجهون إلى ذواتهم ليصلحوا بواطنهم ... فتظهر تلك السرائر على حقيقتها بعد أن أخلصت في ارتباطها بالله عبادة وتضرُّعاً ومناجاة .

ومع تقدم الأيام ظهرت في سلوك الصوفية ألفاظ توحي بأحوالهم ومناهجهم وطرقهم كالفتوة والصحبة ، والعبودية والمعرفة ، والمحبة والشوق ، ومخالفة النفس والمجاهدة ، والشهود ، والمقام والحال ، والجمع والفرق وجمع الجمع ، والصحو والستر

والتجلي ، والقرب والبعد ، والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة ، والشريعة والحقيقة ، والبقاء والفناء ، والوجد والتواجد ، وسوى ذلك من المصطلحات التي تدل عندهم على معانٍ دقيقة خاصةٍ بهم ، قلَّما يدركها غيرهم ، فمن ذاقها عرفها .

والصوفي في سلوكه يتجه نحو العقل والروح والنفس والقلب ... يستند في هذا الاتجاه إلى حقيقة الدين بدرجاته الثلاث : الإسلام والإيمان والإحسان ، ويبتعد عن الأهواء والبدع والضلالات ، وهو ما أشار إليه الجنيد رحمه الله بقوله : « مذهبنا مقيَّد بأصول الكتاب والسُّنة » .

وهذا ما سار عليه كبار الصوفية كالغزالي وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض والجنيد القشيري ، والسلمي وابن عطاء ، والكتاني ، ومعروف الكرخي ، وسَريّ السقطي ، وعبد القادر الجيلاني ، وحياة الحراني ، وأبي يزيد البسطامي ، وأرسلان الدمشقي ، وابن عربي ، والنابلسي ، وغيرهم .

وقد أرشد هؤلاء الناس بأحوالهم قبل أن يهدوهم بمقالاتهم ، ووعظوهم بأخلاقهم قبل أن يفوهوا بكلماتهم ، ذلك أنهم احتقروا الدنيا فأحبهم الله وزهدوا بما في أيدي الناس فأحبهم الناس ، وتقربوا إليهم ، فكانوا هداة مهديين ، منارات علم وصلاح ، وكان كل واحد منهم على المنهج نفسه ، رحمهم الله تعالى وأجزل لهم المثوبة .

ولقد اتفق علماء المسلمين على أن السلوك الصحيح يرقى بحياة المسلم ، بدءاً من التمسك بكتاب الله واقتداءً بالنَّبي ﷺ وصحابته الكرام ، والعلماء الصادقين ، الورثة المقرَّبين .

ورغَّب الصوفية في اتخاذ الشيخ مرشداً إلى الله ، وهو الشيخ العارف العالم الصالح السالك المتَّصف بصفات تجعله مربِّياً مرشداً . وهذا ما ذكره القشيري في رسالته ٧٣٥/٢ : « ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً ، هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت أبا علي

الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَساً نَفَساً فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً » .

وعن وجود الشيخ وصفاته يقول القشيري أيضاً في رسالته ٧٣٢/٢ : « ولم يكن عصر من الأعصار من مدة الإسلام ، إلاّ وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ممن له علوم التوحيد ، وإمامة القوم ، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به » .

ومع هذه التوجيهات اختلف بعضهم في مسألة اتخاذ الشيخ في السلوك الصوفي ، ذلك أن بعض علماء الأندلس في آخر القرن الثامن الهجري انقسموا فيها فريقين ، اشترط أحدهما على الصوفي التزام مرشدٍ مُرَبٍّ يتبعه ليسلك عليه ، ورأى الفريق الآخر الاكتفاء في هذا السلوك والمجاهدة بطريقة الأخذ بكتب القوم وآثارهم والاهتداء بها وأنها تكفيه عن الشيخ .

وقد أدى هذا الخلاف إلى نزاع شديد وخلاف مستحكم ، دعا أبا إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م) إلى الكتابة لعدد من علماء مدينة فاس ليبدوا آراءهم ويعطوا فتواهم في هذه المسألة . الأمر الذي رغَّب ابن خلدون أن يدلي بدلوه من منطلق معرفته الواسعة بعلوم عصره ، والجو السائد الذي كان يحيط بالمسلمين آنذاك ، وصلته الوشيجة بعلماء عصره وأعيانهم من قضاة ووزراء وغيرهم ، فألَّف لذلك كتابه (شفاء السائل في تهذيب المسائل) فجاء سِفراً جليل النفع يضم بين دفتيه دراسة أصيلة موضوعية متأنية ، تناولت على نحو شامل تاريخ التصوف ونشأته ومناهج الصوفية وطرائقهم ، ومجاهداتهم وأحوالهم وسلوكهم وأشهر كتبهم المعتمدة عندهم ، والمصطلحات التي يستعملونها ، إلى غير ذلك مما هو لصيق في هذا الموضوع ، ليصل ابن خلدون إلى بيان اشتراط الالتزام بالشيخ في السلوك الصوفي .

شفاء السائل ونسبته إلى ابن خلدون :

ولقد اختلف الباحثون في نسبة هذا الكتاب لابن خلدون لأسباب ، من جملتها أن صاحبه أغفل ذكره في مصنفه الذي وضعه باسم (التعريف بابن خلدون شرقاً وغرباً) ، وهو سيرة ذاتية كتبها ابن خلدون عن حياته وأعماله . ثم إن المؤلف لم ينص عليه كذلك في كتبه الأخرى التي تناولت سيرته ، ثم إن الذين ترجموا له من معاصريه ، كابن الخطيب وغيره لم يذكروا أنه ألّف كتاباً مفرداً في التَّصوُّف .

لكن بعضاً من كبار علماء التَّصوُّف أشاروا إليه في كتبهم . يقول الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي رحمه الله : إن الشيخ زَرُّوق (ت ٨٩٩ هـ) في كتابه (عدة المريد) أشار إليه ونسبه لأبي زيد بن خلدون ، وذكره كذلك في شرح (القصيدة النونية) للششتري ، وفي (النصيحة الكافية) ، ثم ذكره أيضاً الشيخ أبو عبد القادر الفاسي (ت ١٠٩١ هـ) ، ومن بعده أبو عبد الله المناوي (ت ١١٣٦ هـ) في كتابه (جهد المقل القاصر) فقال : « والذي كنا نسمعه في الجواب المذكور (أي شفاء السائل) ورأيته في صدر بعض نسخه أنه لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور » .

ثم إن الشيخ أبا علي اليوسي (ت ١١١١ هـ) تملك نسخة من الكتاب منسوبة لابن خلدون ، وهي النسخة التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية . وكتب عليها تملكه ، واليوسي نفسه ألّف رسالة في الموضوع ذاته ، وأجاب عن المسألة عينها ، ولم ينص بما ينفي نسبة الكتاب لابن خلدون سواء في مؤلفاته أم على النسخة التي تملكها .

ومما يؤيد أن المصنَّف لابن خلدون اتفاق الرأي في جوانب كثيرة من حيث المنهج والعرض والنتائج والتحليل ، والمعلومات التي ذكرت في الكتاب ، وفي مقدمته للتاريخ المشهور ، الذي أورد فيها فصلاً في التصوف ، وفصلاً في الرؤيا ، وفصلاً في أصناف المدركين للغيب ، وفصلاً في أسرار الحروف ، ولئن كنا نجد ابن خلدون يعتذر في

مقدمة تاريخه عن الصوفية ويدافع عنهم في مسألة مجاهدة الكشف ويحمل كلامهم على المتشابه ، ونراه داخلاً في مصطلحاتهم الخاصة بهم ، يبرر ما يصدر عنهم من ألفاظ عجيبة وأقوال غريبة ، يرجعها إلى غيبتهم عن الحس ، فإننا نجده في شفاء السائل يتشدد بعض التشدد ويرغب عن الخوض في علم المكاشفة ، ويعود سبب ذلك إلى المدة الزمنية بين تأليف (المقدمة) ، و (شفاء السائل) .

وأخيراً مما يعضد نسبة الكتاب إلى ابن خلدون صاحب (المقدمة) أنني في أثناء رحلتي العلمية إلى المغرب في صيف عام ١٩٩٤ عثرت على نسخة من الكتاب تؤكد نسبته لابن خلدون المؤرخ صاحب المقدمة ، وتزيل الشك ، ونستطيع القول بكل تأكيد إن الكتاب لابن خلدون ، إذ إن هذه النسخة تبدأ بالعبارة الواضحة التالية :

« قال الشيخ الفقيه الرئيس الأوحد ، نسيج وحده وفريد فضله وحده ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون نفعه الله ونفع به » .

وتختم بقول الناسخ :

« تمَّ التقييد المسمى بـ (شفاء السائل في تهذيب المسائل) للشيخ الرئيس أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون نفعه الله بذلك ، جواباً عن المناظرة الصوفية التي كتبها الشيخ الإمام أبو إسحاق الشاطبي ، رحمه الله ، سائلاً علماء عصره بالعدوة المغربية الجواب عنها والفصل فيها ، وكان الفراغ من تقييده في وسط جمادى الآخرة عام ستة عشر وثماني مئة ، عرف الله بركته على يدي عبيد الله المشفق من ذنبه ، الراجي عفو ربّه محمد المدعو بأبي يحيى بن محمد بن عاصم بن أبي عاصم القيسي ، لطف الله به في الدارين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً » .

ومن هذَيْن النَّصَّيْن يستفاد من نسبة الكتاب لابن خلدون للأمور التالية :

١ ـ يبدأ الكتاب بنسبته لابن خلدون ، وينتهي بهذه النسبة .

٢ ـ نسخ عن نسخة كتبت سنة (٨١٦ هـ) ، أي بعد وفاة ابن خلدون بثماني سنوات فقط .

٣ ـ ناسخ الكتاب عالم ثقة كبير ، عرف بالأندلس بلقب قاضي الجماعة ، ولقب خاتمة رؤساء الأندلس ، وهو من أسرة بني عاصم ، الأسرة المعروفة بالعلم والفضل والرئاسة ، وله مصنف مشهور هو (جنة الرِّضا في التَّسليم لما قدَّر الله وقضى) .

وإذن ، فهذا كله حجة على من نفى نسبة الكتاب لصاحبه .

شفاء السائل : منهجه ومحتواه

وقد نهج ابن خلدون في كتابه هذا كعادته في كتبه المنهج العلمي المعتمد على العرض والتحليل والاستنتاج والمناقشة ، مورداً لكل مسألة دليلها ، ولكل رأي حجته ، لينتهي بعد ذلك إلى النتائج التي ساق إليها البحث الجادُّ المؤدي إلى القناعة العلمية والغاية الصحيحة .

وبذلك يكون الكتاب مرجعاً مهمّاً في علم التصوف ، ألَّفه عَلَم خبير ، وناقد بصير جمع هذه القضية فأوعى .

بدأ ابن خلدون بحثه بالحديث عن نشأة التصوف ، فقال : إنه بدأ بحركة خاصة قامت تدعو إلى الزهد ، قبل أن يقوم المذهب الصوفي المعروف ، ثم أخذ يفصل في التطور التاريخي لكلمة التصوف ، مشيراً إلى مدلولها عند السلف ، ومدى اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بأعمال الباطن ، معرجاً على ظهور فرق جديدة ، ونشوء بعض المعتقدات ، وإهمال أعمال القلب ، الأمر الذي أدى إلى قيام دعوة صادقة للمحافظة على الحياة الروحية ، وعندئذٍ ظهر اصطلاح التصوف في نهاية القرن الثاني الهجري ، وظهر معه ما سمي فقه الظاهر وفقه الباطن .

ثمَّ فصَّل ابن خلدون في المدلول اللغوي والاصطلاحي لكلمة التصوف مبيناً مكانة

التصوف عند المسلمين ، واشتغال الصوفية بمجاهدة النفس ، والزهد في الدنيا . ومن أجل أن يظهر حقيقة التَّصوُّف قدَّم لبحثه بمقدمات أربع :

الأولى : في معنى الروح والنفس والعقل والقلب .
الثانية : في كيفية اكتساب الروح للمعارف والعلوم .
الثالثة : في معنى السعادة وتفاوتها .
الرابعة : في بيان لذة المعرفة في الدنيا .

وحين تحدث عن تطور كلمة التصوف واختلاف مدلولها قسم المجاهدات ثلاثة أقسام : مجاهدة التقوى ، ومجاهدة الاستقامة ، ومجاهدة الكشف ، مبيِّناً مشروعية هذه المجاهدات ، مشيراً إلى أن الغزالي جمع في كتابه (إحياء علوم الدين) بين هذه الثلاث ، ونبَّه إلى أن الخوض في علم المكاشفة وإيداعه الكتب محظور وقال : إن هذا العلم نشأ عنه علم أسرار الحروف .

وانتقل ابن خلدون بعدئذٍ إلى المقصود من اشتراط الشيخ في المجاهدة ، وفي أي المجاهدات يجب ويتأكد ، وقال : إن مجاهدة التقوى فرض عين ، ووجود الشيخ فيها شرط كمال ، في حين تحتاج مجاهدة الاستقامة إلى المعلم المرشد لصعوبة الاطِّلاع على مكانة النفس وأحوال القلب . ورأى أن مجاهدة الكشف والمشاهدة تتأكد فيها حاجة المريد إلى الشيخ .

وبعد أن بيَّن أن مصطلحات القوم خاصة بهم ، انتقل للفصل بين المتناظرين وعين الحق في أقوالهم ، ليصل إلى أهمية السلوك على الشيخ في كل مجاهدة واستحباب ذلك أو وجوبه ، وختم بحثه باختصار ما توصل إليه من نتائج .

نسخ الكتاب :

اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسختين قديمتين :

الأولى نسخة المكتبة الملكية الحسنية بالرباط . والثانية نسخة دار الكتب المصرية .

أما أولاهما ففي ٤٣ ورقة ، في كل صفحة منها ٣٠ سطراً ، مسطرتها ٢٠×١٥ سم ، وتحمل رقم ٥٥٢٢ ، كتبت سنة ١١٤٣ هـ نقلاً عن نسخة قيمة كتبت سنة ٨١٦ هـ بخط عالم كبير ثقة هو أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم بن أبي عاصم الغرناطي المشهور بقاضي الجماعة وخاتمة رؤساء الأندلس . وقد رمزت لها بـ (ح) .

وقد جاء في آخرها :

تمَّ التقييد المسمى بـ (شفاء السائل في تهذيب المسائل) للشيخ الرئيس أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ... وكان الفراغ من تقييده في وسط جمادى الآخرة عام ستة عشر وثماني مئة . على يدي ... محمد المدعو بأبي يحيى بن محمد ابن أبي عاصم القيسي ... انتهى كما وجدته حادي عشر جمادى الآخرة عام ١١٤٣ من خط من ذكر ... أحمد بن عبد العزيز وفقه الله بمنه .

وفي هامش الأصل : « في حاشية المنتسخ منه ما نصه : بلغت المقابلة بالأصل المنتسخ منه ... فهمي للإصلاح » .

وكذلك في هامش الأصل : « بلغت المقابلة ثانية بالأصل المجتلب إلى المغرب ، وهو واصل جواباً ... للشيخ رضي الله عنه » .

فهذا النص يظهر قيمة هذه النسخة وأهميتها ، فقد قوبلت نسخة ابن عاصم بالأصل مرتين ، ويُفهم أن نسخة ابن عاصم وهي الأصل ـ كما ذكر في هامش الأصل ـ قد جلبت إلى المغرب ونسخت عنها هذه النسخة . ويثبت هذا النص أن كتاب (شفاء

السائل) لابن خلدون صاحب المقدمة المعروفة ، لأنها كتبت سنة ٨١٦ هـ ، أي بعد وفاة ابن خلدون بثماني سنوات ، وقد نسبه إليه ابن عاصم في مقدمة الكتاب ونهايته .

ثم إن الناسخ الذي كتب هذه النسخة سنة ١١٤٣ هـ هو أحمد بن عبد العزيز ، وقد رجح لدي أنه أحمد بن عبد العزيز السجلماسي المولود سنة ١١١٣ هـ ، والمتوفى سنة ١١٧٥ هـ . (انظر الأعلام : ١/١١٥) .

ولعل اهتمام ابن أبي عاصم بهذا الكتاب يعود إلى أن والده كان تلميذاً لأبي إسحاق الشاطبي ، الذي كتب إلى ابن عباد والقباب يستوضحهما قضية المناظرة الصوفية التي جرت في الأندلس ، فرغب ابن أبي عاصم أن ينسخ هذا الكتاب متابعة لتلك القضية التي أراد العلماء الوصول إلى رأيٍ حازمٍ فيها .

وإذن فلهذه الأمور كلها تعدُّ هذه النسخة نسخة فريدة متميزة ، يجب الاعتماد عليها أولاً .

أما النسخة الثانية ، فهي نسخة دار الكتب المصرية ، كتبت سنة ٨٩٠ هـ ، وكانت في مُلْكِ أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي ، ثم دخلت في ملك ابن عبد الكريم سنة ١١٢٦ هـ ، وعليها تملكها لها ، وهي برقم ٢٤٢٩٩ ب ، وهي نسخة مصورة عن مخطوطة المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن زيدان ، ونقل أصلها أبو بكر التطواني المكتبي ، ثم أخذت دار الكتب المصرية نسخة مصورة عنها .

وقد ذكر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، رحمه الله ، في مقدمة كتابه المطبوع وصفاً لهذه النسخة ، وأنها كانت مضطربة الأوراق ، فرتبها الترتيب اللازم وبيَّن أرقامها الصحيحة ، وكيف يكون ترتيب صفحاتها سليماً .

وهي في ٩٠ ورقة ، وفيها نقص من الورقة ١٠ وحتى الورقة ١٢ ، ورمزت له بـ (د) .

وهناك نسخة ثالثة أشار إليها الأستاذ الطنجي هي نسخة الأستاذ أحمد بن المليح الفاسي كتبت سنة ١٠٧٥ هـ لم أتمكن من الوصول إليها .

منهج التحقيق :

اعتمدت على نسخة الخزانة الحسنية الملكية (ح) واستعنت عليها بنسخة دار الكتب المصرية (د) مثبتاً الفروق بينهما في الهامش ، واضعاً الزيادات التي وجدتها في هذه الأخيرة ولم أجدها في نسخة (ح) بين معقوفتين . كما رمزت لمطبوعة الأستاذ الطنجي بالحرف (ط) .

وأرجو أن يكون النص الذي أخرجته نصّاً صحيحاً كاملاً موثقاً اعتمد على أصل النسخ .

ومن أجل توضيح النص وزيادة توثيقه عمدت بالطبع إلى ما درج عليه المحققون فقمت بما يلي :

١ ـ خرَّجتُ الآيات الكريمة وضبطتُها بالشَّكل .

٢ ـ خرَّجت الأحاديث الشريفة وبيَّنت درجتها .

٣ ـ أحلت النصوص التي نقلها ابن خلدون من الكتب ، وأهمها : الرسالة القشيرية ، وإحياء علوم الدين ، وروضة التعريف للسان الدين ابن الخطيب . وغيرها .

٤ ـ شرحت بعض المصطلحات والتعابير التي توضح النص .

٥ ـ ترجمت للأعلام الذين نقل عنهم ابن خلدون ، كما عرفت بالكتب التي اعتمدها .

٦ ـ شرحت ما كان محل أخذ ورد من المسائل ، وبيَّنت فيها آراء المخالفين .

٧ ـ صنَّفت فهارس للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، والأقوال المأثورة عن شيوخ الصوفية والأعلام والكتب والمصطلحات ، ثم فهرساً عامّاً للمواضيع .

وإتماماً للفائدة ألحقت بالكتاب ثلاثة نصوص رأيتها مهمة في موضوع الكتاب وهي :

١ ـ فتوى ابن عباد (ت ٧٩٢ هـ) في مسألة سلوك التصوف .

٢ ـ فتوى القباب (ت ٧٧٨ هـ) في السلوك الصوفي من شيخ أم لا ؟

٣ ـ فتوى اليوسي (ت ١١٠٢ هـ) وهي حكم الالتزام بالشيخ في التربية الصوفية .

فالفتويان الأولى والثانية ترجعان إلى عصر الشاطبي صاحب السؤال ، في حين تأخرت الثالثة عنهما إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، الأمر الذي يدل على مدى اهتمام العلماء بهذه القضية ، وأنها بقيت مستمرة حتى عصر متأخر . واليوسي اطَّلع على كتاب ابن خلدون وملك نسخة منه هي نسخة (د) المذكورة .

طبعات الكتاب :

طبع كتاب (شفاء السائل) طبعتين ، إحداهما صدرت في استانبول عام ١٩٥٨ م بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، وهي في غاية الإتقان والتوثيق ، قدَّم لها بمقدمة نفيسة بما يتعلق بدراسة التصوف ومنهج ابن خلدون في كتابه وذيَّلها بفهارس مفيدة . اعتمد فيها على نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الفاسي ، وفاته الاطِّلاع على نسخة الخزانة الحسنية الملكية في الرباط ، التي اعتمدت عليها الاعتماد الأساسي في إخراج طبعتي هذه . وسبب عدم اطِّلاعه عليها يعود إلى عدم وجود فهرسة لمخطوطاتنا العربية الموزعة في أنحاء العالم ، فوجود الفهارس يسهل على المحققين عملهم ، وتعرفهم بأماكن وجود النسخ .

وأما الطبعة الثانية فطبعت في المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٩٥٩ م بتحقيق الأب أغناطيوس عبدو خليفة اليسوعي ، اعتماداً على مخطوطة عبد الرحمن بن زيدان التي كانت في حوزة أبي بكر التطواني ، والتي احتفظت دار الكتب المصرية بنسخة مصورة عنها .

وفي هذه الطبعة اضطراب في ترتيب النصوص من تقديم وتأخير بسبب اضطراب أوراق النسخة التي اعتمد عليها ، وفي هذه الطبعة أيضاً نقص بعض الصفحات ، وذلك لاعتماده على نسخة واحدة . وقد أشار إلى هذا الاضطراب والنقص الأستاذ جعفر الحسني في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في المجلد ٣٥ ، صفحة ٢٩٩-٣٠٣ .

ويبدو من قراءة ومقابلة الطبعتين ويتبين أن أحداً من المحقِقَيْن لم يطَّلع على عمل الآخر ، بسبب صدورهما في وقتين متقاربين وبلدين متباعدين .

دواعي تحقيق الكتاب الآن ؟

لا بدَّ أن أشير إلى الجهود الكبيرة الطيبة التي بذلها الأستاذ الطنجي[1] في تحقيقه للكتاب ، وهو بعدُ عالمٌ كبير محقق ، عضو في المجامع اللغوية ، ذو خبرة في دراسة

(١) ترجم لمحمد بن تاويت الطنجي عدد من العلماء ، فقد ذكره الأستاذ الزركلي في الأعلام ٦/٦٢ ، وقال عنه : أديب بحّاثة ، من أهل طنجة ، ولد بها وتعلّم بالقاهرة ، وعمل مدرّساً في اسطنبول ، وتزوج بها ، وأحسن التركية ، وأقام مدة في الرباط منتدباً للعمل في وزارة الثقافة ، فنشر الجزء الأول من المدارك لعياض وقطعة من مختصر العين ، وعاد إلى اسطنبول أستاذاً للثقافة الإسلامية في كلية الإلهيات ، وتوفي بها في ديسمبر ١٩٧٤ م ، وكان همه منصرفاً إلى ابن خلدون في تاريخه ومقدمته ، ونشر (التعريف بابن خلدون) ، وصنع نسخة متقنة من تاريخه العبر هيأها للطبع ، كما عمل في الفهرست لابن النديم تحقيقاً وإعداداً لإعادة نشره ، وأصدر أخلاق الوزيرين تحقيقاً ، وحفظت الحكومة التركية أوراقه ومكتبته بعد وفاته لتنسيقها قبل العرض .

وذكرت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق تعريفاً به في المجلد ٥٠ ، صفحة ٤٦٧ ، وفيه إضافات عما ذكره الزركلي .

وكذلك ترجم له الأستاذ عبد الله الجراري في كتابه التأليف ونهضته بالمغرب ص ١٠٩ .

ومن الكتب التي حققها ونشرها إضافة لما ذكر :

النصوص وتوثيقها ، أخرج عدداً من الكتب المضبوطة الموثقة ، تدلُّ على تتبعه ومعاناته في البحث والدرس .

بيد أن طبعته هذه صدرت في استانبول منذ سبع وثلاثين سنة ، ولم يصل منها إلى البلاد العربية سوى نسخ قليلة ، فكثير من المكتبات العامة تخلو من هذه الطبعة ، ولذا أضحى الكتاب معها كالمخطوطات النادرة .

وإضافة لذلك فقد ظهرت نسخة مخطوطة قيمة هامة قريبة العهد بالمؤلف تفضل النسخ الأخرى ، ولم يطلع عليها الأستاذ الطنجي ، رأيت من الواجب المفيد إعادة التحقيق لإظهار هذا الكشف العلمي الذي كان بمثابة فتح جديد وتوثيق علمي أثبت أن الكتاب لابن خلدون المؤرخ صاحب المقدمة بلا ريب . كما أن هناك تحقيقات تختلف عن الطبعتين السابقتين ، سيدركها القارئ المتتبع ، وخاصةً في التعليقات على النص . أرجو أن أكون قد أدّيت بها الفائدة المرجوة .

ولا بدَّ لي في النهاية أن أتقدم بالشكر كل الشكر للأخ الأستاذ مصطفى ناجي ، الذي كان نعم الصديق في المغرب ، فقد كان له فضل كبير في تشجيعي في إخراج هذه الطبعة ، ذلك أنه أرشدني إلى النسخة المخطوطة التي اعتمدتها ، وقرأ معي جزءاً كبيراً من نص الكتاب مع المقابلة ، وهو البصير بالمخطوطات العربية عامة ، والمخطوطات المغربية خاصة ، فأغراني بنشره بعد أن أقنعني بأهميته فجزاه الله خيراً ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

د . محمد مطيع الحافظ

دبي : ١٢ ربيع الأول ١٤١٦ هـ

٨ آب ١٩٩٥ م .

= (تهذيب المسائل لابن خلدون) ، (تحقيق جذوة المقتبس وتصحيحه للحميدي) ، (الإعلام بحدود قواعد الإسلام) للقاضي عياض .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

قال [illegible] وفي نسخة [illegible]

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد [illegible]

الحمد لله الذي جعل العلماء [illegible] نعمة [illegible] والصلاة التامة على سيدنا ومولانا محمد
رسوله الكريم وعبده والرضى عن آله وصحبه [illegible] أما بعد فقد وقف بعض الإخوان
أبقاهم الله على تقييد [illegible] الرباط والجهاد [illegible]
والفقهاء والعباد [illegible] بعض الأعلام من أهل [illegible] فاس حيث [illegible]
العلم والدين [illegible] وثواب الله [illegible] وخلافه [illegible] كشف الغطاء
[illegible] أهل [illegible] التوحيد [illegible] والمحبة [illegible] هل [illegible] سلوكه
والوصول به إلى المحبة [illegible] العالم [illegible] من الكتب الموضوعة
لأهله [illegible] ذلك [illegible] الرسوم [illegible]
العلوم [illegible] النهاية [illegible] الأحياء والإمامة
أم [illegible] غوائله [illegible] الواردات والأحوال
[illegible] العرض [illegible]
من [illegible] ذلك [illegible] مسموع لهذا السلوك [illegible]
[illegible] السالك [illegible] ما
[illegible] على [illegible] الأحوال
الواردة من [illegible] من المزات [illegible] الله
والمدة [illegible] العلماء والأحوال [illegible] النصف
بينها [illegible] فأجبت [illegible] كشف الغطاء
عن محل النزاع وإيضاح [illegible] الوصول [illegible] وهل يستغني المريد [illegible]
بالكتب [illegible] والتشيخ [illegible] المتعين له على المريد [illegible]
[illegible] والعمل [illegible] الله [illegible] والشكر وهو
حسبي ونعم الوكيل [illegible] المسألة [illegible]
من [illegible] وكيف [illegible] من العبادة [illegible]
[illegible] عليه اسم التصوف عليها وهو المشهور
[illegible] بعض [illegible] المجاهدات [illegible] ذلك
[illegible] الاصطلاحات [illegible] الكثير من هذا العرض والله الهادي [illegible]
[illegible] على الجملة [illegible] هذا اللفظ [illegible]

الصفحة الأولى من مخطوطة الخزانة الحسنية الملكية بالرباط (ح) مرسولي

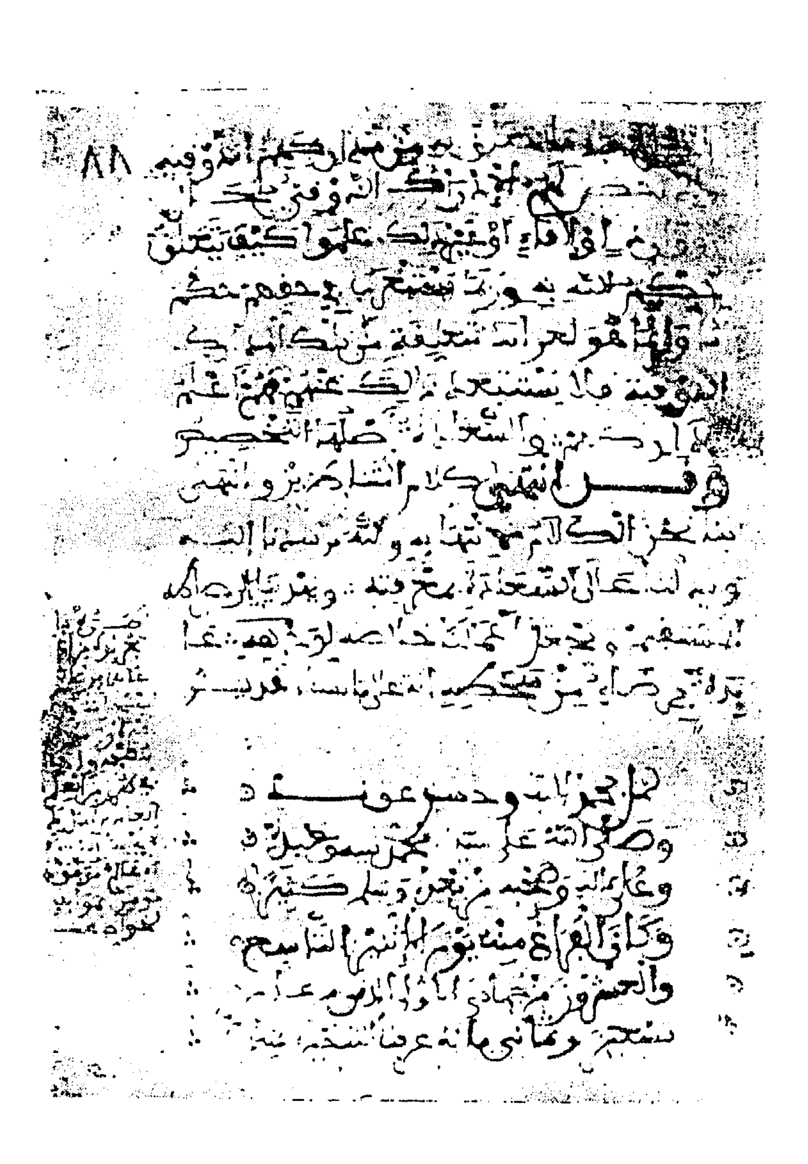
الصفحة الأخيرة من مخطوطة الخزانة الحسنية الملكية بالرباط (ح)



شفاء السائل
لتهذيب المسائل

للشيخ أبي زيد عبد الرحمن ...

صفحة العنوان من مصورة المخطوطة في دار الكتب المصرية (د)



الصفحة الأخيرة من مصورة المخطوطة في دار الكتب المصرية (د)

ترجمة ابن خلدون

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي الإشبيلي ابن خلدون ، المالكي ، يرجع نسبه إلى حضرموت في اليمن ، وإلى وائل بن حجر الصحابي الجليل .

وقد اشتهر بـ (ابن خلدون) نسبة إلى جده التاسع خالد بن عثمان ، وهو أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة مع الفاتحين المسلمين ، حيث استقرت في إشبيلية ، ثم هاجرت إلى المغرب بعد نكبات الأندلس ، حيث سكنت تونس .

وصف ابن خلدون بالوزير ، والرئيس ، والفقيه ، وإمام الأئمة ، وجمال الإسلام والمسلمين .

ولد ابن خلدون في تونس في أول رمضان سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م في أسرة علمية جمعت مع العلم الحكم ، أما والده فقد أكثر الدرس والعلم مبتعداً عن السياسة والحكم ، فقرأ وتفقَّه ، وعلَّم وكان مقدماً في صناعة العربية وغيرها .

كان والد ابن خلدون معلمه الأول ، فقرأ عليه القرآن وتفقه به ، وأخذ عنه العربية وغيرها ، ثم قرأ على العلماء الوافدين إلى تونس من المغاربة وأهل الأندلس ، كما أخذ الكثير عن أهل بلدته ، وحفظ القرآن وقرأه جمعاً بالقراءات السبع وإفراداً ، في إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعها في ختمة واحدة أخرى ، ثم قرأ برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه .

وقد أدرك شيوخاً كباراً أخذ عنهم ذكرهم في كتابه (التعريف) ، وتلقى علوماً كثيرة في سن مبكرة ، وقرأ كتباً مشهورة حفظ الكثير منها .

تولى صغيراً الكتابة عند السلطان أبي إسحاق بن أبي يحي في تونس سنة ٧٥١ هـ ولَمَّا يتجاوز العشرين من عمره ، وفي سنة ٧٥٥ هـ هرب من تونس إلى فاس ، ومكث فيها ثماني سنوات ، اجتمع خلالها بعلماء القرويين وغيرها وأخذ عنهم ، كما أخذ عن علماء الأندلس الوافدين إلى المغرب ، وعمل خلال ذلك كاتباً خاصّاً لسلطانها أبي عنان ، وأقام سرّاً علاقات وصلات مع أمير بجاية ، فأدى اكتشاف ذلك إلى دخوله السجن وبقائه فيه زهاء عامين ، بعدها ولاه السلطان الجديد الكتابة ، وتولى أيضاً خطة المظالم . وفي سنة ٧٦٤ هـ رحل إلى الأندلس وتوجهت أسرته إلى قسنطينة حيث أخوال أولاده . فسافر إلى سبتة ، ومنها إلى جبل الفتح (جبل طارق) ، ثم إلى غَرْناطة ، فنزل مكرماً عند السلطان محمد بن يوسف ثالث ملوك بني الأحمر ، وعند وزيره لسان الدين بن الخطيب ، وكانت لابن خلدون صداقة قديمة معهما ، فاحتفيا به وأكرماه .

ثم ازداد تقربه من السلطان وازدادت ثقته به ، مما جعله سفيراً إلى أمير قشتالة ، للصلح بين الحاكمين ، فنجحت مهمته نجاحاً كبيراً ، فكافأه السلطان بإقطاع كبير ، وأحضر له أسرته ، غير أنه شعر بعد ذلك أن الوزير ابن الخطيب لا يميل إليه ، وكان هذا مدعاة إلى مغادرة ابن خلدون الأندلس ، والتوجه إلى بجاية بالجزائر ، فكان له الإكرام التام والاستقبال الحافل من أميرها أبي عبد الله الحفصي وذلك سنة ٧٦٦ هـ ، تولى أعلى منصب ببجاية وهي الحجابة (رئيس الوزراء) للأمير ، وهي أعلى منصب بعد الإمارة ، وتولى أيضاً التدريس بجامع العقبة ، وبذلك جمع بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم ، ثم حدثت اضطرابات سياسية ، كان لابن خلدون أثر كبير فيها ، فقرر الابتعاد عن السياسة ، والخروج إلى البادية ليعيش مع القبائل العربية ، استطاع خلالها أن يلمَّ بشؤون البادية ، ففي سنة ٧٧٦ هـ قرر ابن خلدون التفرغ للدراسة والبحث فاعتزل في قلعة (ابن سلامة) ، وبدأ التأليف في كتابه (العِبَر) ، وبدأه بمقدمته المشهورة بـ (مقدمة ابن خلدون) ، وانتهى من تأليفها ، في منتصف

سنة ٧٧٩ هـ ، وانتهى من تأليف كتابه (العِبر) سنة ٧٨٠ هـ ، ثم إنه سافر إلى تونس في رجب سنة ٧٨٠ هـ لتنقيح كتابه (العِبر) والاطِّلاع على مكتبات تونس ، والاستفادة منها في توثيق كتابه (العِبر) ، وبقي في تونس عاكفاً على البحث والتدريس حتى أتمَّ مؤلَّفه ونقَّحه وهذَّبه ، ورفع نسخته إلى السلطان أبي العباس أوائل سنة ٧٨٤ هـ .

ثم إن ابن خلدون اعتزم مغادرة تونس والتوجه إلى الحج عن طريق مصر ، فوصل الإسكندرية عن طريق البحر في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ ، ولم يقدر له الحج عامئذ ، فتوجه إلى القاهرة أول ذي الحجة ، فلما وصلها لقي علماءها وخاصَّة أهلها واستقبلوه أحسن استقبال ، وكان صيته قد سبقه إلى القاهرة ، فقد عرفت مقدمته ومؤلفاته ، وكان الأزهر أكثر معاهد العلم استعداداً لدراساته العالية ، فاتَّخذ ابن خلدون من أروقته مدرسة يلتقي فيها بالطلاب ، وتصدر فيه حلقة للتدريس العام ، ثم اتَّصل بالظاهر برقوق فأكرمه ثم عيَّنه في أوائل سنة ٧٨٦ هـ في منصب تدريس الفقه المالكي بمدرسة القمحية ، وفي جمادى الثانية سنة ٧٨٦ هـ عيَّنه السلطان قاضياً للقضاة ، فحكم بصرامة وحزم وعدل ، وفي أثناء ذلك توجهت أسرته من تونس إلى الإسكندرية بحراً ، ولكن لم تكد السفينة تصل إلى مرسى الإسكندرية حتى أصابها قاصف من الريح فغرقت ، وهلك جميع أفراد أسرته ، وما كان معهم من مال ومتاع وكتب ، ويظهر أن هذا الحادث قد آلمه فزهد في المناصب ، وانتهى الأمر بإعفائه من منصبه القضائي ٧٨٧ هـ بعد عام من توليه ، وفي سنة ٧٨٩ هـ سافر ابن خلدون إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وفي سنة ٨٠٢ هـ سافر إلى القدس ، وكان قد عين للقضاء ثم أُعفي .

وكانت آخر رحلات ابن خلدون إلى دمشق سنة ٨٠٣ هـ ، وهو الوقت الذي كان فيه تيمورلنك قائد التَّتر يستعد للهجوم على الشام ، وفي دمشق كان لقاء تيمور

يـابن خلـدون ، الـذي أعجب بسعـة علمـه وطلب منـه البقـاء للعمـل معـه ، ولكن ابن خلدون اعتذر وعاد إلى مصر .

وفي يـوم الأربعـاء ٢٦ من شهر رمضـان سنـة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م تـوفي ابن خلـدون فجأة ودفن في مقابر الصوفية بالقاهرة .

كان ابن خلدون رجل سياسة وعلم وحكم وقضاء ، كما أنه كان عالماً اجتماعيـاً كبيراً ، ومؤرِّخاً وفيلسوفاً ومربِّيـاً ، وكان لآرائـه ونظريـاتـه في مختلف جوانب المعرفـة الـدور الكبير في وضـع أسس كثيرة من العلـوم الحـديثـة ، كعلم الاجتماع ، وعلم التـاريـخ ، والعمران البشري ، والفلسفة والتربية وغيرها من العلوم .

مصادر ومراجع في ترجمة ابن خلدون :

- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً لابن خلدون .
- ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري لمحمد عبد الله عنان .
- ابن خلدون : د . عمر فرّوخ .
- عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريتـه د . علي عبـد الواحـد وافي .
- فلسفة ابن خلدون لطه حسين .
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري .
- الضوء اللامع ٤/١٤٥ .
- نيل الابتهاج ١٧ .
- دائرة المعارف الإسلامية ١/١٥٢ .
- نفح الطيب ٤/٤١٤ .
- الأعلام ٣/٣٣٠ .

- معجم المؤلفين ١٢٠/٢ وفيه قائمة كبيرة بمصادر ومراجع عن ترجمة ابن خلدون .
- شذرات الذهب ٧٦/٧-٧٧ .
- التربية المقارنة عند المسلمين (ابن خلدون) د . عبد الله بن عبد الرحمن الفايز .

مؤلفاته :

- مقدمة ابن خلدون : وهي المجلد الأول من سبعة مجلدات التي يتألف منها كتاب (العبر) ، طبعت ١٨٥٨ م بباريس بعناية كاترمير ، وطبع طبعات كثيرة في البلاد العربية .

- كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، وهو في سبعة مجلدات ، منها المجلد الأول وهو المقدمة .

- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً - طبع محققاً بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي سنة ١٩٥١ بمصر .

- لباب المحصَّل في أصول الدين ، وهو تلخيص (المُحصَّل) لفخر الدين الرازي . انتهى ابن خلدون من تأليفه سنة ٧٥٢ هـ ، أي أن ابن خلدون لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره .

- شفاء السائل وتهذيب المسائل .

- شرح الموجز في أصول الفقه للسان الدين بن الخطيب .

- شرح البردة .

- تقييد في علم المنطق .

- مختصر في وصف المغرب .

مختصر في الحساب .

ـ له شعر .

وذكر في هدية العارفين له :

تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي .

رحلة .

شرح الرجز [كذا] لابن الخطيب في الأصول .

شرح قصيدة ابن عبدون .

شرح قصيدة البردة .

طبيعة العمران .

عنوان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، في التاريخ ، سبع مجلدات ، مطبوع بمصر .

هدية العارفين ٥٢٩/١ .

تم الفراغ من اختصاره عشية يوم
الاربعاء التاسع والعشرين لمحرم عام اثنين
وخمسين وسبعمائة وكتب مصنفه الفقير
الى الله تعالى عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي

عبد الرحمن بن محمد . ابن خلدون

(يلاحظ أنه جعل نسبته « الحضرمي »)

عن النسخة المطبوعة من « لباب المحصل » أمام الصفحة ٨٤

نموذج من خط ابن خلدون

شِفَاءُ السَّائِلِ وَتَهْذِيبُ الْمَسَائِلِ

تأليف

ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

قال الشيخ الفقيه الرئيس الأوحد ، نسيج وحده وفريد فضله وجده ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون نفعه الله ونفع به[(١)] :

الحمد لله الذي جعل الإلهام لحمده نعمةً من عنده ، والصلاة التامة[(٢)] على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعبده ، والرِّضا عن آله وصحبه من بعده .

أما بعد : فقد وقفني بعض الإخوان ـ أبقاهم الله ـ على تقييد[(٣)] وصل من عُدوة[(٤)] الأندلس وطن الرباط والجهاد ، ومأوى الصالحين والزُّهاد ، والفقهاء والعبّاد ، يخاطب

(١) في د : « قال الشيخ الرئيس الفقيه الجليل ، المدرس المحقق ، المشارك المتفنن ، العالم العلم الصدر الأوحد ، قطب العلوم الدينية ، ورافع راياتها ، وفاتح مغلقات المسائل العقلية ، والسابق إلى غاياتها ، أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه المحقق ، المشارك ، المبرور ، المقدس ، المرحوم أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي رحمه الله » .

(٢) في د : « والصلاة والسلام » .

(٣) هذا التقييد هو سؤال عن مناظرة جرت بين صوفية الأندلس ، مما دعا الإمام أبا إسحاق إبراهيم الشاطبي للكتابة من غرناطة إلى علماء فاس يستفتيهم ، وقد أشار إلى هذا التقييد ابن عباد في الرسائل الصغرى ، في الرسالة السادسة عشرة ص ١٠٦ بقوله : « فقد بلغني كتابكم ، وتعرفت منه ما طلبتم ، وقد تصفحت كل واحد من الكتابين اللذين بعثتم بها إلى سيدي أبي العباس القباب ، وعلمت مضمنها ... » ، وكذلك ما أشار إليه الونشريسي في المعيار المعرب ٢٩٣/١٢ بعبارة مشابهة عن ابن عباد ، وكذلك في الجزء ١١ ، صفحة ١١٧ ، عن أبي العباس القباب بقوله : « فقد وصلني مكتوبكم متضمناً ما جرى عندكم من المناظرة في شأن سلوك طرق الصوفية من غير شيخ وما احتجَّ به الفريقان من ذلك » .

(٤) العُدوة : بالضم ، المكان المتباعد (القاموس / عدو) .

بعض الأعلام من أهل مدينة فاس[١] ، حيث الملك يزأر ، وبحار العلم والدين تزخر ، وثواب الله يعد لأنصار دينه وخلافته ويذخر ، طالباً كشف الغطاء في طريق الصوفية أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية ، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذوقية ، ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلّماً من الكتب الموضوعة لأهله ، واقتداءً بأقوالهم الشارحة لكيفيته ، فيكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالعة العلوم ، والاعتماد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كـ (الإحياء)[٢]

(١) التقييد ورد من أبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ، الأصولي الحافظ ، كان من أئمة المالكية ، له مؤلفات عدة من أشهرها : الموافقات ، والاعتصام ، والإفادات ، توفي سنة ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م (الأعلام ٧٥/١) .

- وتوجه به إلى أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ، ابن عباد الرندي ، متصوف كبير من أهل (رندة) بالأندلس ، تنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وغيرها ، واستقر خطيباً للقرويين بفاس ، وتوفي بها ٧٩٢ هـ ، له مؤلفات أشهرها : الرسائل الكبرى ، الرسائل الصغرى ، شرح الحكم (الأعلام ٢٩٩/٥) .

- وتوجه به أيضاً إلى أبي العباس أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي ، الشهير بابن القباب ، الفقيه المالكي القاضي ، ولد بفاس سنة ٧٢٤ هـ ، وتولى القضاء والفتوى بفاس ، ثم اعتزل وعكف على التدريس وتولى الخطابة في الجامع الأعظم بفاس ، وتوفي إثر ذلك سنة ٧٧٨ هـ ، له مؤلفات عدة أشهرها : شرح قواعد عياض ، اختصار أحكام النظر ، وفتاوى كثيرة (الأعلام ١٩٧/١) .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي : يشتمل على أربعة أقسام : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات ، قال عنه الإمام العراقي في تخريجه : إنه من أجلّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقّت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه بين علمي الظاهر والباطن ... (تعريف الإحياء بفضائل الإحياء لعبد القادر العيدروس ص ٥) .

والإمام الغزالي هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، ولد سنة ٤٥٠ هـ بطوس ، ورحل إلى نيسابور وبغداد والحجاز والشام ومصر ، ودرّس بالنظامية ، ورحل إلى دمشق ، وسكن في الزاوية التي نسبت إليه بالجامع الأموي المعروفة بالغزالية ، وعاد إلى بلدته ، وتوفي فيها سنة ٥٠٥ هـ ، وألّف المؤلفات الكثيرة منها : إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، المنقذ من الضلال ، المستصفى في علم الأصول ، وغيرها (الأعلام ٢٢/٧) .

و (الرعاية)[١] ؟ أم لا بد من شيخ يبين دلائله ، ويحذر غوائله ، ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والأحوال مسائله ، فيتنزل منزلة الطبيب للمرضى ، والإمام العدل للأمة الفوضى .

ونقل مناظرة مريدين جرت في ذلك رداً وقبولاً ، وحشرت معقولاً ومنقولاً : ما بين مسوغ لهذا السلوك من غير شيخ يقتدي المريد به ، ولا إمام يَـأْتَم بـأدبه ، وبين مشترطٍ شيخاً يروّض السالك ، ويحذّره ما شاهد في طريقه إلى الله من المهالك ، ويؤيد قواه على احتمال المُطَّلَع[٢] ، وتمييز السنن في الأحوال الواردة من البدع ، حتى يتحقق إلهياً مَحبُورَ[٣] الوقت ، محفوظاً من المزلات التي تؤدي إلى البعد من الله والمقت .

(١) الرعاية لحقوق الله عزّ وجلّ للإمام المحاسبي : يعدُّ كتاب الرعاية أهم كتب المحاسبي في نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وهو بالنسبة له كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى التي يعبر عنها بالتقوى .
والإمام المحاسبي : هو الحارث بن أسد المحاسبي ، أبو عبد الله ، من أكابر الصوفية ، كان عالماً بالأصول والمعاملات ، واعظاً مُبكياً ، وله تصانيف في الزهد ، والرّد على المعتزلة وغيرهم ، ولد ونشأ بالبصرة ، ومات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وله مؤلفات كثيرة منها : آداب النفوس ، معاتبة النفس ، التوهم ، رسالة المسترشدين ، الرعاية . ومن كلامه : خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم . وصفه القشيري بقوله : عديم النظر في زمانه ، علماً وورعاً ومعاملة وحالاً ، وقال عنه الغزالي : المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال . (انظر الرسالة ٧٨/١ ، الأعلام ١٥٣/٢ ، ومقدمة الرعاية) .

(٢) المُطَّلَع : للمفعول : المأتى ، وموضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار ، وقول عمر رضي الله تعالى عنه : لوأن لي ما في الأرض جميعاً لافتديت به من هول المُطَّلَع : تشبيه لما يشرف عليه من أمر الآخرة بذلك (القاموس : طلع) .
وقال القاشاني : وهو مقام شهود الحق في كل شيء متجلياً بصفاته التي ذلك الشيء مظهرها لكن لما ورد في الحديث البغوي : ما من آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع ، حضره بذلك . (اصطلاحات الصوفية للقاشاني ص ٨٦) .

(٣) محبور الوقت : أي المسرور في وقته ، المتنعم . (القاموس : حبر) .

فطال في تلك المناظرة الجدال ، وجلب للاحتجاج العلماء والأبدال ، وذهبت النَّصَفَةُ[1] بينهما والاعتدال ، والحق وإن فقدوه فقريب مما اعتقدوه .

فذهبت إلى كشف القناع عن محل النزاع ، وإيضاح الحق في الوصول بهذا الطريق أو الانقطاع ، وهل يستغني المريد فيها بالكتب والأوضاع ، أو لا بدّ من الإمام المتبوع والشيخ المطاع ، المتعين له على المريد حسن الاقتداء والاتّباع ، والعمل والاستماع ، واعتمدت على الله ولي العون والحفظ والصون ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

والكلام في هذه المسألة يستدعي تحقيق طريق الصوفية وتمييزها من بين سائر الطرق ، وكيف استقرت عند الصدر الأول منهم في نوع من العبادة والمجاهدة ، واختصت بهذا الاسم ، ثم صاروا إلى مجاهدات أخرى ، وغلب اسم التصوف عليها وهو المشهور عند الكافة ، وكيف استعمله بعض المتأخرين في نتائج المجاهدات فقط ، والرَّد عليهم في ذلك . فببيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض ، والله الهادي إلى الصواب .

(١) النَّصَف والنَّصَفَة : محركتين : العدل . (القاموس : نصف) .

الكلام في تحقيق طريق الصوفية[١] وتميزه على الجملة

من بين طرق الشريعة ومدلول هذا اللفظ[٢]

عند /٢/ من سلف منهم في الأمة

اعلم - نوَّر الله قلوبنا بالهداية - أن الله سبحانه فرض على القلوب عملاً من الاعتقادات ، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات ، فجميع التكاليف الشرعية التي تَعَبَّد بها الإنسان في خاصة نفسه ترجع إلى نوعين :

أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة ، وهي أحكام العبادات والعادات والمتناولات .

وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة ، وهي الإيمان وما يتصرف في القلب ، ويتلون به من الصفات ، إما المحمودة : كالعفة والعدل والشجاعة والكرم والحياء والصبر . وإما المذمومة : كالعُجب والكبر[٣] والرياء والحسد والحقد . وهذا النوع أهم من الأول عند الشارع ، وإن كان الكل مهمّاً ، لأن الباطن سلطان الظاهر المستولي عليه ، وأعمال الباطن مبدأ في الأعمال الظاهرة[٤] ، وأعمال الظاهر آثار عنها ، فإن كان الأصل صالحاً كانت الآثار صالحة ، وإن كان فاسداً كانت فاسدة . قال ﷺ : « إن في الجسد بُضعة إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد ، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الْجَسَدُ ألا وهي القلب »[٥] .

(١) في د : « المتصوفة » .

(٢) في د : « اللقب » .

(٣) كلمة « والكبر » ليست في د .

(٤) في د : « مبدأ لأعمال الظاهر » .

(٥) الحديث عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه -:=

وبيان ذلك أن الله سبحانه خلق في القلب غرائز وقوى ، وكل واحد منها يطلب مقتضى طبعه الذي خلق له ، وجعل كماله وغايته في تحصيله .

فغريزة الغضب تطلب التَّشفِّي والانتقام ، وفيه كمالها ولذَّتها .

وغريزة الشَّهوة تطلب اللّذة بالمأكول والمنكوح ، وبالجملة تحصيل المُلائم .

وكذلك غريزة العقل الذي[1] تطلب تحصيل العلم والمعرفة .

ولما ركب الله فيه من محبة الكمال لا يزال يتحرك بكل متحرك فيه إلى تحصيل كماله ، والفكر خادمه في جميع ذلك ، يركّبُ ويحلّل ، ويجمع ويفصل ، فيتصور عداوة شخص ما ، ويحرك الجوارح للانتقام منه ، ويتصور جمال شخص وكمال صورته فيحرك الجوارح للالتذاذ به ، ويتصور غذاءً ملائماً وقد وجد الجوع ، فيحرك الجوارح لتحصيل ذلك الغذاء ، ويتصور كمالاً في شخص فيود انتزاعه وانفراده به ، ويغتم لذلك ، ويؤسفه آخر فيتصور الانتقام منه ، ويتوهم الكمال في نفسه فيعجب بذاته ويزدري غيره لتوهم قصوره بالنسبة إليه ، وتطلب غريزة العقل أيضاً مقتضى طبعها ، وهو المعرفة والعلم ، فتحرك الفكر إلى تحصيله ، وتشتاق إلى الكمال الأعلى بمعرفة خالقها ، إذ لا ترى موجوداً أكمل منه ، فلا تزال تطلع إلى جانبه بتصورات وأفكار تتعاقب عليها تلحم في ذلك وتسدي[2] ، وتعيد وتبدي ، وحركاتها في جميع هذه الأمور متواترة مترادفة لا تفتر

= « إنَّ الحلال بيِّن ، وإنَّ الحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . أخرجه البخاري في صحيحه ١١٧/١ ، ومسلم رقم ١٥٩٩ ، وانظر جامع الأصول ٥٦٧/١٠ .

(١) في ط : « التي فيه » .

(٢) اللُّحمة : ما سدي به بين سدى الثوب ، أي الخيوط المعرضية ، (القاموس : لحم) .
والسَّدَى : من الثوب ما مدّ منه ، أي الخطوط الطولية ، (القاموس : سدي) .

طرفة عين ، ولا يلحقها من الكسل والملل[١] ما يلحق الجوارح والأعضاء ، وهي منتقلة دائماً أسرع من إيماض البرق ، وحركة الذبال[٢] بالريح . ولذلك كان ﷺ يكثر في دعائه : « يا مُقَلِّبَ القلوب »[٣] . ويقسم في أكثر أمره بقوله : « لا ، ومقلّب القلوب »[٤] . وقال ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »[٥] ، ثم ليس كل ما يظن القلب من هذه الغرائز أنه كمال له ولذة فهو كمال له ولذة باعتبار الآجل وحياته الدائمة التي أخبر الشارع بحال سعادته فيها أو شقاوته ، فإنه إنما أراد[٦] اللذة في هذه الغرائز باعتبار عاجله وحاضره ، وبقي ما يحصل في القلب من آثار هذه الأفعال ، وما يتلون به من الهيئات التي تكون له في الآجل خيراً ونعيماً ، أو شرّاً وعذاباً ، حتى في غريزة العقل بما يحصل فيها من العقائد والتصورات في جانب خالقها ، فمنها ما هو مفضٍ إلى السعادة ، ومنها ما يفضي إلى الشقاء ، ولا طريق إلى معرفة ما فيه السعادة باعتبار الآجل من الأعمال الباطنة كلها بل والظاهرة إلا الشرع ، فبيَّن صلوات الله

---

(١) في د : « والملال » .

(٢) الذبال جمع ذُبْلة : الفتيلة (القاموس : ذبل) .

(٣) الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك ، فقلت : يا رسول الله ، قد آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » ، (رواه الترمذي : وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول : ٥٣/٧، ٤٠٥/٥) .

(٤) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « أكثر ما كان رسول الله ﷺ يحلف : لا ومقلب القلوب » (رواه البخاري : ٥٧/١١ ، والإمام مالك في الموطأ : ٤٨٠/٢ ، وأبو داود رقم ٣٢٦٣ ، والترمذي رقم ١٥٤٠ ، والنسائي : ٢/٧ ، ٣ ، وانظر جامع الأصول : ٦٥٠/١١ ، وانظر الإحياء : ٢٠/٣) .

(٥) في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يقلبه كيف شاء » (رواه مسلم ٢٦٥٤ ، وانظر جامع الأصول : ٥٣/٧) .

(٦) في د : « أدرك » .

عليه وسلامه /٣/ المحمود منها من[1] المذموم ، وميَّز الخبيث من الطيب ، ونبَّه أن شأن الأعمال الباطنة أهم ، لأن الباطن أصل الاستقامة ومنبع الصلاح والفساد لجميع الأعمال ، كما مرَّ في الحديث قبل . وسِرُّه أن المطلوب من استقامة الجوارح إنما هو حصول آثار الاستقامة في النفس عَوْداً بعد بَدْء ، ثم يتضاعف في التكرار حتى تتمكن منها الهداية ، وتصدر عنها الاستقامة في جميع أعمالها من غير تكلف . قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »[2] ، ومن هنا كان الإيمان رأس الأعمال ، وأرفع مراتب السعادة ، لأنه أرفع الأعمال الباطنة كلها فكيف الظاهرة .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم لما شرح الله صدورهم للإسلام ، وقبلوا من الهداية[3] ما كانوا فيه على بيِّنة من ربِّهم ، صرفوا الاهتمام إلى أعمال الباطن أكثر من أعمال الظاهر ، فكانوا يراعون أنفاسهم ، ويراقبون خطراتهم ، ويَحْذَرون غوائل قلوبهم ، وفي هذا كانت أكثر مفاوضتهم ، وفزع بعضهم إلى بعض ، ومن فلتاتها معظم تحرزهم ، واعتبر ذلك في مثل سؤال عمر بن الخطاب حذيفة رضي الله عنهما ، وقد ذكر حذيفة المنافقين وأشار إلى ما سمع من رسول الله ﷺ في شأنهم ، فقال عمر : نشدتك الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلم أن رسول الله ﷺ سمَّاني فيهم ؟ قال : لا ، ولست أبرئ بعدك أحداً[4] . فانظر إلى حذر عمر رضي الله عنه من هذا النفاق ،

(١) في د : « المحمود من » .

(٢) في د : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ولفظ الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (رواه البخاري : ١٧١/٩ ، ومسلم ٢٥٦٣ ، وانظر جامع الأصول : ٥٢٥/٦) .

(٣) في د : « وقبلوا من نور الهداية » .

(٤) حذيفة بن اليمان هو : أبو عبد الله حذيفة بن حِسل بن جابر العبسي ، واليمان لقب حِسل ، من الصحابة الأجلاء ، ومن الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سرّ النبي ﷺ ، وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر ، وإلا لم يُصلِّ عليه ، وولاه عمر على المدائن بفارس ، فأقام فيها وأصلحها وهاجم نهاوند سنة ٢٢ ، وغزا دينور ، وهمذان والرّي ، توفي في المدائن قريباً من بغداد سنة ٣٦ هـ . (الإصابة : ٢١٧/١ ، حلية الأولياء : ٢٧٠/١ ، الأعلام : ١٧١/٢) .

=

وتأمل ما هو كيف تجده[1] [كثيراً] ما يحذر من خفيات الأعمال الباطنة المذمومة المجتنبة ، ويعرفك ذلك أن شأنها مهم وخطرها في الدين عظيم ، إذ لو كان مراد عمر وحذيفة بهذا النفاق ومدلوله المشهور ، وهو إظهار الإسلام وإضمار الكفر ، كما كان في منافقي المدينة وغيرهم ، لما حذر عمر من ذلك وفزع فيه إلى علم حذيفة إذ هو يعلم من نفسه أنه مبرأ منه ، وكيف يخفى هذا على عمر ، وكل أحد يعلم من نفسه ما أكن وما أبدى ، فالذي حذره عمر صنف آخر من النفاق ، وهو ما يكون من[2] أعمال الباطن من خفايا المهلكات تقع فلتةً ولا يعلمها الإنسان من نفسه ، ويعلمها النّبي باطّلاعه على القلوب ، ومعاينته لأعمالها وأسرارها بما خصّه الله به من ذلك ، وساغ إطلاق اسم النفاق على هذا الصنف من الأعمال لما فيه من مخالفة مضمر الباطن لظاهر الدعوى ؛ لأن دعوى المؤمن الاستقامة وهي ظاهر حاله ، وما يقع من خفيات الفلتات الباطنة القادحة في الاستقامة ، وإن لم تقع باختياره ، فهي مضمرة في القلب ، فأشبه النفاق من وجه مخالفة باطنه لظاهره ، فتجوز باسمه إليه ، وإن كان يفارق النفاق المشهور بأن هذا الخفي من العمل المذموم لم يتفطن له المكلف إلا أنه مأمور ببذل الجهد في مراعاة أحوال الباطن وحمله على الاستقامة ، ليستقيم به الظاهر وينجذب بالكلية إلى الهداية والسعادة ، فإن مسته غفلة أو تراخٍ في هذا الواجب المتعين كان منافقاً . وهذا كما أطلق اسم الشرك على الرياء لما فيه من التشريك في الوجهة بالعبادة ، فإن المرائي بعبادته لم تخلص إلى الله وجهته ، بل هو متوجه في ذلك إلى المراءى له ، فصار كالمشرك العابد اثنين ، فساغ إطلاق اسم الشرك عليه ، كما ورد في قوله ﷺ : « الرياء الشرك الأصغر »[3] .

= وقال في الإصابة : وفي الإصابة : عن حذيفة فيما يرويه مسلم : لقد حدثني رسول الله ﷺ ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة ، وفي الصحيحين : أن أبا الدرداء قال لعلقمة : أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره يعني حذيفة (الإصابة : ٣٣٢/١) .

(١) في د : « وتأمل ما هو تجده » .

(٢) في د : « في أعمال » .

(٣) الحديث ورد بلفظ مقارب عن محمود بن لبيك أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم =

وهذه كلها أدلة واضحة على أن شأن الباطن أعظم وعلاجه أهم .

ولنأت في ذلك بمزيد بيان ، وذلك أن الأعمال الظاهرة كلها في زمام الاختيار ، وتحت طوع القدرة البشرية ، وأعمال الباطن في الأكثر خارجة عن الاختيار ، متعاصية على الحكم البشري ، إذ لا سلطان له على الباطن ، بل ترجع الأعمال الظاهرة إليه لأنها تحت سلطانه وتحت[1] إشارته ، وفي زمام اختياره /٤/ ولهذا كانت النية التي هي مبدأ الأعمال أصلاً في العبادات عند الشرع وروحاً لها ، حتى إن العمل إذا خلا عنها بطل ولا يعتد به المكلف في الامتثال . قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

ثم لما درج الصحابة رضوان الله عليهم ، وجاء العصر التالي لعصرهم تلقى أهله هدى الصحابة مباشرة وتلقيناً وتعليماً ، وقيل لهم : التابعون ، ثم قيل لأهل العصر الذين بعدهم أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، وفشا الميل عن الجادّة ، والخروج عن الاستقامة ، ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها ، وأقبل الجمُّ الغفير على صلاح الأعمال البدنية ، والعناية بالمراسم الدينية من غير التفات إلى الباطن ولا اهتمام[3] بصلاحه ،

= الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزا ؟ » ، (رواه الإمام أحمد في المسند : ٤٢٨/٥ ، والبيهقي في الشعب : ٤٨٣١ ، وقال العراقي : ورجاله ثقات ، انظر الترغيب والترهيب : ٨٢/١) .

(١) في د : « وطوع إشارته » .

(٢) حديث : « إنما الأعمال بالنيات » رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري : ٥٠٦/١١ ، ومسلم رقم ١٦٣٨ ، وأبو داود رقم ٣٣٠٧ ، والترمذي رقم ١٥٤٦ ، والنسائي : ٢١/٧ ، (وانظر جامع الأصول : ٥٥٥/١١) .

(٣) في د : « والاهتمام بصلاحه » .

وشغل الفقهاء بما تعمّ به البلوى من أحكام المعاملات والعبادات الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصب الفتيا وهداية الجمهور . فاختص أرباب القلوب باسم الزهاد والعبّاد وطلاب الآخرة ، منقطعين إلى الله ، قابضين على أديانهم (كالقابض على الجمر) حسبما ورد[١] .

« ثم طرقت آفة البدع في المعتقدات ، وتداعى العبادة والزهد : معتزلي ورافضي ، وخارجي ، لا ينفعه إصلاح أعماله الظاهرة ولا الباطنة مع فساد المعتقد الذي هو رأس الأمر ، فانفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب ، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة وسموا[٢] بالمتصوفة »[٣] .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري[٤] :

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه ، كالقابض على الجمر » ، رواه الترمذي رقم ٢٢٦١ في الفتن . قال الشيخ عبد القادر أرناؤوط : وله شواهد يرتقي بها (انظر جامع الأصول : ٤/١٠) .

(٢) في د : « وسموا بالصوفية » .

(٣) النص في الرسالة للقشيري : ٥٢/١ ـ ٥٣ على النحو التالي : « ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف » .

(٤) يعتمد ابن خلدون كتاب الرسالة القشيرية كثيراً وينقل عدداً من النصوص يستشهد بها ، وكثيراً ما يتصرف في هذه النصوص .

والرسالة القشيرية كتبها الإمام القشيري سنة ٤٣٧ هـ إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، كتبها تصحيحاً لأوضاع كثيرة انحرفت ، وبياناً لما ينبغي أن يكون عليه المريد الصادق ، مبيّناً فيها جانبين : الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم ، وذكر في هذا الجانب كثيراً من أعلام الصوفية كنماذج يسير المريد على طريقهم ، أما الجانب الثاني : فهو مبادئ السلوك ومناهجه . ولقد كانت هذه الرسالة وما تزال النبع الصافي الذي يستقي منه كل دارس للتصوف ، وكل سالك فيه .

أما مؤلفها فهو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي ، ولد سنة ٣٧٦ هـ ، وطلب العلم مبكراً ، وسافر إلى نيسابور طلباً للعلم فاجتمع بأبي علي الدقاق وحضر دروسه ، وقربه إليه ، فانتفع به ، وأصبح في زمرة أخصائه ، وزوجه ابنته حبّاً له ، وانتهى الأمر =

« اشتهر هذا الاسم قريب المئتين من الهجرة »[١] ، ثم تتابعوا جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة ، يهتدي الخلف منهم بالسلف ، ويؤدي ما لقن عن شيوخه لمن وفقه الله من أتباعه ، وصار فقه الشريعة على نوعين :

الأول : فقه الظاهر ، وهو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال الجوارح فيما يخص المكلفين في أنفسهم ، أو يعمهم من عبادات وعادات وغيرها من الأفعال الظاهرة ، وهذا هو المسمى بالفقه في المشهور ، وحامله الفقيه ، وهم أهل الفتيا وحرسة الدين .

النوع الثاني : فقه الباطن[٢] ، وهو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال القلوب ، وما يخص المكلف في نفسه من أفعال الجوارح في عبادته وتناوله لضرورياته ، ويسمى هذا فقه القلوب وفقه الباطن ، وفقه الورع ، وعلم الآخرة ، والتصوف .

وكثرت العناية[٣] بالنوع الأول الذي هو الفقه لعموم البلوى ، واحتياج السلطان والكافة لمنصب الفتيا ، فكثر ناقلوه في كل عصر ، وتعددت فيه الموضوعات[٤] .

وبقي النوع الآخر الذي هو الأهم على كل أحد في نفسه قليلاً أو مهجوراً ، وربما خشي بعض علمائه لأجل ذلك دروسه وذهاب أهله ، فيجهل حكم الله في أفعال القلوب

= بالقشيري ليصبح شيخ خراسان في عصره زهداً وعلماً بالدين وأحكامه ، وكان السلطان يقدمه ويكرمه ، ألف عدداً من الكتب منها : التيسير في التفسير ، ولطائف الإشارات ، حياة الأرواح ، المعراج ، شكاية أهل السنة . توفي القشيري في السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ بمدينة نيسابور ، ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق رحمها الله تعالى (طبقات الشافعية للسبكي : ٢٤٣/٣ ، مقدمة الرسالة القشيرية ، الأعلام : ٥٧/٤) .

(١) في الرسالة ٥٢/١ : « واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة » .

(٢) وهو ما يعبر عن الظاهر : لسان الشريعة ، والباطن : لسان الحقيقة ، ويعرف القشيري ذلك بقوله : الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده . (الرسالة : ٢٦١/١) .

(٣) في د : « العنايات » .

(٤) انظر إحياء علوم الدين : ١٦/١ .

وحركات البواطن التي أهم على المكلف ، وأقرب به إلى النجاة ، فكتبوا في ذلك مصنفات هي أمهات الإفادة ، وإن كانت لا تتعدد ، كما فعله ابن عطاء[1] ، والمحاسبي في كتاب (الرعاية) وتابعهما الغزالي في كتاب (الإحياء) .

ثم إن نظر الفقيه ونظر المتصوف على التفسيرين المذكورين يجتمعان فيما يخص المكلف في نفسه من أفعال[2] الجوارح في عبادته ، وتناوله لضرورياته ، ويمتاز المتصوف والمتورع بالنظر إلى أفعال القلوب واعتقاداتها وتلوناتها يميز المحمود من المذموم ، والمنجي من المهلك ، والداء من الدواء . ويمتاز الفقيه بالنظر فيما يعم المكلفين من المعاملات ، والأنكحة والبيوع والحدود ، وغير ذلك من أبواب الفقه .

وفرق الغزالي بين نظر الفقيه والمتصوف فيما ينظران فيه من العبادات والمتناولات ، بأن نظر الفقيه من حيث يتعلق بمصالح الدنيا ، ونظره /٥/ المتصوف من حيث يتعلق بمصالح الآخرة .

قال[3] : لأن نظر الفقيه في العبادات التي رأسها الإسلام إنما هو من حيث إنها هل تصح فتكون مُجْزِئة ويقع بها الامتثال ويسقط القضاء ، أو تفسد فلا تكون مُجزئة ولا يقع بها الامتثال فلا يسقط القضاء ، أو من حيث يمتنع من الأداء فيباح دمه ، أو يؤدي فيعصم دمه ، وكذا نظره في الحلال والحرام إنما هو من حيث إنه تصرف في

---

(١) ابن عطاء : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي : قال القشيري : هو من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم ، وهو من أقران الجنيد ، وصحب إبراهيم المارستاني ، وقال السلمي : له لسان في فهم القرآن يختص به ، وكان أبو سعيد الخراز يعظِّم شأنه ، وكان الخراز يقول : « التصوف خلق ... وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء » ، توفي ابن عطاء سنة ٣٠٩ أو ٣١١ هـ . (طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٢٦٥ ، الرسالة القشيرية : ١٤٦/١) ، وانظر في ترجمته : حلية الأولياء : ٣٠٢/١٠-٣٠٥ ، طبقات الشعراني : ١١١/١ ، تاريخ بغداد : ٢٦/٥ .

(٢) في د : « أعمال » .

(٣) انظر الإحياء : ١٨/١-١٩ .

مال الغير ، فهل ينتزع من يده لمستحقه شرعاً أم لا ؟ وما يترتب على ذلك من آثار سقوط العدالة أو ثبوتها ، وهذه كلها أمور دينوية .

قال : والمتصوف ينظر في ذلك كله من حيث إنها حزازات للقلوب ، ومؤثرة في الاستقامة التي هي أصل النجاة ، فيرى أن الصلاة لما كانت عبادة وأصلها التوجه[١] بالقلب ، فإنما يبقى منها زاداً للآخرة ما حضره القلب ، لا ما غاب عنه . قال ﷺ : « وإنما له من صلاته ما عقل منها »[٢] ، وقال : « إن الرجل ليصلي الصلاة ليس له نصفها ، ثلثها ، ربعها ، إلى عُشرها »[٣] . وكذلك الإسلام الذي هو إقرار واعتراف في الطاعة ، وإلا فلا أثر له في الآخرة . وكذلك الحلال والحرام إنما ينظر فيه من حيث إنه حزازة في النفس من داء يجتنب[٤] لقوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٥] ، وقال ﷺ : « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به

(١) في د : « التوحيد » .

(٢) ورد في الإحياء : ١٥٩/١ بلفظ مشابه : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها » . وقال العراقي في تخريجه : لم أجده مرفوعاً ، وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً : « لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه » ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار : « لا يكتب للرجل من صلاته ما سها منها » .

(٣) الحديث عن عمار بن ياسر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل لينصرف ، وما كتب له إلا عشر صلاته ، تُسْعُها ، ثمنها ، سبُعها ، خمسُها ، ربعُها ، ثلثُها ، نصفُها » (أخرجه أبو داود رقم ٧٩٦ ، وهو حديث صحيح ورواه ابن حبان في صحيحه رقم ١٨٨٦ ، وانظر جامع الأصول : ٤٣٥/٥ ، وانظر تخريج العراقي له في الإحياء : ١٦١/١) .

(٤) في د : « وداء يجتث » .

(٥) الحديث عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » (أخرجه الترمذي رقم ٢٥٢٠ ، والنّسائي إلى قوله : « ما لا يريبك » ٣٢٧/٨ ، ٣٢٨ ، وإسناده صحيح وانظر جامع الأصول ٤٤٣/٦) .

مخافة مما[1] به بأس »[2] . قال : والفقيه لا يتكلم في حزازات[3] القلوب وكيفية اجتنابها .

فجميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم في الإثم وصفات القلب وأحكام الآخرة فليس من فنه .

وأنا أقول : هذا الكلام ليس على إطلاقه ، ونظر الفقيه لم يرتبط بالدنيا مجرداً[4] لأنه دنيوي ، بل هنا أمر آخر هو أليق بمناصبهم . وذلك أن الشريعة لما انقسم حاملوها ـ كما قدّمناه ـ إلى أهل فتيا وشورى يستعين بهم السلطان والكافة على إمضاء أحكام الله الظاهرة في خلقه ، وإلى عبّاد وزهّاد اشتغلوا بما يخصهم في أنفسهم من أحكام الله ، وقد يكون الفقيه حاملاً للفقهين معاً ، ولما كان[5] الأنبياء هداة الخلق إلى الله يأخذون بحجزاتهم عن النار ، فيرشدونهم إلى سعادتهم ، ويصدونهم عن شقاوتهم بالزجر أو الضرب أو القتل ، على تفاوت الأفعال فيما اشتملت عليه من المضار باعتبار الآجل ، وعرفنا منهم أن كمال النجاة إنما هو في التلبس بالتكاليف والإتيان بها على أتمّ وجوهها ، وأكمل أحوالها على اتفاق الباطن والظاهر ، ثم مراعاة الباطن ومراقبته حتى لا تتخلله غيبة ، ولا يشوبه فتور ، ودون ذلك مرتبة أخرى وهو[6] الإتيان بها كاملة في الظاهر متفقاً مع الباطن ، إلا أنها تخللته غيبة وفتور ، فليست هذه كالأولى ، لكنه ربما يؤول أن[7] النجاة غالباً فضلاً من الله ورحمة ، وأدون مراتب التكاليف الإتيان بها كاملة في الظاهر

---

(١) في د : « ما » .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه ٢٨٧/٢ ، والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي . الإحياء : ١٩/١ .

(٣) في د : « حزازة » .

(٤) في د : « مجردة » .

(٥) في د : « وكان » .

(٦) في د : « وهي » .

(٧) في د : « ربما تكون النجاة » .

فقط ، مهملة من الباطن جملة فلا يعتد بهذه ، وليست من النجاة في شيء ، لكن الشارع لم يجر على هذا الحكم التارك جملةً ، من ضرب أو قتل أو زجر ، إذ لم يجعل على البواطن سبيلاً ، ووكل المكلف إلى نفسه فهو أعلم بذاته[1] ، ولما عساه يرجى فيا بعد من صلاح الباطن بصلاح الظاهر . قال ﷺ : « هَلاَّ شقَقْتَ على قلبه »[2] . وقال : « إنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجَّتِه ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له من النار »[3] .

وعلى تفاوت هذه المراتب الثلاث يتنزل التفاوت بين الإسلام والإيمان والإحسان في التكاليف كلها ، فإن مقام /٦/ الإسلام هو العمل من حيث ظاهره في قبوله ، وسقوط التكليف به أو في ردّه . ومقام الإيمان هو اتفّاق الظاهر والباطن في أداء العبادة مع تخلل الغيبة ، وفي هذا رجاء النجاة . ومقام الإحسان هو اتفاق الباطن والظاهر مع المراقبة في جميع العمل حتى لا تتخلل غيبة بوجه ، وهذا هو الأكمل في حق النجاة . وتجري هذه المقامات الثلاثة[4] في جميع العبادات والتكاليف ، وهذا هو معنى ما يقوله بعض الأكابر من أن للشريعة ظاهراً وباطناً[5] ، بمعنى أن لها حكماً على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم ، وحكماً عليهم من حيث باطن أعمالهم ، لا ما يُمَوه به

---

(١) في د : « بدائه » .

(٢) الحديث ورد في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنها ، رواه ابن ماجه : ٢٣٩/٢ ، برقم ١٢٩٦ ، ومسند الإمام أحمد : ٢٠٠/٥ . وقال الهيثمي : هذا إسناد حسن . وقال العراقي : أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد . (انظر الإحياء : ١٨/١) .

(٣) الحديث عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضَكم ألحنَ بحجَّته من بعض ، فأقضيَ على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » . (رواه البخاري : ٢١٢/٥ ، ومسلم رقم ١٧١٣ ، والإمام مالك في الموطأ : ٧١٩/٢ ، وأبو داود رقم ٣٥٨٣ ، ٣٥٨٤ ، والترمذي رقم ١٣٣٩ ، والنسائي : ٢٣٣/٨ ، وانظر جامع الأصول : ١٨٠/١٠) .

(٤) في د : « الثلاث » .

(٥) انظر روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب : ٤٢٦/٢ .

الباطنية[١] ويزخرفونه من أقوال سفاسفة ناقضة لمعاقد الشريعة تقتضي أن الشارع أظهر حكماً وأبطن آخر ، تعالى الله عما يقولون .

فعلى هذا الفقيه المفتي هو المستقل بمعرفة هذه الأحكام كلها ، فإن استفتي من حيث عَرْض أعمال العباد على الشرع ، والحكم عليها بالصحة والفساد ، والقبول أو الرّدّ ، أفتى بما يتعلق بالعاجل كما ذكره الغزالي أنه مختص به ، وإنْ استفتاه مكلف من حيث ابتغاء النجاة لنفسه أفتاه بما يخلصه في الآجل ، إلا أن يكون إنما حمل من الشريعة الصنف[٢] الأول من الأحكام التي هي متعلقة بالظاهر فقط من حيث القبول أو الرّد في العاجل فأمر آخر .

ثم إن هذه الطائفة المختصين برعاية أحوال الباطن وفقه القلوب ما زالوا يقلّون في كل عصر ، ويخفون في كل قطر بفشو المخالفات ، وانحطاط النفوس في متابعة الأهواء وطاعة الخواطر ، حتى صار طريقهم ثقيلاً على القلوب بمخالفة الجبلة الطبيعية ، وإرسال العِنان في الشهوات الملائمة ، واستيلاء المطامع والأمنيات في النجاة بالأعمال الظاهرة ، مع أن الجمهور يرونهم بعين التجلة ، ويغبطون البضائع الخالصة لهم بالأهواء والأفئدة عقائد إسلامية لُقّنوها وتدارسوها ، ومحبة بالطبع في الزكاء والخير لو ساعدت العزائم عليها ، فلا يختلج في نفس مسلم عَقَل أبويه يدينان الدين إلا أن الحق في طريقهم والهدى في اتباعهم ، غير أن فقد الأعوان وقلة المساعدين مدعاةٌ إلى الكسل وسُلَّمٌ إلى البطالة ، والنفوس[٣] أبداً مع الجمِّ الغفير ، وتقليد الآباء ومشيخة العصر في القول والعمل ، ولو استيقنت أن السعادة في طريق الخواص ، لولوعها بحب العاجل الذي آثروه ، وركونها إلى ما ألفته وألفوه ، وتعللها بالأماني فيما تؤمله من الاستقامة والرحمة الكفيلة بالنجاة ، ولعل الله سبحانه يصدق ظنونهم ويرحم مسكينهم ، فقد

(١) في د : « بعض الباطنية من أقوال » .

(٢) في د : « النصف الأول » .

(٣) في د : « النفس » .

قال ﷺ : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن ما شاء »[1] . وقالت عائشة رضي الله عنها : « يحشر الناس على نيّاتهم »[2] . ومن أنعم بالوجود الأول والرحمة السابقة فلعله ينعم في الوجود الآخر بالرحمة اللاحقة ﴿ قُل ياعِبادِيَ الَّذينَ أسْرَفوا على أنفُسِهِم لا تَقْنَطوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إنَّهُ هُو الغَفورُ الرَّحيمُ ﴾ [الزُّمر : ٣٩/٥٣] .

ولما تميزت هذه الطائفة بما تميزت به من النظر في أفعال القلوب والاهتمام بها وتقديمها على أفعال الجوارح في الشرعيات والعاديات كما قال الجنيد[3] رضي الله عنه : « إذا رأيت الصوفي يُعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب »[4] . فاختصوا بهذا الاسم لقباً لهم وعلماً عليهم .

« وقد تكلف بعضهم فيه الاشتقاق . ولم يساعدهم القياس ، فقيل : من لبس

---

(١) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عزّ وجلّ أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » (رواه البخاري : ١٣/٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ومسلم رقم ٢٦٧٥ ، والترمذي رقم ٣٥٩٨ ، وانظر جامع الأصول : ٤/٤٧٦ ، ٩/٥٥٥ ، ١١/٦٩٣) .

(٢) رواه ابن ماجه : ٢/٢٨٩ من حديث جابر ، ورواه الإمام أحمد : ٢/٩٢ من حديث أبي هريرة . وقال الإمام العراقي : ولابن ماجه من حديث أبي هريرة : « إنما يبعث الناس على نيّاتهم » وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (الإحياء : ٤/٣٦٤) ، وقال العراقي ولمسلم من حديث عائشة : « يبعثهم الله على نيّاتهم » (الإحياء : ٣/٤٢) .

(٣) الجنيد بن محمد ، أبو القاسم البغدادي الخزاز ، صوفي من العلماء ، قال أحد معاصريه : ما رأت عيناي مثله ، شيخ زمانه ، وعدّه العلماء شيخ مذهب التّصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسُّنة ، ولد ببغداد وصحب خاله السّري السّقطي والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصّاب ، قال القشيري : سيّد هذه الطائفة وإمامهم . توفّي ببغداد سنة ٢٩٧ هـ (الرسالة : ١/١١٦ ، الحلية : ١٠/٢٥٥ ، تاريخ بغداد : ٧/٢٤١ ، الأعلام : ٢/١٤١) .

(٤) النّص ورد في الرسالة للقشيري : ٢/٥٥٣ .

الصوف . والقوم لم يختصوا بلباس دون لباس[١] . وإنما فعل ذلك بعض من تشبه بهم »[٢] ، وتخيل من لباسهم الصوف في بعض الأوقات تقلُّلاً وزهداً أنه شعار لهم ، فأُعجب بهذا الظن حتى حمله على الاشتقاق منه ، وما لبس /٧/ الصوف من لبسه منهم إلا تقلُّلاً وزهداً ، إذ كانوا يؤثرون التَّحلي بالفقر في كل حال شأن من لم يجعل الدنيا أكبر همه . قال ﷺ : « لا تجعلوا الدنيا أكبر همّكم فتهلككم كما أهلكت من قبلكم »[٣] . وقال ﷺ فيما يحكي عن ربّه : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[٤] . وثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يرقع ثوبه بالجلد[٥] .

---

(١) في د : « لم يختصوا فيه بلباس » .

(٢) ورد النّص في الرسالة للقشيري : ٥٥٣/٢ على الشكل التالي : « ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة : متصوفة ، وليس هذا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف ، ولهذا يقال : تصوّف ، إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمّص : إذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف » .

(٣) روى الطبراني بإسناد لا بأس به ، وابن حبان في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضيعته ، ولا يؤتيه منها إلا ما كتب له » (الترغيب والترهيب : ٢٥/٤ ، وقال العراقي أخرجه ابن ماجه ـ الإحياء : ٣٦٣/٤) .

(٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » (رواه البخاري ٦٤١٦ ، والترمذي ٢٣٣٣ ، والبيهقي في السُّنن الكبرى : ٣٦٩/٣ ، والإمام أحمد : ٢٤/٢ ، ٤١ ، وابن ماجه ٤١١٤ ، وابن حبان ٦٩٨ ، والترغيب والترهيب : ١٣٩/٤) .

(٥) أورد ابن الجوزي في ذلك عن الحسن رحمه الله قال : خطب عمر الناس ـ وهو خليفة ـ وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة . وعن أبي عثمان النهدي قال : رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يطوف بالبيت وعليه إزار ، فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأدم أحمر . (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص ١٣٧ـ١٣٨) .

وقال آخرون :

اشتقاقه من الصُّفَّة[1] ، وأن أصل هذه الطريقة مأخوذ عن أهل الصُّفَّة ، وهم المهاجرون الذين اختصُّوا بالسُّكنى في صفّة مسجد رسول الله ﷺ ، مثل أبي هريرة الدّوسي[2] ، وأبي ذر الغفاري[3] ، وبلال الحبشي[4] ، وصهيب الرّومي[5] ، وسلمان[6] الفارسي وأمثالهم .

---

(١) أهل الصُّفّة : فقراء المهاجرين الذين سكنوا صفّة مسجد رسول الله ﷺ .

(٢) أبو هريرة : عبد الرحمن بن صخر الدّوسي ، صحابي جليل ، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له ، أسلم سنة ٧ للهجرة ، ولزم صحبة النّبي ﷺ ، وهو من أشهر من سكن الصفّة في مسجد رسول الله ﷺ . توفي بالمدينة المنوّرة سنة ٥٩ هـ . (حلية الأولياء : ٣٧٦/١ ، الإصابة : ٢٠٢/٧ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢٧٠/٢ ، الأعلام : ٣٠٨/٣) .

(٣) أبو ذرّ : جندب بن جنادة ، من بني غفار ، صحابي جليل ، من كبارهم ، قديم الإسلام ، يضرب به المثل في الصدق والزهد ، وكان كريماً لا يخزن من المال شيئاً ، ولما مات لم يكن يملك ما يكفن به ، توفي بالربذة سنة ٣٢ هـ . (حلية الأولياء : ١٥٦/١ ، طبقات ابن سعد : ١٦١/٤ ، الإصابة : ٦٠/٧ ، الأعلام : ١٤٠/٢) .

(٤) بلال الحبشي : هو بلال بن رباح الحبشي ، أبو عبد الله ، مؤذن رسول الله ﷺ ، وخازنه على بيت ماله ، أحد السابقين في الإسلام ، وكان شديد السمرة نحيفاً ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان يسكن الصُّفة ، ولما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ، ولم يؤذن بعد ذلك ، ثم أقام حتى خرجت البعوث إلى الشام فسار معهم ، وتوفي بدمشق سنة ٢٠ هـ . (طبقات ابن سعد : ١٦٩/٣ ، حلية الأولياء : ١٤٧/١ ، الأعلام : ٧٣/٢) .

(٥) صهيب الرّومي : صهيب بن سنان ، صحابي من أرمى العرب سهماً ، وهو أحد السابقين في الإسلام ، سبته الروم وهو صغير ، فنشأ بينهم ، ثم اشتراه رجل من بني كلب فقدم به مكة ، فابتاعه عبد الله بن جدعان ثم أعتقه ، فأقام بمكة إلى أن ظهر الإسلام فأسلم ، ثم هاجر وترك ماله لقريش لما منعته من الهجرة ، فبلغ ذلك النّبي ﷺ فقال : ربح صهيب ، توفي في المدينة سنة ٣٨ هـ . (طبقات ابن سعد : ١٦١/٣ ، حلية الأولياء : ١٥١/١ ، الأعلام : ٢١٠/٣) .

(٦) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من أصبهان ، استعبده رجل من بني قريظة فجاء به إلى المدينة ، فأسلم ، ثم أعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه ، وكان قوي الجسم ، صحيح الرأي ، وهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب ، وقال فيه رسول الله ﷺ : « سلمانُ منّا أهل =

واعلم أنَّ أهل الصُّفَّة لم يكونوا مختصين على عهد رسول الله ﷺ بطريقة في العبادة ، بل كانوا أسوة الصحابة في العبادة والقيام بوظائف الشريعة ، وإنما اختصّوا بملازمة المسجد للغربة والفقر ، فإن المهاجرين من قريش نزلوا على أنظارهم من الأوس والخزرج ، وآخى رسول الله ﷺ بينهم ، وبقي الغرباء فآواهم إلى نفسه وأسكنهم مسجده ، وأمر بمواساتهم ، وكان يتفقدّهم ويحملهم معه إلى الدَّعوات .

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل قال : « وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها »[1] .

« هذا مع أن قياس النسب إلى الصُّفَّة[2] يأباه »[3] .

وكذلك من قال : إنه مشتق من الصفاء[4] .

فلم يبق إلا أنه وضع لهذه الطائفة علماً عليهم[5] يتميزون به . ثم تُصرف[6] في ذلك اللقب بالاشتقاق منه فقيل : متصوف ، وصوفي ، والطريقة تصوف ، وللجماعة متصوفون وصوفيون .

= البيت » ، وجُعل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفي سنة ٣٦ هـ . (طبقات ابن سعد : ٥٣/٤ ، حلية الأولياء : ١٨٥/١ ، الأعلام : ١١١/٣) .

(١) الحديث في صحيح البخاري (الرقاق) ٢٨١/١١ ، مسند الإمام أحمد : ٥١٥/٢ ، الحلية : ٣٧٧/١ .

(٢) في د : « مع أن قياس النسب إلى الصُّفة يأباه » .

(٣) النص مقتبس من الرسالة وهو فيها : « ومن قال إنهم منسوبون إلى صفّة مسجد رسول الله ﷺ فالنسبة إلى الصفّة لا تجيء على نحو الصوفي » . (الرسالة القشيرية : ٥٥٠/٢) .

(٤) النّص أيضاً مقتبس من الرسالة وفيها : « ومن قال : إنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة » (الرسالة القشيرية : ٥٥٠/٢) .

(٥) كلمة « عليهم » ليست في د .

(٦) في د : « تصرفوا » .

وإذا تقرر أنها[1] علم على هذه الطريقة فلنأت بالقول الذي يشرح ذلك المعنى على طريقة الحدود والرسوم فنقول : التصوف رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده ، مقدماً الاهتمام بأفعال القلوب ، مراقباً خفاياها ، حريصاً بذلك على النجاة . فهذا هو الرسم الذي يميز هذه الطريقة في نفسها ، ويعطي تفسيرها على ما كانت عليه عند المتأخرين من السلف والصدر الأول من المتصوفة ، حتى غلب استعمال هذا اللفظ في طريقة المجاهدة المفضية إلى رفع الحجاب على ما نقرره الآن ونوضح من شأنها .

(١) في د : « أنه » .

القول فيما سمت إليه همم القوم من المجاهدة[١]

ومـا حملهم عليهـا من البـواعث ، وكيف غلب اسم التصـوف في مجاهداتهم الأخرى ، واختص بها عند الكافة ، وانتقل إليهـا عن هـذه المجاهدة الأولى وتحقيق هذه الطريقة

ولنقدم قبل ذلك مقدماتٍ كاشفةً عن حقيقتها :

المقدمة الأولى : في الإشارة إلى معنى الروح[٢] ، والعقل ، والقلب ، وما هو الكمال اللائق بها[٣] .

اعلم أن الله سبحانه خلق هذا الإنسـان مركبـاً من جثمان ظـاهر ، وهيكل محسوس وهو الجسد ، ومن لطيفة ربانية أودعه إياها وأركبها مطية بـدنـه ، وهـذه اللطيفـة مع البـدن بمنزلـة الفـارس مع الفرس ، والسلطـان مع الرعيـة ، تصرف البـدن في طـوعهـا وتحركه في إرادتها لا يملك عليها شيئاً ، ولا يقدر على معاصاتها طرفـة عين ، لمـا ملكهـا الله من أمره ، وبثَّ من قواها فيه ، وهي التي يعبر عنها في الشرع تارةً بالروح[٤] ، وتارةً بالقلب ، وتارةً بالعقل ، وتارةً بالنفس ، وإن كانت هذه الألفاظ مشتركـة بينهـا وبين مدلولات أخرى[٥] ، وإن أردت مزيد شرح لهذا فعليك بكتاب الغزالي .

(١) في د : « المجاهدات » .

(٢) في د : « الروح والنفس والعقل » .

(٣) في د : « الشارع عنها » .

(٤) نقل ابن خلدون هذه المقدمة بتصرف من كتاب الإحيـاء للغزالي : ٣/٣ في (بيـان معنى النفس والروح والعقل وما المراد بهذه الأسامي) .

(٥) عرَّف القـاشـاني الروح في اصطلاح الصوفيـة : هي اللطيفـة الإنسـانيـة المجردة ، ولا يفرق الحكـاء بين=

وربما كنّى الشرع عليها[1] بالأمانة ، قال تعالى : ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانَةَ عَلى السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢/٣٣] . على أحد التفاسير في الأمانة . أي ظلوماً لتعرضه بحملها للخطر العظيم في أمر السعادة والشقاء ـ عصمنا الله ولطف بنا ـ وإسناد الحمل إلى الإنسان مجاز من مجاز المجاورة ، وإلاّ فهو مسكين لم يحمل ولم يضع ، وإنما هذه الأمانة وعرض به لحملها لما سبق في أمّ الكتاب من سعادته بها[2] أو شقاوته .

ثم هذه اللطيفة الربانية أبرزها الله من عالم الأمر ، وذاتُها لم تستكمل بعد ، وجعلها ميسَّرة بجبلتها للكمال . قال ﷺ : « كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَة ، فأبواهُ يُهوِّدانِه ويُمَجِّسانِه ويُنصِّرانِه »[3] ، وإنما أبرزت إلى هذا العالم لتكتسب فيه كمالها الذي لها[4] بحسب ذاتها ومقتضى طبعها ، ولما كانت ذاتها بأصل نشأتها من العالم الروحاني الذي ذواته عاملة بالفعل لا تفتقر إلى اكتساب ، كان كمال ذاتها هي بحصول العلم والمعرفة لها بحقائق الموجودات ، حتى تتصور عالمها وتعرف صفات موجده وآثاره . ولما كان تحصيل هذا الكمال بخروجها إلى هذا العالم الذي خلق لها وامتنَّ الله به على المكلفين في غيرما

= القلب والروح الأول يسمونها النفس الناطقة (اصطلاحات الصوفية ١٥١) .
أما النفس فعرفها بقوله : هو الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية ، وهي الواسطة بين القلب الذي هو النفس الناطقة وبين البدن (اصطلاحات الصوفية ٩٥) .
وأما القلب فهو : جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح والنفس الناطقة ، والروح باطنه ، والنفس الحيوانية مركَبُه . (اصطلاحات الصوفية ١٤٥) .
أما الغزالي فقد عرَّف كل ذلك بتفصيل واسع وبيان واضح مبسط (الإحياء : ٣/٣) ،

(١) في د : « الشارع عنها » .

(٢) كلمة « بها » ليست في د .

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه » (رواه البخاري : ١٧٦/٣ ، ومسلم رقم ٢٦٥٨ ، وانظر جامع الأصول : ٢٦٨/١) ، وأورده الغزالي في الإحياء مستشهداً به ١٤/٣ .

(٤) كلمة « لها » ليست في د .

موضع[١] من كتابه . قال تعالى : ﴿ سَخَّرَ[٢] لَكُم ما في السَّموات والأرض ﴾ [لقمان : ٢٠/٣١] ، و ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً ﴾ [البقرة : ٢٢/٢] ، و ﴿ جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ ﴾ [الأنعام : ٩٧/٦] ، وغير ذلك من الآيات . [٣-وكيفية تحصيلها لهذا الكمال-٣] بأن يتصرف[٤] البدن في هذا العالم بالقوى المبثوثة فيه من هذه اللطيفة وترجع الآثار إليها من أعمالها ، فتكتسب بها مزيد تطلع إلى الكمال ، وباعثاً على الاكتساب ، حتى تتجلّى معلوماتها أو تكاد فتتم ذاتها[٥] .

وتنزلت حينئذٍ الأعمال والعلوم لهذه اللطيفة منزلة الغذاء للبدن الذي ينمي قواه ويكمل هيكله المحسوس إلى أن يصير كهلاً بعد أن يكون صبيّاً ، كذلك حال العلم والعمل مع هذه اللطيفة ، فهي أول خروجها إلى هذا العالم بمنزلة الصبي في أول نشوئه حتى تستكمل في هذا العالم بما يحصل فيها من آثار العلم والعمل .

ولأن هذا العالم عالم المتضادات بمقتضى خلقته ، كانت الآثار الراجعة إليها من أفعالها على نوعين :

منها ما يكون مشيعاً لها نحو الكمال ومعيناً عليه ، وهو الخلق الزّكي والحسنات .

---

(١) في د : « في غير موضع » .

(٢) في (ح) و (د) : خلق وهو سهو ويبدو أن ابن خلدون اعتمد على حفظه ، وهناك آية أخرى في الجاثية ١٣ : ﴿ وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّموات وما في الأرْض ﴾ ، وكذلك هناك سهو آخر في الاستشهاد الذي يليه ، ففي الأصلين : ﴿ وجَعَلَ لَكُمُ السَّماءَ وجَعَلَ لَكُمُ الأرض ﴾ ، وكذلك يبدو أن ابن خلدون اعتمد على حفظه ، فأدى ذلك إلى الخطأ ، ووجدت أقرب ما يؤدي إلى المعنى الاستشهاد بالآية التي أثبتها . ففي القرآن الكريم : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ﴾ [البقرة : ٢٢ ، طه : ٥٣ ، غافر : ٦٤ ، الزُّخرف : ١٠ ، الملك : ١٥ ، نوح : ٢٩] . أما (جعل لكم السماء) فليست آية من القرآن .

(٣-٣) ما بينهما ساقط من د .

(٤) في د : « وذلك ليتصرف » .

(٥) في روضة التعريف : ١٣٢/١ حديث مستفيض عن النفس .

ومنها ما يكون عائقاً عن الكمال وصارفاً عنه وهو الرذائل والسيئات .

فإن كانت الآثار المستفادة آثار الخير والزكاء زاد فيها تطلُّعاً إلى الكمال ، وإقبالاً على الخير ، وميلاً إليه ، وتيسيراً في صدوره عنها[(١)] . ثم إذا صدر ثانية ورجعت إليها الآثار عادت الزيادة مضاعفة ، فلا تزال كذلك تتضاعف الزيادة عوداً بعد بدء ، حتى ترسخ [(٢-]في تلك اللطيفة الربانية[-٢)] صفات الخير المتكفلة بالكمال ، وتستولي على أمره وتتهيأ به لسعادتها الآجلة .

وإن كانت الآثار المستفادة آثار شرور ورذائل صرفها عن التَّطلُّع ، وقصر بها عن الكمال ، ويسرّها لصدور رذائل أخرى تتضاعف منها آثار الشَّر والرَّذائل فيها ، ولا تزال أيضاً كذلك إلى أن تنتهي إلى شِقْوَتِها الكبرى ، إلاَّ أن يمنَّ الله برحمته ، وينقذها بلطفه[(٣)] . قال تعالى : ﴿ فَأَمّا مَنْ أَعْطى واتَّقى ، وصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرى ، وأَمّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنى ، وكَذَّبَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرى ﴾ [اللَّيل : ٩٢/٥ـ١٠] ، وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، ومَنْ أَساءَ فَعَلَيها ﴾ [حم فصِّلت : ٤١/٤٦] ، وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدَّثِّر : ٧٤/٣٨] ، وقال : ﴿ لَها ما كَسَبَتْ وعَلَيها ما اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢/٢٨٦] . وقال ﷺ : « إنَّما هي أعمالُكم تُرَدُّ عليكم »[(٤)] . فإذا أمدَّ الله هذه اللطيفة الرَّبانية بنور الإيمان ، وزكَّاها بأعمال الحسنات ، وطهَّرها من اقتراف السَّيِّئات /٩/ رجعت إلى الله وقد خلصت من عوائق

---

(١) في د : « عنه » .

(٢ـ٢) ما بينهما ساقط من د .

(٣) انظر روضة التعريف : ١/١٣٢ ففيه حديث عن النفس متشابه .

(٤) الحديث ذكره ابن خلدون بالمعنى ، وهو جزء من حديث قدسي عن أبي ذرّ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال ـ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى ـ أنه قال : « يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً ... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه الإمام مسلم رقم ٢٥٧٧ ، (وانظر جامع الأصول : ١١/٣) .

هذه الدنيا وتباعاتها[١] ، واستولت على الكمال الذي خلقت له ، وأبرزت إلى الحياة الدنيا بسببه ، قال تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾ [الذّاريات : ٥١/٥٦] . قال ابن عباس : معناه ليعرفون[٢] . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إلَيْنا مَرجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم تَعْمَلونَ ﴾ [يونس : ١٠/٢٣] .

المقدمة الثانية : في كيفية اكتساب هذه اللطيفة الرَّبانية العلومَ والمعارفَ التي بها كمالها ، وفيه فرق بين العلم الكسبي والإلهامي ، وبين الوحي ، [٣-ليتبين من بين ذلك معنى العلم الإلهامي وهو علم الكشف والمشاهدة الذي تدعيه المتصوفة-٣] :

اعلم أن هذه اللطيفة أركبت[٤] مطية البدن وثبت قواها فيه للاستكمال بحياتها الدنيا ، ثم كانت من عالم الأمر والملكوت ، تعيَّنَتْ لها جهتان تكتسب منها كمالها بالعلوم والمعارف إحداهما جهة هذه الحياة الدنيا التي خلقت لها ، وجميع ما فيها مسخَّر لها ، والأخرى جهة عالمها الذي نَشْأَتُها منه ، وذاتها من طبيعة ذواته ، فجهة الحياة الدنيا والعالم الأسفل تكتسب منها العلوم والمعارف ببسط الحواس الظاهرة على المدركات ، ثم[٥] بانتزاع صورها في الخيال ، ثم تجريد المعاني المعقولة منها ، ثم تصرف الفكر فيها بالتركيب والتحليل ونظم الأقيسة حتى يحصل مطلوبها الذي تتوجه إليه ، ويسمى هذا العلم كسبياً ، وجهة العالم الأعلى وعالم الأمر وعالم الروحانيات تكتسب منه بتصفيتها عن كدرات[٦] الرذائل وتخليصها من ظلم البشرية ، فتتعرض بذلك لنفحات الرحمة ومهب الكمال والسعادة ، فتلوح أنوار العلم والمعرفة في القلب .

(١) في د : « تبعاتها » .

(٢) في الرسالة القشيرية ٣٠/١ : « سمعت أبا حاتم الصوفي يقول : سمعت أبا نصر الطوسي يقول : سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عزّ وجلّ على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ، لقوله جلّ ذكره : ﴿ وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾ قال ابن عباس : إلا ليعرفون » .

(٣-٣) ما بينهما ساقط من د .

(٤) في د : « ارتكبت » .

(٥) كلمة « ثم » ليست في د .

(٦) في د : « كدورات » .

ثم إن صفاءَها عن الكدرات وتخليصها بالمجاهدة ، إن كان بغريزة مركوزة في الجِبِلَّةِ من لَدُنْ نشوئِه ـ وهي العصمة ـ مانعةً من مقارفة جميع ما تتوهم فيه مخالفة ، وكانت الظلم البشرية محمودة ، وحظ الشيطان منزوعاً من القلب بنور النُّبوة ، فكان[1] العلم اللائح من ذلك العالم بسبب يورده ويلقيه مع مشاهدة المورد له وهو الملك ، وهذا هو الوحي ، وهو علم الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ وهو أرفع مراتب العلم .

وأما إن كانت التَّصفية والتَّخليص باكتسابٍ وطريقٍ صناعي ، فإن العلم المفاد عنه لا يشعر بسببه ولا مورده ، وإنما يكون نَفْثاً في الرُّوع ، وهو دون العلم الأول ، وهذه علوم الأولياء والصِّديقين ، وهي العلوم الإلهامية والكشفية واللَّدنيّة[2] ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً ﴾ [الكهف : ٦٥/١٨] . أما الوحي والعلم الكسبي فأمرهما ظاهر ، هذا بالحس وذاك معلوم من الدين ضرورة . وأما العلم الإلهامي[3] فيكاد أن يكون التَّصديق به وجدانياً ، وأوضح ما يعتبر به ويشهد بصدقه حال الرؤيا ، وكيف تكون إذا انسدل حجاب النوم ، وخفَّ عن القلب إصر الحواس الظاهرة ، وانجمعت قواه إلى الباطن كيف يفضي ذلك به إلى أن يختلس إدراكاً ما من جانب عالمه صريحاً أو مثالاً ومحاكاة ، يشهد صدقه في اليقظة بصحة إدراكه ، وما ذاك إلاَّ لخفة الكثير من عوائق هذا الإدراك بركود الحس الظاهر ، فكيف لو ارتفعت جميع العوائق البدنية ، وامَّحت سائر الصفات البشرية . قال ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء

---

(١) في د : « كان » .

(٢) أشار إلى ذلك الغزالي في الإحياء ١٩/١ بقوله : علم المكاشفة علم الباطن وذلك غاية العلوم ... وهو علم الصّديقين والمقرَّبين ، أعني علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ... فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتّضاحاً يجري مجرى العيان » .

(٣) يقول الغزالي عن العلم الإلهامي : « يسمى إلهاماً ونفثاً في الرّوع .. ويختص به الأولياء والأصفياء ، وحقيقة القول فيه إن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها » (الإحياء : ١٨/٣) .

من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[١] . وقال ﷺ : « الرُّؤيا من الْمُبَشِّرات »[٢] ، وكانت بداية أحوال الوحي والاطِّلاع إلى عالم الملكوت الرُّؤيا ، قالت عائشة رضي الله عنها : « أوَّلُ[٣] ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤياً إلاَّ جاءت كَفَلَقِ الصُّبْحِ[٤] » .

وقد مثَّل[٥] الغزالي النفس في ورود العلم عليها من الجهتين بمثالين :

أحدهما بالحوض الذي يرد عليه الماء تارةً من أنهار توردِه عليه /١٠/ من خارج ، وتارةً ينبع فيه من فوهة بأسفله سدَّها التراب وغطاها ، فالحواس والفكر في حق أهل الاكتساب كالأنهار للحوض ، والتصفية والمجاهدة في حق أهل الإلهام كإزالة التراب عن منبع الماء بأسفل الحوض .

والمثال الثاني بصناع الهند والصين لما أمروا بنقش حائطين متقابلين من بيت الملك ، ورسم الأشكال فيهما ؛ وكيف اشتغل فعلة الهند بالتصاوير المحكمة ، والتماثيل الموهمة[٦] ، والرقوم البديعة . واشتغل فعلة الصين بصقل الحائط المقابل لهم ، وبينهما

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النُّبوة » (رواه البخاري : ٣٥٦/١٢ ، ومسلم رقم ٢٢٦٣ ، والترمذي : ٢٢٧١) .
وأما حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله ﷺ قال : الرُّؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النُّبوة » فقد رواه الإمام مسلم رقم ٢٢٦٥ (انظر جامع الأصول : ٥١٥/٢ ، ٥٢٥) .

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ قال : لم يبق بعدي من النُّبوة إلاَّ المبشرات ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » رواه البخاري : ٣٣١/٢ ، والموطأ : ٩٥٧/٢ ، وأبو داود رقم ٥٠١٧ (وانظر جامع الأصول : ٥٢٦/٢) .

(٣) حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح ... » رواه البخاري : ٢١/١ ، ومسلم رقم ١٦٠ ، (انظر جامع الأصول : ٢٧٥/١١) .

(٤) في د : « مثل فلق الصبح » .

(٥) الإحياء : ٢٠/٣-٢٢ ، وقد تصرف بالنص ابن خلدون .

(٦) في د : « المموهة » .

حجاب منسدل حتى أتوا على آخر عملهم فقيل لفعلة الصين : ما فعلتم أنتم ؟ قالوا : أكملنا ، فلما قيل : هاتوا برهانكم ، وأزيل الحجاب الحائل انطبعت نقوش أهل الهند وتماثيلهم بأجمعها في الصقل المقابل ، فكانت أتم جمالاً وأحسن محاكاة .

وهذان المثالان وإن لم يفيدا برهاناً عند الجميع ، فإنهما يفيدانه عند ذوي الطبع السليم والبصيرة النافذة ، والذوق الصحيح ، مع أنه لا برهان يشهد للقوم على علم الإلهام وصحة وجوده أوضح من الرؤيا .

ثم نزيد ذلك بياناً وشرحاً فنقول : إن الله سبحانه لما خلق هذا الخلق لم يبرزه إلى الوجود الحسي دفعة ، بل درجه في أطوار ، فأودعه أولاً بجميع حقائقه وذواته : كبيرها وصغيرها ، جميعها ومفترقها في كتاب سمّاه اللوح ، وسمّى إيداعه القلم حسبما تشهد بذلك ظواهر القرآن ، ففي ذلك اللوح حقائق ما كان أو سيكون أو هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم أبرزه من ذلك اللوح إلى الوجود الحسي على تدريج في الكون معلوم فلا نطول به .

ولما فطر هذه اللطيفة الربانية على الاستكمال بالمعرفة والعلم بحقائق تلك الموجودات وصفات موجدها جعل لها جانبين :

جانب تجاه الوجود الحسي يؤدي إليها صور تلك الموجودات ينتزعها الحس من الموجودات انتزاعاً ، ثم يجرد العقل معانيها تجريداً ، ثم يرتبها الخيال والفكر ترتيباً مفيداً ، وجانب تجاه ذلك اللوح ، يتعرض به إلى انطباع صور تلك الموجودات فيه ، ثم كانت الصفات البشرية والأحوال البدنية مانعةً من ذلك الانطباع وحائلةً دونه ، وحجاباً بين اللوح وبين تلك اللطيفة ، فإذا ارتفع الحجاب بالتصفية والتخليص من الكدرات وقع الإدراك على أتمّ الوجوه ، وكان أكمل من الإدراك بالجانب الآخر ، إذ الحس والخيال غير مأمونين على انتزاع الصور والحقائق من الموجودات الحسية حتى

تؤديها كما هي ، وليس الفكر أيضاً بمأمون على تجريدها وترتيبها الترتيب الذي يفيد تصورها ، إذ هما آلتان وواسطتان لهذه اللطيفة في إفادة مالها من ذاتها ، واللطيفة بنفسها مأمونة على انطباع الصور في ذاتها ؛ لأن ذلك لها من ذلك لها من ذاتها ، فتحصيل مالها من ذاتها بذاتها أوثق من تحصيله بغيرها ، والثقة فيه بنفسها أولى من الثقة بغيرها ، فلهذا كان إدراكها من هذا الجانب أوضح ، ولهذا كان أفلاطون وهو كبير الحكماء وكبير المتصوفة[1] الأقدمين ، لا يرى من مدارك العلم الكسبي الحائمة على العالم الروحاني برهاناً قطعياً ويقول : إنما يوصل بها إلى الأولى والأخلق ، فجعل العلم الكسبي مع الإلهامي بمثابة الظن مع العلم[2] .

ثم إن القرآن والسُّنة شاهدان بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم . قال الله تعالى : ﴿ وما خَلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ لآياتٍ لِقَومٍ[3] يَتَّقونَ ﴾ [يونس : ٦/١٠] . وقال : ﴿ هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨/٣] . وقال : ﴿ إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ﴾ [الأنفال : ٢٩/٨] . قيل : نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يكثر في دعائه من سؤال النور فيقول : « اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً واجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي شَعري وبشري ولحمي ودمي »[4] . وقال تعالى : ﴿ والَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩/٢٩] . وقال : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢/٢] . وسُئل رسول الله صلى الله /١١/ عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلامِ

(١) في د : « وهو كبير المتصوفة » .

(٢) الإحياء : ٢٤/٣ .

(٣) في ح و د : « لقوم يوقنون » وهو خطأ والآية بتمامها : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ .

(٤) الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما وكان في دعائه : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، واجعل لي نوراً » رواه البخاري : ١٨٩/١ ، ١٩٠ ، ومسلم رقم ٧٦٣ (وانظر جامع الأصول : ٨٣/٦ ، وانظر الإحياء : ٢٤/٣) .

فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَبِّهِ ﴾ [الزُّمر : ٢٢/٣٩] ، فقال : هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به في القلب اتّسع له الصدر وانشرح[١] . وقال ﷺ : « مَنْ عَمِل بما عَلِم أورثه الله علم ما لم يعلم »[٢] . وقال : « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »[٣] . وقال : « اتّقوا فِراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »[٤] . وقال : « إنَّ من أمتي مُحَدَّثين وإن عمر منهم »[٥] . وقال أبو يزيد[٦] : ليس العالم الذي يحفظ من كتاب الله فإذا نسي صار جاهلاً ، إنما العالم الذي يأخذ العلم من ربّه في أي وقت شاء بلا تحفظ ولا درس[٧] . وإلى مثله الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : ٦٥/١٨] ، كما تقدم ، فإن كل علم من لدنه . لكن بعضها[٨] بواسطة التعليم

---

(١) في د : « والشرح » .

(٢) قال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه (الإحياء : ٧١/١) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية : ١٨٩/٥ ، ورواه الإمام أحمد في الزهد . قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط : الحديث ضعيف (انظر جامع الأصول : ٥٥٧/١١) .

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٢١٢٥ في التفسير ، وقال : حديث حسن . (وانظر جامع الأصول : ٢٠٥/٢) ، وأورده في الإحياء : ٢٤/٣ .

(٥) الحديث ورد في الإحياء : ٢٤/٣ ، وقال العراقي في تخريجه : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » ، ورواه مسلم من حديث عائشة . وفي جامع الأصول : ٦١٠/٨ ، رواه مسلم رقم ٢٣٩٨ ، والترمذي رقم ٣٦٩٤ . ومحدَّثون : بتشديد الدال : أي مفهمون . وقال الغزالي : والمحدث : هو الملهم ، والملهم هو الذي انكشف له ما في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجة (الإحياء : ٢٤/٣) .

(٦) أبو يزيد : طيفور بن عيسى البسطامي ، زاهد مشهور ، له كلام مشهور في التصوف ، نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) ، وهو من رجال الرسالة القشيرية ، وذكر ابن عربي أنه كان قطب الغوث في زمانه . توفي سنة ٢٦١ هـ . (حلية الأولياء : ٣٣/١٠ ، الرسالة القشيرية : ٨٨/١ ، الأعلام : ٢٣٥/٣) .

(٧) كلام أبي يزيد في الإحياء : ٢٤/٣ .

(٨) في د : « بعضه » .

فلا يُسمى ذلك علماً لَدُنِّياً ، بل العلم اللَّدُنِّي الذي ينفتح في سرِّ القلب من غير سبب مألوف من خارج . والشواهد في هذا أكثر من أن تحصى ، وأما وقوع ذلك في الصحابة والتابعين ومن بعدهم فكثير . قال أبو بكر لعائشة رضي الله عنهما : إنها أختاك[1] ، وكانت زوجه حاملاً فولدت بنتاً . وقال عمر رضي الله عنه أثناء خطبته في القصة المشهورة : ياساريةُ الجبلَ[2] . وأمثال هذا كثير ، لواستقصيناه لخرجنا عن الغرض بالإطالة .

المقدمة الثالثة : في معنى السعادة الأخروية وتفاوتها ، وحرص أهل الهمم على الفوز بالنوع الأعلى منها ، وهو النظر إلى وجه الله ، وطلب سببه المؤدي إليه ، وهو معرفة الله في الحياة الدنيا برفع الحجاب .

اعلم أن معنى السعادة هو[3] حصول النعيم واللذة باستيفاء كل غريزة ما يشتاق إليه مقتضى طبعها وذلك هو كمالها ، فلذَّةُ الغضب بالانتقام ، ولذَّةُ الشهوة بالغذاء أو النكاح ، ولذَّةُ البصر بالرؤية ، ولذَّةُ هذه اللطيفة الروحانية بحصول العلم والمعرفة لأنه كما قدَّمنا مقتضى طبعها وغريزتها ، ثم تتفاوت اللذات بتفاوت الغرائز في أنفسها .

وقد تبيَّن أن هذه اللطيفة أكمل الغرائز المدركة ، فلذَّتها بالإدراك أتم وأعظم ، ثم تتفاوت أيضاً بتفاوت المعلومات ، فالعلم بالنحو والفقه والشعر ليس كالعلم بالله وصفاته وأفعاله ، والاطِّلاع على أسرار السوقة والملاحين ليس كالاطِّلاع على أسرار الملوك وبواطن[4] تدبيرهم ، ثم يتفاوت هذا العلم أيضاً مع الكسبي كما قدمناه .

---

(١) في الموطأ باب ما لا يجوز من النحل ص ٣١٤ ، والإحياء : ٢٤/٣ ، ومقدمة ابن خلدون : « إنما هما أخواك وأختاك » .

(٢) سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدئلي ، صحابي ، من الشعراء القادة الفاتحين في فارس ، جعله عمر أميراً على جيش ، وسيره إلى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ، ففتح بلاداً منها أصبهان في رواية ، وهو المعني بقول عمر : ياسارية الجبل (الإصابة الترجمة ٣٠٢٤ ، الأعلام : ٦٩/٣) .

(٣) كلمة «هو» ليست في د .

(٤) في د : «وموطن» .

فإذا كان في المعلومات ما هو أجل وأشرف ، وفي العلوم ما هو أتم وأوضح ، وإن[١] كان الشوق إلى العلم به شديداً فالعلم به ألذ العلوم لا محالة ، وليس في الوجود أعلى ولا أشرف ولا أكمل من خالق الأشياء وموجدها[٢] ومرتبها ومصورها ، وهل يتصور أن تكون حضرة في الكمال والجمال أعظم من الربوبية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وصف واصف ؟ فإذن الاطلاع على أسرارها والعلم بترتيبها المحيط بكل الموجودات علماً لَدُنّياً إلهامياً واطلاعاً كشفياً هو أعلى أنواع المعارف وأوضحها وأكملها وألذها وأحرى ما يحصل به الابتهاج والفرح ويستشعر به الكمال[٣] .

فقد تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم معرفة الله وصفاته وأفعاله وتدبير مملكته بالعلم الإلهامي اللَّدُنّي الذي قدمنا شرحه ، ولا سيما من طال فكره في ذلك وحرصه على الاطّلاع على أسرار الملكوت ، فإنه يعظم فرحه عند الكشف بما يكاد يطير له ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى ، ولقد يَستشعر شيئاً من هذه اللذة طلابُ العلم الكسبي عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي يطول حرصهم عليها وشوقهم إلى معرفتها .

فاللّذةُ على ضربين : لَذّةُ الغرائز البدنية بحصول مقتضى طباعها ، ولَذّةُ القلب بحصول مقتضى طبعه وغريزته وهو العلم . وأعلاها لذّة معرفة الله تعالى وصفاته . ولذّة جمال مطالعة حضرة الربوبية هي التي عنى النبي ﷺ بقوله : « أعددت لعبادي /١٢/ الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[٤] ، إلا أن

---

(١) كلمة «وإن» ليست في د .

(٢) كلمة «وموجدها» ليست في د .

(٣) ما تقدم في الإحياء للغزالي ٣٠٣/٣ .

(٤) الحديث حديث قدسي عن أبي هريرة رواه البخاري : ٢٣٠/٦ ، ومسلم ٢٨٢ ، والترمذي رقم ٣١٩٥ ، (وانظر جامع الأصول : ٤٩٦/١٠) وهو في الإحياء : ٣١١/٤ .

هذه المطالعة والمعرفة يقع فيها بعدَ الموت مزيدُ كشف واتِّضاح كان البدن مانعاً منه ويتنزل منزلة المبصر ، وهو المعبر عنه بالرؤية [١] .

وبيان ذلك أن البصر إذا رأى شخصاً ثم غمضت الأجفان دونه بقي متخيلاً ، ثم إذا فتح أجفانه مرة أخرى رآه كما كان أولاً ، فبين الحالين تفرقة ، وليست إلا في مزيد الكشف والاتِّضاح في الإدراك ، وإلاَّ فالمرئي بحاله ، وكذا إذا أدرك هيكل شخص في غسق من [٢] الليل أو سدفة ، ولم يتبينه ، وحصل في خياله ، فإنه إذا انتشر الضوء ووضع الصباح اتَّضح إدراكه وأحاط به من جميع جهاته ، والمرئي باقٍ بحاله .

فهذه رتبتان في الإدراك عندما يكون متخيلاً ، ثم عندما يصير مرئياً ، فلا يبعد إذن أن يكون في العلم بالموجودات البريئة عن الخيال كالباري وأفعاله رتبتان أيضاً : إحداهما أتم وضوحاً من الأخرى وتكون المتضحة منهما بعد الموت بارتفاع حجاب البدن وزوال مانعه ، وتكون نسبة البدن نسبة الأجفان التي كان انطباقها حائلاً دون كمال الإدراك ووضوحه في المتخيل ، ونسبة الغسق والسدفة الذي كان مانعاً من ذلك ، وإذا كان هذا الوضوح حاصلاً في الإدراك فما المانع أن يخلقه الله في العين أو فيما شاء من الجوارح والأعضاء ، فإذا زال الحجاب بالموت وكان المحل صافياً عن الخبائث البدنية ، والكدرات الخلقية ، وأكمل الله تطهيرها وتزكيتها تجلى له الحق تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه قبل [٣] كانكشاف تجلي [٤] المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله قبل ، فالرؤية من غير شكل ولا تقدير صورة حق ، وهي زيادة وضوح وكشف في المعرفة الحاصلة في الدنيا ، والمعرفة لها كالبذر الذي ينقلب مشاهدة كما ينقلب البزر شجراً والبذر زرعاً ، فمن لا نواة له لا يكون له [٥] نخل ، فمن لم يلتذ بشيء من المعرفة

(١) النص السابق في الإحياء : ٣١١/٤ .
(٢) في د : « في الليل » .
(٣) في د : « من قبل » .
(٤) الإحياء : ٣١١/٤ .
(٥) الإحياء : ٣١١/٤ .

هنا لم[١] يلتذ بشيء من الرؤية هناك ؛ إذ لا يستأنف أحد في الآخرة عملاً لم يصحبه في الدنيا ، إنما هي دار جزاء لا دار تكليف . قال ﷺ : « يموت المرء على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه »[٢] . وإنما هو أن تنقلب المعرفة نظراً ومشاهدة فتعظم اللذة ، كما تعظم لذّة العاشق برؤية محبوبه . ولما كانت المعرفة السابقة في الدنيا تتفاوت إلى غير نهاية ، فالتجلي أيضاً يتفاوت ، وقد قدمنا تفاوت إدراك البصر في الشخص المرئي في سدفة الظلام ، فلا يبعد مثله في تجلي الذوات البريئة عن الخيال . قال ﷺ : « إن الله يتجلّى للناس عامّةً ولأبي بكر خاصّةً »[٣] ، وما ذاك إلاّ لما امتاز به من كمال المعرفة ، قال ﷺ : « ما فضلكم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ولكن بسرٍّ[٤] وقر في صدره »[٥] إشارة إلى المعرفة كما قدمناه[٦] .

فقد تبين أن السعادة الأخروية للمكلف سعادتان : سعادته الجسمانية بلذة غرائزه وقواه ، وسعادته القلبية بلذة النظر إلى وجه الله ، وإن كانت جارحة النظر من البدن ، فاللذة هي بالمعرفة[٧] الناشئة عن الإدراك وهي في القلب ، وهذه السعادة أهم

(١) في د : « فلا يلتذ » .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » رواه الإمام مسلم رقم ٢٨٧٨ في الجنة ، وانظر جامع الأصول (٤٣٠/١٠) وورد في الإحياء : ٣٦٤/٤ ، وكذلك في روضة التعريف ص ١١٠ ، ٤٥٣ .

(٣) أورده الغزالي في الإحياء ، وقال عنه العراقي في تخريجه : أخرجه ابن عدي من حديث جابر ، وقال : باطل بهذا الإسناد ، وفي الميزان للذهبي أن الدارقطني رواه عن المحاملي ، عن علي بن عبدة ، وقال الدارقطني أن علي بن عبدة كان يضع الحديث . ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة (الإحياء : ٣١٣/٣) .

(٤) في د : « بشيء » وكذلك في الإحياء .

(٥) الحديث أورده الغزالي في الإحياء : ٢٣/١ ، وقال العراقي : أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ، ولم أجده مرفوعاً ، وانظر تمييز الطيب ١٤٣ .

(٦) الإحياء : ٣١٠/٤ وما بعده .

(٧) في د : « فاللذة بالمعرفة » .

عند العارفين وأكبر ، وهم لها آثر . قال الثوري[(١)] لرابعة[(٢)] : « ما حقيقة إيمانك ؟ » ، فقالت : « ما عبدته خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته[(٣)] ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبّاً له وشوقاً إليه » ، وقيل لها : « ما تقول في الجنة ؟ » ، فقالت : « الجار قبل الدار » ، [(٤-]والحكايات عنهم في هذا الباب كثيرة[-٤)] .

المقدمة الرابعة : في أن لذّة المعرفة الكشفية قد تحصل في الدنيا واختلاف مراتبها .

اعلم أن هذه اللطيفة الربانية التي فينا إذا حصل لها بالتصفية والمجاهدة العلم الإلهامي كما قدمناه ، ويسمى كشفاً واطّلاعاً ، فهو ذو مراتب تختلف وتتفاوت بتفاوت الصفاء والتخلص من الكدرات ، فمبدؤها المحاضرة ، وهي آخر مراتب الحجاب وأول مراتب الكشف ، ثم بعدها المكاشفة ثم بعدها /١٣/ المشاهدة ، ولا تكون إلاّ إذا امّحت آثار الإنية[(٥)] . قال الجنيد رضي الله عنه : « صاحب المحاضرة مربوط بآياته[(٦)] ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته »[(٧)] . قال الأستاذ

(١) سفيان بن سعيد الثوري ، أمير المؤمنين بالحديث ، كان سيد أهل زمانه في العلوم والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ، تنقل بين مكة والمدينة والبصرة ، ومات بالبصرة سنة ١٦١ هـ . (حلية الأولياء : ٣٥٦/٦ ، وطبقات ابن سعد : ٢٥٧/٦ ، والأعلام : ١٠٤/٣) .

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير البصرية ، لها أخبار كثيرة في العبادة والنسك والحكم الصوفية . توفيت بالقدس سنة ١٣٥ هـ (وفيات الأعيان : ١٨٢/١ ، الأعلام : ١٠/٣) .

(٣) ورد جزء من ذلك في روضة التعريف ص ٤٢٢ .

(٤-٤) ما بينهما ساقط من د .

(٥) الإنية : قال الكاشاني : الإنية : تحقق الوجود العيني من حيث رتبته الذاتية (اصطلاحات الصوفية ٣٣) .

(٦) في د : « بإنيته » ، وفي (ح) والرسالة : « بآياته » ، وفي شرح الرسالة للأنصاري : آياته : براهينه وخوارق عاداته .

(٧) نقل ابن خلدون النص عن الجنيد مختصراً وهو : « فصاحب المحاضرة مربوط بآياته ، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته ، وصاحب المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته » .

أبو القاسم[١] : « المحاضرة حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، وهو بَعدُ وراءَ الستر ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان[٢] الذكر ، ثم بعده المكاشفة وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ، ولا مستجير من دواعي الريب ، ولا محجوب عن نعت الغيب ، ثم المشاهدة وهي وجود[٣] الحق من غير بقاء تهمة » . ومثال هذا التفاوت في الاتّضاح أن تبصر زيداً في الدار عن قرب ، وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس ، فهذا كال الإدراك ، وآخر يدركه في بيت ، أو من بعد ، أو في وقت عشية فيتمثل من صورته ما يتيقن[٤] معه أنه هو ، ولكن لا تتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته ، ومثل هذا يتصور في تفاوت المكاشفة للعلوم الإلهية ، وأقصى مراتب هذا الكشف وأعلاها هي[٥] رتبة المشاهدة ، وهو المعرفة بالله وصفاته وأفعاله وأسرار ملكوته في أكمل رتب المعرفة . وقد بيّنّا أن المعرفة بذر في هذه اللطيفة يسرها[٦] في الآخرة للسعادة الكبرى التي هي النظر إلى وجه الله ، وأن تلك السعادة التي هي التجلي هنالك تتفاوت بتفاوت المعرفة هنا ، والرتبة العليا من المعرفة وهي[٧] المشاهدة عزيزة الوجود شريفة شرودة ، وإنما تحصل لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية التي لا فوقها .

وإذا تقررت هذه المقدمات فلنبين حال القوم في هذه المجاهدة والتصفية ، وما اشترطوا في إفضائها إلى الكشف من الشروط والأحكام والآداب ، وما تواضعوا عليه

---

(١) الرسالة : ٢٤٥/١ .

(٢) الزيادة من الرسالة .

(٣) في الرسالة : وهي حضور الحق .

(٤) في د : « ما يتعين » .

(٥) في د : « هو » .

(٦) في د : « تسير بها » .

(٧) في د : « التي هي » .

من الاصطلاحات ، وكيف غلب استعمال (التصوف) في ذلك[١] حتى صار علماً عليه ولقباً له كما وعدنا بذلك كله قبلُ .

اعلم أنّا كنا شرحنا مسمى هذه الطريقة عند الصدر الأول من القوم ، وأنها رعاية الأدب في البواطن والظواهر ، ثم لما أقبلوا على مراعاة بواطنهم ، وتوغلوا في تخليص قلوبهم وحفظ أسرارهم ، وحصلت فيها التصفية فأشرقت أنوار العلم الإلهامي كما قدّمنا أنه ناشئ عن التصفية فارتفع[٢] الحجاب وحصلت اللّذة ، ووقع التمادي في ذلك فحصلت للكاشفة ، ثم وقعت للشاهدة لمن تمكن في مقامات سلوكه ، وبلغ الغاية من صفاء قلبه ، فسمت همم الكثير منهم إلى تجاوز هذه المراتب كلها إلى المشاهدة التي هي أكسير السعادة العظمى في الآخرة ، وهي النظر إلى وجه الله الكريم ، واشترطوا في المجاهدة والتصفية المفضية إلى حصول العلم الإلهامي شروطاً نذكرها فيما بعد ، وصارت رعاية الآداب الشرعية في الباطن والظاهر من أوائل المعارج لهذه المجاهدة[٣] ، إلا أن الراسخين منهم لا يستحثون ركب المشاهدة لما فيه عندهم من الغرر ، وأن القوى البشرية عاجزة عن احتمال المطلع[٤] ويرون أن اليسير من رفع الحجاب وحصول المعرفة الإلهامية بذر في القلب لحصول النظر في الآخر ، ولو كان بذراً قليلاً فهو أولى من البذر الكثير المقترن بالخطر الشديد والغرر العظيم ، وهذا مشاهد فإن كثيراً ممن استحكمت فيه التصفية وبلغت بعد رفع الحجاب مبالغها غافصه[٥] إشراق أنوار التجلي والمشاهدة عند امّحاء ذاته فغرقوا في بحر التلف .

فمنهم من هلك لحينه ، كما وقع للمريد الذي كان يقول : رأيت الله ، فقال

---

(١) في د : « ذلك » .

(٢) في د : « وارتفاع الحجاب ، فحصلت » .

(٣) في ط : « لهذه المشاهدة » .

(٤) سبق التعريف بـ (المطلع) صفحة ٣٥ .

(٥) غافصه : فاجأه وأخذه على غرة . (القاموس : غفص) .

أبو يزيد : لو رآني هلك ، فعرض له فلما وقع بصره على أبي يزيد مات . في قصة مشهورة ، وأمثاله كثير .

ومنهم من اختطف وجذب وقد عقل التكليف ، ولحق بالمجانين والمُسْتَهتَرين[1] كَبُهْلُول[2] من شيوخ الرسالة[3] وغيره .

ومنهم من يبقى شاخصاً غير متحرك إلى أن يموت .

ومنهم من يثبت لهذه المشاهدة وإشراق أنوار /١٤/ التجلي وقليل ما هم ، قال ﷺ : « إن لله سبعين حجاباً من نور ، فلو كشف عن وجهه لأحرقت سُبُحاتُ وجهِهِ ما أدرك بصره »[4] .

وقد يكون صاحب هذه المشاهدة متجاوزاً لمقامها متمكناً فيه ، فيكون أثبت لهذا التجلي وأقوى على احتماله ، فإن المريد إذا استولى على مقام فهو ما دام يستولي عليه يتمكن فيما قبله .

قال الأستاذ أبو القاسم في باب البواده[5] : « ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوة ، أولئك سادة[6] الوقت » .

---

(١) المُسْتَهْتَر بالشيء : بالفتح : المولع به ، لا يبالي ما فعل فيه .
وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه : « سبق المفردون المستهترون بذكر الله » . انظر الإحياء : ٤٣/٤ .

(٢) بهلول بن عمرو الصيرفي ، ولد ونشأ في الكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه . توفي نحو سنة ١٩٠ هـ . (فوات الوفيات : ٨٢/١ ، الأعلام : ٧٧/٢) .

(٣) في د : « الرياسة » .

(٤) الحديث عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، حجابه النور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره » . رواه ابن ماجه : ٧١/١ ، باب فيما أنكرت الجهمية .

(٥) الرسالة : ٢٥١/١ .

(٦) في الرسالة : سادات .

ولما رجع من رجع منهم من هذا السفر فائزاً بالغنيمة حاصلاً على الغاية حذروا من غرر هذا الطريق وخطره حتى في نفس المقصد الذي أقله النجاة ـ أعاذنا الله ـ [١-]فإن سلم من هذا كله فقد فاز فوزاً عظيماً[-١] .

قال شيخ العارفين[٢] : « لا تطلبوا المشاهدة ، فإن في شهود الحق ثبورَ الخلق » . وقال أبو علي الجوزجاني[٣] : « كن صاحب استقامة لا صاحب كرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلبك بالاستقامة »[٤] .

وقال غيره من أئمتهم[٥] وقد تكلم في المجاهدة[٦] وبيَّن طريق السلوك ثم قال[٧] :

(١ـ١) ما بينهما ساقط من د .

(٢) في الرسالة القشيرية : ٢٤٥/١ بحث مستفيض عن المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة .

(٣) أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني .

(٤) النص في الرسالة : ٤٤١/٢ .

(٥) هو الشيخ محيي الدين محمد بن علي بن محمد ، ابن عربي ، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي ، الملقب بالشيخ الأكبر من أئمة المتكلمين في كل علم ، من كبار مشايخ الصوفية ، ولد سنة ٥٦٠ هـ بمرسية بالأندلس ، وانتقل إلى إشبيلية ، ورحل إلى بلدان كثيرة ، واستقر بدمشق ، له نحو أربع مئة كتاب ورسالة ، توفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . (فوات الوفيات : ٢٤١/٢ ، جامع كرامات الأولياء : ١١٨/١ ، الأعلام : ٢٨١/٦) .

(٦) في روضة التعريف ٥٣٢/٢ : المشاهدة .

(٧) نقل ابن خلدون النص مختصراً وهو في روضة التعريف ٥٣٢/٢ : قال الشيخ محيي الدين ، رحمه الله ، في طلب المشاهدة في هذه الدار : « وإنما أوردناه تنبيهاً لمن استعجل لذّة المشاهدة في غير موطنها الثابت ، وحالة الفناء في غير منزلها ، والاستهلاك في الحق بطريق المحق عن الخلق ، فإن السادة منا أنفوا من ذلك ، لما فيه من تضييع الوقت ، ونقص المرتبة ، ومعاملة الموطن بما لا يليق » . ثم قال : « فقد حصّلت ما كان ينبغي لك أن تدخره لموطنه ، وهو الدار الآخرة التي لا عمل فيها ، فإنها زمان مشاهدتك ، ولو كنت صاحب عمل ظاهر ، وتلقي علم باطن لكان أولى بك ، لأنها تزيد حسناً وجمالاً في روحانيتك الطالبة ربَّها ، وفي نفسانيتك الطالبة جنّتها ، فإذا انفصلت عن عالم التكليف وموطن المعارج والارتقاءات فحينئذ تجني ثمرة غرسك » .
ثم قال لسان الدين بن الخطيب : قلت : ولأجل هذا لا تحصل المشاهدة مع بقاء عالم الأجسام ، حتى تحصل الغيبة .

« وإنما أوردناه تنبيهاً لمن استعجل لذّة المشاهدة في غير موطنها الثابت ، وحالة الفناء في غير منزلها ، فإن السادة منا أنفوا من ذلك » ، ثم قال : « فقد حصلت ما كان ينبغي لك أن تؤخره لموطنه وهو الدار الآخرة التي لا عمل فيها ، فإن زمان مشاهدتك لو كنت فيه صاحب عمل ظاهر ، وتلقى علم باطن ، كان أولى بك لأنك تزيد حسناً وجمالاً في روحانيتك الطالبة ربّها ، ونفسانيتك الطالبة جنّتها ، فإذا انفصلت من عالم التكليف ، وموطن المعارج والارتقاءات ، حينئذٍ تجني ثمرة غرسك » انتهى كلامه .

فانظر كيف تضمن هذا الكلام النهي عن طلب المشاهدة ، وأن الاستزادة من العلم الباطن الإلهامي موجب لحصول تلك المشاهدة بعد الموت ، فهو أولى لأنه زيادة في الغرس يقضي بمزيد الثمرة .

الكلام في المجاهدات[١] وأقسامها وشروطها

وخلاصة القول في ذلك على ما تأدى إلينا من تصفح مذاهبهم وتتبع أقوالهم أن المجاهدة على ثلاثة أنواع متفاوتة ، بعضها متقدم على بعض .

فالمجاهدة الأولى : مجاهدة التقوى ، وهي الوقوف عند حدود الله كما مرَّ أول الكتاب ، لأن الباعث على هذه المجاهدة طلب النجاة ، فكأنها اتِّقاءٌ وتحرُّزٌ بالوقوف عند حدود الله عن عقوبته ، وحصولها في الظاهر بالنزوع عن المخالفات[٢] والتوبة عنها ، وترك ما يؤدي إليها من الجاه والاستكثار من المال وفضول العيش ، والتعصب للمذاهب ، وفي الباطن بمراقبة أفعال القلب التي هي مصدر الأفعال ، ومبدؤها أن يلم بمقارفة محظور أو إهمال واجب . قال ابن عطاء[٣] : « للتقوى[٤] ظاهر وباطن ، فظاهره محافظة الحدود ، وباطنه النية والإخلاص »[٥] ، وحقيقة هذه المجاهدة هي الورع ، قال ﷺ : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات ، فمن اتَّقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كان كالراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، وإن[٦] حمى الله محارمه »[٧] . وقال ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٨] ، وقال ابن عمر : « حقيقة التقوى

(١) في د : « الكلام في المجاهدات بإطلاق وأقسامها وشروطها » .
(٢) في د : « المخالفة » .
(٣) تقدمت ترجمته .
(٤) في د : « التقوى » .
(٥) النص في الرسالة القشيرية عن ابن عطاء ٣٠٨/١ .
(٦) في د : « ألا وإن حمى الله محارمه » .
(٧) تقدم الحديث وتخريجه ص ٣٨ .
(٨) تقدم الحديث وتخريجه ص ٤٦ .

أن تدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس »[١] ، وقال : « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر »[٢] ، وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : « كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام »[٣] .

المجاهدة الثانية : مجاهدة الاستقامة ، وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها ، حتى تتهذب بذلك وتتحقق به ، فتحسن أخلاقها وتصدر عنها أفعال الخير بسهولة ، وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة /١٥/ والتهذيب خلقاً جبلية كأنَّ النفس طُبعَتْ عليها ، والباعث على هذه المجاهدة طلب الفوز بالدرجات العلى درجات ﴿ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ ﴾ [النِّساء : ٦٩/٤] . إذ الاستقامة طريق إليها ، قال تعالى : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ ، صِراطَ الَّذينَ أنْعَمْتَ عَلَيهم ﴾ [الفاتحة : ٥/١-٦] . وما كلف الإنسان بطلب هذه الاستقامة سبع عشرة مرة في اليوم والليلة عدد ركعات الفرض التي تجب فيها قراءة أم القرآن[٤] إلا لعسر هذه الاستقامة وعزة مطلبها وشرف ثمرتها ، وقال ﷺ : « استقيموا ولن تُحْصوا »[٥] .

---

(١) الحديث ورد في الإحياء : ١٩/١ و ٩٤/٢ ، وروى ابن ماجه : ١٤٠٩/٢ عن عطية السعدي ، وكان من أصحاب الرسول ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً لما به بأس » .

(٢) في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » ، أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٣ ، والترمذي رقم ٢٣٩٠ . (انظر جامع الأصول : ٧/٤ ، ٦٩٤/١١) ، قال الإمام النووي في شرح مسلم : أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر ، وحصل في القلب منه الشك ، وخوف كونه ذنباً .

(٣) قول أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه وردت في الرسالة : ٣١٤/١ .

(٤) في د : « قراءة القرآن » .

(٥) الحديث في الموطأ عن الإمام مالك بن أنس بلغه أن رسول الله ﷺ قال : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلاّ مؤمن » . الحديث رواه الإمام مالك : ٣٤/١ ، وابن ماجه رقم ٢٧٧ ، والدارمي ، وابن حبان ، والإمام أحمد ، وهو حديث صحيح بطرقه (انظر جامع الأصول : ٣٩٥/٩) .

=

وحصول هذه الاستقامة بعلاج خلق النفس ومداواتها بمضادة الشهوة ومخالفة الهوى ومقابلة كل خلق يحس من نفسه وهواه ، والميل إليه والاعتداد به ، بارتكاب ضده الآخر ، كمعالجة البخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والشره بالكف عن المشتهى ، والغضب بالحلم . قال تعالى : ﴿ والَّذينَ إذا أَنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُروا وكانَ بَينَ ذلكَ قَواماً ﴾ [الفرقان : ٦٧/٢٥] ، وقال : ﴿ وكُلُوا واشْرَبوا ولا تُسرفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١/٧] ، وقال : ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩/١٧] ، وقال تعالى : ﴿ أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم ﴾ [الفتح : ٢٩/٤٨] . ثم مع هذا العلاج لابدَّ من الصبر على مرارته ، قال الشيخ أبو القاسم الجنيد : « اعلم أن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر ، لأنها خروج عن المعهودات ، ومفارقة الرسوم والعادات ، والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق »[١] .

وقال[٢] في معنى قوله ﷺ : « شَيَّبَتْني هُودٌ وأخواتُها »[٣] إنه لما فيها من تكليف الاستقامة في قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢/١١] . لكن الأفعال ولو كانت أول صدورها متكلفة وصعبة شاقة ، فإذا تكررت ارتفعت آثارها إلى النفس شيئاً فشيئاً ، ولا تزال كذلك حتى تصير صفةً راسخةً وجبلَّةً طبيعيَّةً ، كما يقع لمتعلم الكتابة

= والحديث ورد في الرسالة القشيرية : ٤٤٠/٢ ، ولن تحصوا : أي لن تستطيعوا القيام بها كاملة فاستقيموا على قدر طاقتكم واستطاعتكم .

(١) ورد النص في الرسالة القشيرية : ٤٤٠/٢ من غير إسناد لقائل ، بل ورد بلفظ « قيل » .

(٢) في د : « وقيل » .

(٣) الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبت ؟ قال : شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » أخرجه الترمذي رقم ٣٢٩٣ وقال : هذا حديث حسن غريب ، وصححه الحاكم . وأورده الغزالي في الإحياء : ٣٣٥/٤ .
قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع ، والوعيد الشديد ، لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذّبين مع ما في بعضهن من الأمر بالاستقامة (انظر جامع الأصول : ١٩٣/٢) .

مثلاً ، يتكلفها أولاً شاقةً عليه ، ولا تزال آثارها ترتفع إلى النفس شيئاً فشيئاً حتى تحصل صفة الكتابة للنفس كأنها جبِلّةٌ ، وتصدر الكتابة الحسنة كأنها مقتضى الطبع .

وليس المراد من هذا العلاج في هذه الاستقامة قمع الصفات البشرية وخلعها بالكلية ، فإنها غرائز جِبِلِّيَّة خلق كل منها لفائدة ، فلا يتصور قلعُ الشهوة ، وإلا لهلك الإنسان جوعاً واقتطع الإنسان تَبتُّلاً ، ولا قلعُ الغضب ، وإلاّ لهلك بالعجز عن مدافعة المعتدي ، بل المراد من هذا العلاج تمكن الاستقامة في النفس حتى تصرف هذه الغرائز بمقتضى آداب الله تصريفاً جبليّاً ، لما فيه من التوطين على ما تصير إليه بعد الموت ، ومن قطع علائق الدنيا والإقبال على الله ، فتأتي الله[1] بقلب سليم من الميل عن الاستقامة ، لأنها كلما مالت عن الاستقامة علقت بها صفة من خلقها فتشبثت به وأقبلت عليه ، وحصل لها بقدر[2] الإقبال عليه إعراض عن الله ، وهذا هو معنى محو الصفات المذمومة عن القلب ، وتزكية الصفات[3] المحمودة ؛ إذ كل مائل عن الوسط والاعتدال مذموم .

واعلم أن هذه الاستقامة فرض في حق الأنبياء صلوات الله عليهم ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢/١١] ، وقال : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يس : ٣/٣٦-٤] ، وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩/١٠] . وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سُئلت عن خُلُق النبي ﷺ ـ فقالت للسائل : « أما قرأت القرآن ؟! كان خُلُقه القرآن »[4] . وتأديب القرآن له ﷺ في كل آية ، وبحسب كل أخذ وترك .

---

(١) في د : « فتأتي إليه » .

(٢) في د : « بعد » .

(٣) في د : « وتزكيته بالصفات » .

(٤) الحديث عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، عن هشام بن عامر قال : « أتيت عائشة فقلت : يا أم =

ثم إنه - ﷺ - المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق ، فأدب أولاً بالقرآن ، ثم أدب الخلق به ، قال ﷺ : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاق »[١] .

وشروط هذه المجاهدة الإرادة أولاً ، ثم الرياضة ثانياً ، وليس قصدهم بالإرادة مدلولها في المشهور ، وهو تخيُّل الشيء ثم القصد إليه ، فإن هذا عندهم حديث نفس ، وإنما الإرادة عندهم /١٦/ استيلاء حال اليقين على القلب[٢] حتى تنبعث العزائم بالكلية إلى الفعل مغلوبة[٣] فيه ، فكأن المريد مجبور في إرادته لا مختار .

قال الأستاذ[٤] أبو القاسم : « الإرادة بدء طريق[٥] السالكين ، وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله ، وإنما سميت هذه الصفة إرادة لأن الإرادة مقدِّمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا أوّل الأمر لمن سلك طريق الله سُمِّي إرادة ، تشبيهاً بالقصد في الأمور التي هي مقدمتها ، والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة ، كما أن العالم مَنْ له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد في هذه الطريقة

= المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ قلت : فإني أريد أن أتبتل ، قالت : لا تفعل ، أما تقرأ : ﴿ لَقَد كانَ لَكُم في رَسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فقد تزوّج رسول الله ﷺ وقد ولد له » ، رواه الإمام أحمد : ٩١/٦ ، ١٦٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى : ٤٩٩/٢ ، والأدب المفرد ٣٠٨ ، وأورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين : ٩٢/٧ ، ٣١٨ .

(١) الحديث في الموطأ عن مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، بلغه أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت لأتمم حسن الأخلاق » الموطأ : ٩٠٤/٢ في حسن الخلق ، قال الشيخ عبد القادر أرناؤوط : إسناده منقطع ، لكن للحديث شواهد بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن . (انظر جامع الأصول : ٤/٤) ، وقال العراقي : أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم (الإحياء : ٣٥٨/٢) .

(٢) « على القلب » : ليست في د .

(٣) في د : « مغلوبة فيه » .

(٤) النّص في الرسالة القشيرية : ٤٣٣/٢ .

(٥) في د : « طريقة » .

من لا إرادة لـه ، فمن لم يتجرد عن إرادتـه لا يكـون مريـداً ، كما أن من لا إرادة لـه على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً » .

« وحقيقتها نهوض القلب في طلب الحق . وقيل : لوعةٌ تهوِّنُ كلَّ روعةٍ »(١) .

وأما الرياضة وهي تصفية القلب عن الرذائل والخبائث المذمومة ، وتزكيته بالفضائل المحمودة ، التي هي الاستقامة والاعتدال في كل خلق من أخلاقه وغرائزه الجِبِلِّيَّة(٢) ، فعلاج ذلك يكون في الظاهر أولاً برفض ما يقع إليه الميل غالباً ، ويستهوي به(٣) الشيطان قلوب المؤمنين ، من زينة الدنيا ولذّاتها(٤) ، وهو الجاه والمال ومخالطة الخلق ، وشهوات البطن والفرج ، والراحات مثل النوم ، قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤/٣] ، فيتجنّبها ويزهد فيها ويهجرها هجران الحيّات القواتل ما دام مائلاً عن الاستقامة حتى يظفر بها ويتمكن في مقامها .

ثم يحتاج في الباطن إلى علاج ما تمكن من آثارها ، وارتفع من علائقها ، فلا بدّ أن يخليه من ذلك ، كما أخلى الظاهر من أسبابه ، وفيه تطول المجاهدة وتختلف باختلاف الأحوال والسّن والمزاج ، وما يغلب(٥) من الصفات المذمومة ، وعلم ذلك غامض إلاّ على من يسّره الله لليسرى ، وربما كان الشيخ من ميسرات الله [له](٦) وأسباب هدايته .

والقانون العام في هذه الرياضة والعلاج مخالفة الهوى ومضادة الشهوة ، والباعث

(١) النّص للقشيري في مبحث الإرادة من الرسالة : ٤٣٤/٢ على النحو التالي : « فأما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه ، ولهذا يقال : إنها لوعة تهون كل روعة » .

(٢) في د : « وجبلاّته » .

(٣) في د : « منه » .

(٤) في د : « وشهواتها » .

(٥) في د : « والغالب » .

(٦) ما بين معقوفتين من ط .

في كل صفة غالبة على نفس المريد كما قدمناه ، حتى تحصل الاستقامة والاعتدال ، ويذهب الهوى والميل إلى شيء[(١)] من جانبي الغرائز الجبليّة ، فيتساوى عنده الفعل والترك والوجد[(٢)] ، ويصرف قواه في طاعة الحق والعدل ، فيتمحض لجانب الله ، وحينئذٍ لا يترجح في حقه زهد ، ولا تكسب[(٣)] ، ولا رهبانية ، ولا استمتاع[(٤)] . قال ﷺ : « لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني »[(٥)] .

وليأخذ نفسه في هذه الرياضة بالتدريج ، ولا يشادها فيكون كما قال ﷺ : « كالمُنْبَتّ[(٦)] لا أرضاً قطَع ولا ظَهراً أبقى »[(٧)] . وقال ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله أدوَمُه »[(٨)] ، وقال : « اكلفوا من العمل مالكم به طاقة »[(٩)] ، وأمثال ذلك كثير .

(١) في د : « الشيء » .

(٢) في د : « والفقر » .

(٣) في د : « تمول » .

(٤) في د : « تمتع » .

(٥) هو جزء من حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني » ، رواه البخاري : ٤/١١ ، ومسلم رقم ١٤٠١ ، والنّسائي : ٦٠/٦ ، (انظر جامع الأصول : ٢٩٩/١) .

(٦) المنبت : الذي عطب مركوبه من شده السير ، مأخوذ من البت وهو القطع ، أي صار منقطعاً لم يصل إلى مقصوده ، وفقد مركوبه الذي كان يوصله له لو رفق به . (فتح الباري : ٢٧٩/١١) .

(٧) الحديث ذكره ابن حجر في فتح الباري : ٢٩٧/١١ نقلاً عن كتاب الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوف : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، رواه البيهقي في السنن : ١٨/٣ ، ١٩ ، وخرَّجه العراقي بقوله أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر ، ورواه ابن ماجه عن جابر ، وانظر الإحياء : ٧٩/٤ ، وإتحاف السادة المتقين : ٢٦٤/٤ ، ومسند الإمام أحمد : ١٩٩/٣ .

(٨) الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا ، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ » ، رواه البخاري : ١٠٩/١ ، ١١٠ ، ومسلم رقم ٧٨٢ ، وأبو داود : ٣١٥/١ ، والنّسائي : ٢١٨/٣ ، (وانظر جامع الأصول : ٣٠٥/١) .

(٩) الحديث في البخاري : أن النّبي ﷺ قال : « إياكم والوصال - مرتين - فقيل : إنك تواصل ؟ قال : إني=

فإذا حصلت للقلب صفة الاستقامة تخلق بخلق القرآن وتأدَّبَ بآدابه ، [وكان متَّبعاً للسُّنة][1] ، ولحق بمراتب أهل الصراط المستقيم صراط ﴿ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيهم مِنَ النَّبيِّينَ والشُّهَداء والصَّالِحينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقاً ﴾ [النِّساء : ٦٩/٤] .

المجاهدة الثالثة : مجاهدة الكشف والاطِّلاع [2-] وهي محو الصفات البشرية وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة ، حتى يحصل للروح ما سيقع بعد الموت من المطلع أو ما يقرب من ذلك ، وتحصيله بعد الرياضة بمواجهة [-2] شطر الحق باللطيفة الربانية لينكشف الحجاب ، وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان وهو العلم الإلهامي الذي قدمنا أنه يحصل بالتصفية .

ولهذه المجاهدة عند القوم شروط :

فالأول : حصول التقوى الذي قدمنا شرح مجاهدتها ، فإنها رأس العبادة ، وباعثها أول درجات النعيم وهو النجاة . قال الجريري[3] : « من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة /١٧/ لم يصل إلى الكشف والمشاهدة » .

الشرط الثاني : حصول الاستقامة التي قدَّمنا أيضاً شرح مجاهدتها . قال

= أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فاكلفوا من الأعمال ماتطيقون » ، البخاري : ١٧٩/٤ ، ومسلم ١١٠٣ ، وفي رواية أبي داود ٣١٥/١ : « اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا » (انظر جامع الأصول : ٣٠٥/١ ، ٣٨١/٦) .

(١) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٢-٢) ما بينهما في د على النحو التالي : « وهي إخماد القوى البشرية ، وخلع الصفات البدنية ، بمنزلة ما يقع للبدن بالموت ثم محاذاة » .

(٣) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري ، من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب سهل بن عبد الله ، أُقعد بعد الجنيد في مكانه ، وكان عالماً بعلوم الصوفية ، كبير الحال ، وهو من رجال الرسالة القشيرية ، توفي سنة ٣١١ هـ ، (انظر الرسالة : ١٤٤/١-١٤٥) .

الواسطي[١] : « الخصلة التي بها كملت المحاسن [٢-]وبفقدها قبحت المحاسن[-٢] : الاستقامة »[٣] . ووجه اشتراطها في هذه المجاهدة من جهة المعنى أن القلب في تصفيته ، وكشف حجابه ، وتجلي الحقائق فيه مثاله : الأجسام الصقيلة إذا انطبعت فيها الصور المقابلة لها لكن انطباع الصور في الأجسام الصقيلة ليس على أي وجه اتفق ، بل إنما تنطبع الصور انطباعاً صحيحاً على ما هي عليه بشرط أن يكون الجسم الصقيل على شكل الدائرة التي تساوى فيها الخطوط الخارجة من مركزها إلى محيطها ، وحينئذٍ تنطبع فيها الصور على ما هي عليه في نفسها ، وأما إذا كان الجسم [الصقيل][٤] مستطيلاً أو مربعاً أو مقعراً أو محدباً فلا تنطبع[٥] على ما هي عليه في نفسها ، بل تنطبع على حسب ما هو عليه المقابل ، وتختلف باختلافه ، فكذلك القلب إذا اتصف بالاستقامة فكانت نسبة الأفعال الصادرة عنه أخذاً وتركاً نسبة واحدة ، كان بمثابة سطح الدائرة فتتجلى فيه صور الموجودات وحقائق المعلومات على ما هي عليه تجلياً صحيحاً فيكون[٦] الإدراك حقّاً والعلم تامّاً ، وإن لم يتصف القلب بالاستقامة واختلفت نسبة الأخذ والترك في الأفعال إليه ، فإن[٧] كان مائلاً عن الاستقامة بالنسبة إلى بعضها ، وبعيداً عن الاستقامة بالنسبة[٨] إلى الطرف الآخر كان بمثابة الجسم الصقيل

---

(١) أبو بكر محمد بن موسى الواسطي ، خراساني الأصل من فرغانة ، صحب الجنيد والنوري ، عالم كبير الشأن ، أقام بمرو ومات بها بعد العشرين والثلاث مئة ، وهو من رجال الرسالة القشيرية : ١٥١/١-١٥٢ .

(٢-٢) ما بينهما ليس في د .

(٣) مقولة الواسطي في الرسالة : ٤٤٢/٢ ، وفيها قال الواسطي : « الخصلة التي بها كملت المحاسن ، وبفقدها قبحت المحاسن الاستقامة » .

(٤) ما بينهما زيادة من د .

(٥) في د : « فلا تكاد تنطبع » .

(٦) في د : « فكان » .

(٧) في ط : بأن .

(٨) كلمة « بالنسبة » ليست في د .

المستطيل أو المربع أو المقعر أو المحدب ، فيكون القبول الصحيح[١] فيه مفقوداً ، فتتجلى فيه الحقائق على ما هو عليه لا على ما هي عليه ، فلا يظفر إلا بالتعب [والحرمان][٢] .

ولهذا نجد كثيراً من طالبي هذا الكشف يقدمون عليه قبل التمكن في الاستقامة ، ويكون قد سبق إلى قلوبهم شيء من الآراء الفائلة[٣] ، أو لم يسبق فتتجلى لهم الحقائق على ما عندهم ، أو على خلاف ما هي ، فيرجعون إلى الإباحة وتعطيل الشرائع والزندقة المحضة ، أعاذنا الله .

فإذن الاستقامة شرط في هذا الكشف المفضي إلى العلم الإلهامي الذي هو تجلّي الحقائق في القلب على ما هي عليه في نفس الأمر من غير خلل ولا انحراف .

وأما الكشف الذي هو رفع الحجاب[٤] عن القلب كيفما اتفق فقد يحصل بالتصفية عن الأغيار ورقة القلب بالجوع والسهر من غير شرط استقامة[٥] ، ولهذا يحصل [الكشف][٦] لكثير من أهل الملل المخالفة ، وكذلك لأهل السيمياء المرتاضين في كشف الحجاب لاستنزال[٧] روحانية الأفلاك ، والتصرف في عالم الطبيعة بمعونة منها ، فلا تتجلى لهم حقائق المعلومات على ما هي عليه ، بل على ما هي عندهم ، فلا يظفرون إلاّ بالخسران المبين .

الشرط الثالث : الاقتداء بشيخ سالك قد خبر هذه[٨] المجاهدات ، وقطع بها

---

(١) في د : « الصحيح » .

(٢) ما بين معقوفتين من ط .

(٣) رجل فائل الرأي : إذا كان ضعيفاً ، والفائل من المتفرّسين الذي يظن ويخطئ ، وفال الرجل في رأيه إذا لم يصب فيه . (اللسان : فيل) .

(٤) في د : « هو رفع حجاب القلب » .

(٥) في د : « الاستقامة » .

(٦) الزيادة من ط .

(٧) في د : باستنزال .

(٨) كلمة « هذه » ليست في د .

طريق الله ، وارتفع له الحجاب ، وتجلب له الأنوار ، فهو يعرف أحوالها ويُدْرِجُ المريد[1] في عقباتها حتى تتاح له الرحمة الرّبّانية ، ويحصل له الكشف والاطّلاع ، فإذا ظفر بالشيخ فليقلده أمره ، وليهتدِ بأقواله وأفعاله ، ويتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ البحر بقائده ، ويلقي نفسه بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، ويعلم أن نفعه في خطأ شيخه أكثر من نفعه في صواب نفسه[2] .

الشرط الرابع : قطع العلائق كلّها عن النفس بالزهد في كل شيء ، والانفراد عن الخلق بالخلوة في مكان مظلم ، أو لف الرأس في الجيب ، أو التّدثُّر بكساء أو إزار ، ثم الصّمت بترك الكلام جملة ، ثم الجوع بمواصلة الصيام ، ثم السّهر بقيام الليل ، وهذه هي التي كان المطلوب في مجاهدة الاستقامة اعتدالها حتى يصير استواء الفعل والترك فيها عند القلب جِبِلَّة طبيعية ، وأما هنا فيطلب تركها بالكلّيّة ، وإخماد سائر القوى البشرية وإماتتها حتى الفكر ، ليكون ميت البدن حي الروح ، إذ مطلوب هذه المجاهدة فراغ القلب عن كل ما سوى الله حتى كأن البشرية كلها ذاهبة ممحوة شأن الميت ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « موتوا قبل أن تموتوا »[3] .

الشرط الخامس : صدق الإرادة[4] ، وهو أن يستولي حبٌّ الله على قلب المريد حتى يكون في صورة العاشق المُسْتَهْتَر الذي ليس له إلاّ همٌّ واحد .

---

(١) في د : « المريدين » .

(٢) النص في الإحياء : ٧٦/٣ .

(٣) موتوا قبل أن تموتوا : قال ابن حجر غير ثابت ، وقال القاري : هو من كلام الصوفية ، والمعنى موتوا اختياراً بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطراراً بالموت الحقيقي . (انظر المقاصد الحسنة ص ٤٣٦ ، كشف الخفا : ٢٩١/٢ ، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص ١٩٨) .

(٤) قال القشيري : الإرادة : بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى ، وإنما سميت هذه الصفة : إرادة ، لأن الإرادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عزّ وجلّ سُمي إرادة تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها ... فأما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه ، ولهذا يقال : إنها لوعة تهوّن كل روعة . (الرسالة : ٤٣٣/٢-٤٣٤) .

فإذا حصلت هذه الشروط كلها ، فصورة العمل في هذه المجاهدة أن يشغله الشيخ بذكر يلزم قلبه على الدوام ، ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، ومن التلاوة ، بل يقتصر على الفروض والرواتب ، ويكون ورده ملازمةَ القلب لذلك الذكر ، ولا يشغل قلبه بغيره . قال الشبلي[١] للحصري[٢] : « إن كان يخطر على قلبك من الجمعة إلى الجمعة شيء غيرُ الله فحرام عليك أن تأتيني »[٣] .

ثم يُلْزِمه الشيخ الْخَلْوَة ، وهي زاوية ينفرد بها عن الخلق ، ويوكل به من يقوم له بقدر حلال من القوت ، فالحلال أصل طريق الدين ، ويعين له ذكراً يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول : الله ، الله ، الله ، الله . أو : لا إله إلا الله . لا إله إلا الله . ولا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة[٤] اللسان ويبقى تخيلها ، ثم حتى يسقط أثر تخيلها عن اللسان ، وتبقى صورة اللفظ في القلب . ثم حتى تنمحي صورة اللفظ من القلب ، ويبقى معناه ملازماً حاضراً قد فرغ من كل ما سواه ، وعند ذلك يقع الحذر الشديد من وَسْواس الشيطان وخواطر الدنيا ، فيراقبها في اللحظات والأنفاس ، ويعرض على شيخه كلَّ ما يجد[٥] في قلبه من الأحوال من : فترةٍ ، أو نشاطٍ ، أو كسلٍ ، أو صدقٍ في الإرادة ، ويكتم ذلك عمَّن سواه ، فالشيخ أعلم بغذائه .

---

(١) الشبلي : هو أبو بكر دلف بن جحدر ، أصله من خراسان ، ونسبته إلى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر ، ومولده بسرمن رأى سنة ٢٤٧ هـ ، كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند من نواحي الري ، وولي الحجابة للموفق العباسي ، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة والنسك ، واشتهر بالصلاح ، صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً ، مالكي المذهب ، مات سنة ٣٣٤ هـ ببغداد . (الرسالة : ١٥٩/١ ، حلية الأولياء : ٣٦٦/١٠ ، تاريخ بغداد : ٣٨٩/١٤) .

(٢) الحصري : هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري البقري ، كان شيخ وقته ، صحب الشبلي ، وكان عجيب الحال واللسان . مات ببغداد سنة ٣٧١ هـ . (الرسالة : ١٩٥/١ ، طبقات السلمي ٤٨٩) .

(٣) انظر الإحياء : ٧٧/٣ .

(٤) في د : « حركات » .

(٥) في د : « كل ما يجد » .

ويجب أيضاً على الشيخ التَّحفظ ، فهو موضع الخطر العظيم ، فقد يغلب عليه خيال من الخيالات فيشتغل بالبطالة ، ويسلك طريق الإباحة ، ومن تجرد لهذا الذكر لم يخل عن هذه الأخطار ، وكذلك قد يعرض له العُجْبُ بنفسه أو الفرح والقنوع بما ينكشف ويبدو من أوائل الأحوال والكرامات ، فيكون فتوراً في الطريق وقاطعاً ، بل ينبغي ملازمة عمله عمرَه كلَّه ملازمَة العطشان الذي لا ترويه البحار ، ورأس ماله الانقطاع والخلوة ، فإذا سلم من هذه العوائق كلها وحصل قلبه مع الله انكشف له جلال الحضرة ، وتجلَّى له الحق ، وعظم الفرح واللذة ، وطار به السرور ، وظهر من لطائف الله ما لا يحيط به وصف[١] ، وأعظم القواطع بعد رفع الحجاب أن يتكلم به ، أو يتصدى للنصح والتذكير ، فتجد النفس لذَّة الرئاسة بالتعليم والاستشهاد بالسُّنة ، والإصغاء إليه بالقلوب والأسماع ، وتموّهُ عليه بأنه هادٍ إلى الله ، أو يفتر عن العمل والإلحاح عليه الذي هو وسيلة إلى هذا التجلي لما يظن من الاستغناء عن الوسيلة بحصول المقصد فيضعف التجلي ، ثم ينقطع وينزل الحجاب ، فيقع بسبب هذه الحوادث في بحر من الهلاك لا ساحل له[٢] .

وما عرض له[٣] لذلك كله إلاَّ طلب المشاهدة ، فلو اقتصر على الاستقامة وأخَّر المشاهدة إلى محلها بوعد الصدق ، وهو دار الجزاء ، سَلِمَ من هذه الأخطار المهلكة ـ عصمنا الله بفضله ـ فهذه مجاهدات القوم ، وكانت الأُولى كما قدمنا هي المخصوصة باسم التَّصوُّف ، ثم لما دعتهم هممهم إلى منازل الأبرار ومقامات الصِّدِّيقين عكفوا على مجاهدة الاستقامة ، ومن نزع منهم إلى السعادة الكبرى طلب مجاهدة الكشف ، فغلب استعمالهم اسم[٤] التصوف في هاتين المجاهدتين . ثم اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة

---

(١) في د : « وصف واصف » .

(٢) انظر الإحياء : ٧٨/٣ .

(٣) في د : « به » .

(٤) سقطت كلمة « اسم » من د .

المنفردة عن الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم[1] في مفاوضاتهم وألفاظ مخصوصة بمعان من طريقهم ، كالمقام ، والحال ، والفناء ، والبقاء ، والمحو ، والإثبات ، والنفس ، والروح ، والسر ، والبواده ، والهواجم ، والخواطر ، والوارد ، واللوائح ، واللوامع ، والطوالع ، والتلوين ، والتمكين ، والفرق ، والجمع ، وجمع الجمع ، والذوق ، والشرب ، /١٩/ والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاملة ، والمنازلة ، والمواصلة ، وعلم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، [٢-]وغير ذلك من مصطلحاتهم الخاصة بهم[-٢] .

ولنشر إلى شرح هذه الألفاظ فنقول : لما كان معنى المشاهدة كما قرَّرناه اكتسابَ النفس للصفات المحمودة ، وتلوُّنها بها صفة بعد صفة ، ولها ترتيب في تعليم اكتسابها مخصوص بها ، كالإرادة ، والتوبة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والمجاهدة ، والقناعلا ، والتوكل ، والخشوع ، والتواضع ، والشكر ، واليقين ، والصبر ، والمراقبة ، والرِّضا ، والعبودية ، والاستقامة ، والإخلاص ، والصدق ، والتوحيد ، والمعرفة ، والمحبة ، والشوق .

وأول هذه الصفات الإرادة ، وليست اختيارية كما مرَّ ، والصفة الأخيرة هي الغاية القصوى والقصد الأشرف ، وهي المعرفة والتجلي والمشاهدة ، وكانت النفس في أثناء هذه المجاهدات لاكتساب هذه الصفات تطرأ عليها صفات أخرى واردة يتلون القلب بها ليست من كسب المريد ولا من اختياره ، بل هي من مواهب الله كالسرور ، والحزن ، والطرب ، والاهتياج ، والشوق ، والانزعاج ، والرجاء ، والخوف ، والقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس . فَسَمَّوْا ما يكون من الصفات بالكسب والاختيار مقاماً ، مثل التوكل ، والصبر ، والرضا ، وسائرها . وسمَّوْا ما يكون منها مواهب من الله خارجة عن الكسب حالاً كالسرور ، والحزن ، والرجاء ، والخوف ، وأمثالها .

---

(١) كلمة « لهم » ليست في د .

(٢-٢) ما بينها ليس في د .

ثم إن الصفات المحمودة لما كانت لا تحصل للقلب إلاّ بعد ذهاب الصفات المذمومة سمّوا ذهاب المذمومة بالفناء ، والمحو ، وحصول المحمودة بالإثبات والبقاء ، ثم اعتبروا في القلب ثلاثة اعتبارات ، من حيث كونه محل الصفات المذمومة ، ويخصونه من هذه الجهة باسم النفس ، ومن حيث كونه محلاً للصفات المحمودة ، ويخصونه[1] باسم الروح ، ومن حيث كونه محلاً لأنوار المشاهدة والمعرفة ، ويخصونه باسم السِّر .

ثم إن القلب قد يفجؤه من الغيب على سبيل الوهلة إما موجب حزن أو سرور ، فسموها بالبواده والهواجم .

ثم إن الوارد على الضمير قد يكون بنوع خطاب ، ويسمونه الخاطر ، وهو من المَلَك ، ومن الشيطان ، ومن النفس ، وقد يكون لا بخطاب فهو المختص باسم الوارد عندهم ، ثم عند كمال المجاهدة وقطع مقامات السُّلوك يتقدم بين يدي رفع الحجاب أنوار تومض إيماضَ البروق ولا تدوم يسمونها باللوامح ، واللوامع ، والطوالع ، ثم يكون بعدها رفع الحجاب الذي يسمونه بالمكاشفة ، فإن ارتقى إلى أقصى درجاته واتّضاحه سمِّيت معرفةً ومشاهدةً وتجلِّياً .

ثم المريد ما دام مترقِّياً في الأحوال يقولون : هو في تلوين . فإذا وصل إلى الغاية واستولى على المطلوب قالوا : هو في تمكين . وكذلك ما دام يرى الأشياء من الله فهو عندهم في مقام فَرْق ، لأنه يرى الله ويرى الموجودات ، وإذا رآها بالله فهو في مقام جَمْع ، ثم إذا لم يرَ إلاّ الله فهو في مقام جمع الجمع .

ثم تطرأ على المريد بعد تجلِّيه أحوال[2] أخرى يعبرون عنها بالذوق ، والشرب ، وهي من نتائج التجلي . ثم المشاهد قد يغيب عن الحس فيكون في غيبة وسكر ، فإذا تجلى عنه غشاء المشاهدة وأفاق فهو في حضور وصحو .

---

(١) في د : « يخصونه » .

(٢) في د : « بعد تجليات وأحوال » .

ثم إن العلم عندهم ما دام برهانياً فهو علم اليقين ، فإذا انتقل إلى نعت[١] البيان فهو عين اليقين ، فإذا صار إلى نعت العيان[٢] فهو حق اليقين ، ويعبرون عن هذه المراتب أيضاً بالمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة .

وهذه مراتب السالك باعتبار أحوال العلم المذكورة ، والأولى مراتب العلم في نفسه .

وكذلك يقولون : المعاملة ، والمنازلة ، والمواصلة [والمجاهدة][٣] ، يريدون بالمعاملة السلوك ، وبالمنازلة رفع الحجاب والكشف ، وبالمواصلة المعرفة والمشاهدة .

ثم إن مقامات /٢٠/ المجاهدة المطلوب اكتسابها مثل : التوبة ، والتوكل ، والورع ، والزهد ، وسائرها يختلف عندهم تفسيرها باختلاف الباعث على المجاهدة من تقوى واستقامة ، أو عرفان ، كالتوبة مثلاً ، فإن توبة المبتدي مغايرة لتوبة المنتهي . قال ذو النون[٤] : « توبة العوامّ من الذنوب ، وتوبة الخواصّ من الغفلة ، وتوبة العارفين مما سوى الله »[٥] . وفي الحديث : « ياأيُّها الناس توبوا فإني أتوب [إلى الله] في اليوم مئةَ مرةٍ »[٦] .

---

(١) في ط : « حكم » .

(٢) في د : « نعت البيان » .

(٣) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٤) ذو النون : هو ثوبان بن إبراهيم الإخميي المصري وأحد الزهّاد العبّاد المشهورين ، من أهل مصر ، نوبي الأصل من الموالي ، كانت له فصاحة وحكمة وشعر ، وهو أول من تكلّم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وكان شيخ وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، سعوا به إلى المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل وردّه إلى مصر مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيَّهلا بذي النون . توفي سنة ٢٤٥ هـ (حلية الأولياء : ٣٣١/٩ ، ٣/١٠ ، الرسالة : ٥٨/١ ، الأعلام : ١٠٢/٢) .

(٥) النص في رسالة القشيري مختصراً : ٦١/١ ، ٢٨٣ .

(٦) الحديث رواه مسلم : ٢٠٧٦/٤ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وأبو داود في الوتر ، والإمام أحمد : ٤٥٠/٢ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه ابن ماجه : ١٢٥٤/٢ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ متقاربة . وإسناده صحيح ورجاله ثقات . وأورده في الإحياء : ٤/٤ .

وكذا التوكل أيضاً ؛ فتوكل المؤمنين سكون إلى وعد الله ، وتوكل الخواصِّ اكتفاء بعلم الله ، وتوكل العارفين رضى بحكم[1] [الله] .

وكذلك الورع : فورع العوام ترك الشبهات ، وورع الخواص ترك الحركات ، وورع العارفين أن لا يدخل قلبه سوى الله[2] .

وكذا الزهد : فزهد العوامِّ ترك الحرام ، وزهد الخواص ترك الفضول من الحلال ، وزهد العارفين ترك ما يشغل العبد عن الله[3] .

وكذلك التوحيد ، والشكر ، واليقين ، والصبر ، وسائرها ، تختلف تفاسيرها باختلاف الباعث على المجاهدة ، حسبما استقريناه من كتبهم ، ولهم مع ذلك آداب خاصة بهم ، وسبيل لتعليم هذه المجاهدة مقصور عليهم لبعدهم عن الجمهور ، لا سيما مع فشو المخالفة والخروج عن الاستقامة ، وكذلك قد يصرح العارف بما يطير له الجمهور إنكاراً ، وتضيق حواصلهم عن ملتقطه ، فيحتاج إلى بيان يخرج عن التهمة كقول بعضهم : إني أقول يا الله ، يا رب ، فأجده أثقل عليَّ من الجبال ، لأن النداء إنما يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه ؟! فلولا هذا التعليل لكان هذا القول مردوداً وقائله متَّهماً ، وكذلك قولهم في أحكام الخلوة ، والتزام الذكر لطالب المشاهدة ، وأن لا يشتغل المريد بالأوراد ، ولا بالتلاوة ، بل يقتصر على الفرض وملازمة الذكر ، لأن التلاوة تشتمل على الأحكام ، والقصص ، فينتشر القلب في فهم معانيها ، والقصد جمعه بالذكر الواحد لاستجلاء نور المشاهدة من مذكوره .

فلولا هذا التعليل لكان اشتراط الأوراد والتلاوة منكر ، لكنه ترك واجب لأوجب منه ، وفرض لأعلى رتبة منه في الفرضية باعتبار الباعث على المجاهدة ،

(١) الإحياء : ٢٦٥/٤ ، وورد في الرسالة : ٤٢٢/١ عن أبي علي الدقاق بألفاظ متقاربة .

(٢) انظر الرسالة : ٣١٦/٢ ، فقد ورد بألفاظ متقاربة عن يحيى بن معاذ .

(٣) ذكره الإمام القشيري في الرسالة : ٣٣١/١ ، عن الإمام أحمد بن حنبل .

فاقتضى ذلك كله اصطلاحاً مخصوصاً من شرح الأسماء التي تواضعوا عليها للمفاوضة بينهم ، وبيان ما اختص بمجاهدتهم من الآداب والأحكام ، وشرح ما اختلف تفسيره من مقاماتها ، وكيفية تعليم المجاهدة ، وإيضاح ما تشابه من أقوالهم وإطلاقاتهم ، فكان ذلك علماً مخصوصاً[١] يسمى علم التَّصوُّف .

فقد تحصل أن المجاهدة[٢] على ثلاث مراتب :

مجاهدة التقوى : وهي رعاية الأدب مع الله في الظاهر والباطن بالوقوف عند حدوده ، مراقباً أحوال الباطن ، طالباً النجاة كما مرَّ ، وأنه التصوف عند الصدر الأول منهم .

ومجاهدة الاستقامة : وهي تقويم النفس وحملها على الصراط المستقيم ، حتى تصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب خلقاً جبلية ، طالباً مراتب ﴿ الَّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ ﴾ [النساء : ٦٩/٤] .

ومجاهدة الكشف والاطِّلاع : وهي إخماد القوى البشرية كلها حتى الأفكار متوجِّهاً بكليّة تعقله إلى مطالعة الحضرة الربانيّة ، طالباً رفع الحجاب ومشاهدة أنوار الربوبيّة في حياته الدنيا ، ليكون ذلك وسيلة إلى الفوز بالنظر إلى وجه الله في حياته الأخرى التي هي غاية مراتب السعداء .

فهذه ثلاثة مجاهدات يطلق اسم التصوف على مجموعها ، وعلى كل واحدة منها ، لكن غلب استعماله في الأخرتين دون الأولى ، وغلب في الأولى اسم الورع ، وصار علم المجاهدة الأولى هو فقه الورع وفقه القلوب ، والعلم [اللَّدنِّي][٣] الذي يسمى علم

(١) في د : « خاصّاً » ، وفي هامش ح : « خاصة » خ .

(٢) في د : « المجاهدات » .

(٣) ما بين معقوفتين زيادة من د .

التصوف هو العلم بأحكام المجاهدتين الأخرتين وآدابها وكيفية سبيلها ، وما يطرأ على السالك من العلل وما يفسد سلوكه ، أو يشيعه نحو غايته ، وشرح ألفاظهم التي اصطلحوا عليها مفاوضتهم .

وقد حاول كثير من القوم العبارة عن معنى التصوف بلفظ جامع /٢١/ يعطي شرح معناه فلم يفِ بذلك قول من أقوالهم .

فمنهم من عبّر بأحوال البداية ، قال الجريري[(١)] : « التّصوّف الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دَني »[(٢)] ، وقال القصّاب[(٣)] : « هو أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم من رجل كريم »[(٤)] .

ومنهم من عبر بأحوال النهاية ، قال الجنيد[(٥)] : « هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به »[(٦)] ، وقال رُوَيْم[(٧)] : « هو البقاء مع الله على ما يريد ، لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء »[(٨)] ، وقال سَمْنُون[(٩)] : « هو أن تكون مع الله بلا علاقة »[(١٠)] .

---

(١) تقدمت ترجمته في ص ٨٢ .

(٢) النّص في الرّسالة : ٥٥١/٢ .

(٣) القصّاب : محمد بن علي الصوفي البغدادي ، كان أستاذ الجنيد ، توفي سنة ٢٧٥ هـ . (انظر تاريخ بغداد : ٦٢/٣ ، طبقات الصوفية للسلمي : ١٥٥ ، طبقات الصوفية لابن الملقن : ١٣٦ .

(٤) ذكر ذلك القشيري في الرسالة : ٥٥٢/٢ .

(٥) الجنيد : تقدمت ترجمته ص ٥٠ .

(٦) الرّسالة : ٥٥١/٢ .

(٧) رُوَيْم بن أحمد بن يزيد البغدادي ، من جلّة مشايخ بغداد ، صوفي شهير ، وكان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود . توفي سنة ٣٣٠ هـ ، وقال في الرسالة ٣٠٣ هـ . (الرسالة : ١٢٧/١ ، الأعلام : ٣٧/٣) .

(٨) الرسالة : ٥٥٢/٢ بألفاظ متقاربة منسوباً لسمنون .

(٩) سمنون بن حمزة الخواص ، أبو الحسن أو أبو بكر ، صوفي كبير ، من أهل البصرة ، سكن بغداد وتوفي فيها نحو سنة ٢٩٠ هـ . (حلية الأولياء : ٣٠٩/١٠ ، تاريخ بغداد : ٢٣٤/٩ ، الأعلام : ١٤٠/٣) .

(١٠) النص في الرسالة : ٥٥٢/٢ منسوباً للجنيد .

ومنهم من عبَّر بعلامته[١] ، قال البغدادي[٢] : « علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الكاذب على العكس »[٣] .

ومنهم من عبر بأصوله ومبانيه ، قال رُوَيم : « التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار [إلى الله][٤] ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التَّعرُّض والاختيار »[٥] .

ومنهم من جعل ذلك الأصل والمبنى واحداً ، قال الكتاني[٦] : « التصوف خلق ، فمن زاد في الخلق ، زاد في التصوف »[٧] .

وأمثال هذه العبارات كثير ، وكل واحد منهم يعبر عما وجد ، وينطق بحسب مقامه ، والحق أن التصوف لا ينطبق عليه حد واحد ، وأنه التخلق بمجاهدة[٨] الاستقامة

(١) في د : « علامة » .

(٢) أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي البزاز ، كان من أقران الجنيد ومات قبله ، صحب السري والمسوحي ، وكان عالماً بالقراءات ، فقيهاً ، كان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل ما تقول فيها يا صوفي ؟ قيل مات سنة ٢٨٩ هـ . (الرسالة : ١٥٠/١) .

(٣) النص في الرسالة : ٥٥٢/٢ ، وفيه : « علامة الصوفي الصادق : أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفي الكاذب : أن يستغني بالدنيا بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء » .

(٤) الزيادة من الرسالة : ٥٥٢/٢ .

(٥) النص في الرسالة : ٥٥٢/٢ .

(٦) هو أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتّاني ، البغدادي ثم المكّي ، شيخ الصوفية في عصره أخذ عن أبي سعيد الخزاز والجنيد بن محمد ، كان يقال : الكتاني سراج الحرم ، وأنه ختم في الطواف اثني عشر ألف ختمة ، وكان من الأولياء . توفي سنة ٣٢٢ هـ ، وقيل ٣٢٨ هـ . (حلية الأولياء : ٣٥٧/١٠ ، الرسالة القشيرية : ١٦٦/١) .

(٧) ورد النص في الكتب التي ترجمت للكتاني ، وهو في الرسالة ٥٥٤/٢ : « التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليه في الصفاء » .

(٨) في د : « وبمجاهدة » .

مقتصراً عليها ، أو بمجاهدة الكشف ، ومن شروطها مجاهدة الاستقامة فيتخلق بهما معاً ، ويختلف[1] محصولها وحقيقتها باختلاف الباعث ، إذ الباعث في الاستقامة طلب السعادة بعد الموت من غير تعرض لكشف الحجاب في حياته الدنيا ، وباعث الأخرى هو كشف الحجاب في حياته الدنيا واختلفا[2] ، وعسر اندراجها في حد واحد ، وقد رسمنا كل واحدة منها برسمها ، والكل تصوف .

ومن أراد الاطّلاع على تفاصيل هذا كله ، والإحاطة بجميع حقائقه ، فعليه بكتب القوم ، وإنما أشرنا نحن على الجملة إلى ما تتميز به الطريقة عن غيرها ، ﴿ وما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أنْ هَدانا اللّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣/٧] .

وإذ قد بيّنا هذه المجاهدات وتميزها على الجملة ، وتميز بعضها عن بعض ، فلنذكر مشروعيتها :

فأما المجاهدة الأولى : فهي فرض عين على كل مكلف ؛ إذ الواجب على كل مسلم أن يتّقي عذاب الله بالوقوف عند حدوده ، ويعلم أن : ﴿ ومَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩/٢] ، ﴿ هُمُ الكافِرونَ ﴾ ، ﴿ هُمُ الفاسِقونَ ﴾[3] .

وأما المجاهدة الثانية : فهي مشروعة في حق الأمة ، فرض عين في حق الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، ومأخذها من الشريعة ظاهر ، وذلك أن الشارع لما كان حريصاً على النجاة ، وكان في الحكمة الشرعية والعادية أن دفع المضار مقدَّم على جلب المنافع ، أهاب بالكافة إلى الدخول فيما ينجيهم من الهلاك ، ويأخذ بحجزاتهم عن النار ، وهذه

(١) في د : « واختلف » .

(٢) في د : « فاختلفتا » .

(٣) ليس في القرآن : (ومَن يَتعدَّ حُدودَ اللهِ فأُولئكَ هُمُ الكافِرونَ) ، (الفاسِقونَ) ، ولكن ربما اعتمد ابن خلدون على حفظه فالتبست عليه الآية الأخرى : ﴿ ومَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الكافِرونَ ﴾ [المائدة : ٤٤/٥] ، ﴿ هُمُ الظّالِمونَ ﴾ [المائدة : ٤٥/٥] ، ﴿ هُمُ الفاسِقونَ ﴾ [المائدة : ٤٧/٥] .

هي الأحكام العامة للمكلفين ، ونبّه الخواص بهديه وطريقه ونعت بيانه ، للنعيم والشقاء على تفاوت الدرجات ، وتباين المنازل في السعادة ، وأن الصّديقين والشهداء والصالحين لهم سعادة أخرى أعلى من النجاة ، وطريقها الاستقامة : ﴿ صِراطَ الَّذينَ أنْعَمْتَ عَلَيهِم ﴾ [الفاتحة : ٦/١] . وأن أعلى مراتب هذه السعادة هو النظر إلى وجه الله .

وأما المجاهدة الثالثة : وهي مجاهدة الكشف ، فالذي نراه أنها محظورة حظر الكراهية أو تزيد ، قال الله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا في قُلوبِ الَّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ورَحْمَةً ورَهْبانِيَّةً ابْتَدَعوها ما كَتَبْناها عَلَيهِم إلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ ، فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها ، فَآتَيْنا الَّذينَ آمَنوا مِنهُم أجْرَهُم ، وكَثيرٌ مِنْهُم فاسِقونَ ﴾ [الحديد : ٢٧/٥٧] . وهذه المجاهدة رهبانية ، إذ تفسير الرهبانية عند أهل الأثر أنها رفض النساء[1] واتّخاذ الصوامع ، ثم بيَّن تعالى أن هذه الرهبانية لم يكتبها عليهم ، وإنما قصدوا بها ابتغاءَ رضوان الله ، ثم لم يرعوها حق رعايتها ، فقال تعالى في حقهم : ﴿ وكَثيرٌ مِنْهُم فاسِقونَ ﴾ [الحديد : ٢٧/٥٧] ، نعياً لهم وذمّاً لهم في ذمّ ارتكاب الرهبانية وعدم توفيتها حقها من الرعاية . قال القاضي أبو محمد ابن عطية[2] : « وفي هذا /٢٢/ التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بتطوع ونفل ، وأنه يلزمه أن يرعاه حقَّ رعايته »[3] . انتهى .

(١) وإليه أشارت السيدة في الحديث عن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين ، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ ، قالت : « كان خلقه القرآن ، أما تقرأ قول الله عز وجل : ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ قلت : فإني أريد أن أتبتل ، قالت : لا تفعل ، أما تقرأ ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُم في رَسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فقد تزوج رسول الله ﷺ ، وقد ولد له » ، رواه الإمام : ٩١/٦ ، ١٦٣ ، وانظر سنن البيهقي : ٤٩٩/٢) .

(٢) ابن عطية : هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي ، أبو محمد ، أندلسي ، فقيه ، مفسر ، ولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، له كتاب : (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) و (برنامج) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه . توفي سنة ٥٤٢ هـ أو ٥٤١ هـ ، ٥٤٦ هـ . (نفح الطيب : ٥٩٣/١ ، الأعلام : ٢٨٢/٣) .

(٣) النص في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٤٣٠/١٥ .

وانظر قوله تعالى : ﴿ حَقَّ رِعايَتِها ﴾ [الحديد : ٢٧/٥٧] ، تجد صعوبة التزام هذه المجاهدة لصعوبة رعايتها ، فقد تتخلف الرعاية لما يعرض في هذه المجاهدة من الأحوال الخارجة عن الاختيار كا قدمناه في شرحها ، فيحق الفسق والكفر ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إني أصوم وأفطر ، وأنام وأصلي ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني »[1] . ولما بلغه قسم عبد الله بن عمرو[2] على صيام النهار وقيام الليل ، نهاه عن ذلك ، وقال : « صُم من كل شهر ثلاثة ، قال : يا رسول الله ، إني أطيق أكثر من ذلك ، قال : فصيام داود ، وهو أفضل الصيام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه »[3] . و « ردَّ[4] رسول الله ﷺ على

(١) هو جزء من حديث عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه : « ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني » ، رواه البخاري : ٤/١١ ، ومسلم رقم ١٤٠١ ، والنسائي : ٦٠/٦ .

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابي جليل من النُّسّاك ، كان يكتب في الجاهلية ، ولد سنة ٧ قبل الهجرة ، وأسلم قبل أبيه ، وكان كثير العبادة ، ويشهد الحروب والغزوات ، ويضرب بسيفين ، وحمل راية أبيه يوم اليرموك ، توفي سنة ٦٥ هـ . (طبقات ابن سعد : ١٣/٨ ، حلية الأولياء : ٢٨٣/١ ، الإصابة الترجمة : ٤٨٣٨) .

(٣) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال لي رسول الله ﷺ : « صُم وأفطر ، صُم من كل شهر ثلاثة أيام ، فذلك صوم الدهر ، قلت : يا رسول الله ، إن بي قوة ، قال : فصم صوم داود ، صُم يوماً وأفطر يوماً ، فكان يقول : ياليتني أخذت بالرخصة » ، الحديث له طرق كثيرة رواه البخاري : ١٩١/٤ ، ومسلم رقم ١١٥٩ ، وأبو داود رقم ١٣٨٩ ، والترمذي رقم ٧٧٠ ، والنسائي : ٢٠٩/٤ . (وانظر جامع الأصول : ٢٩٦/١ وما بعدها ، ٣٢٩/٦ وما بعدها) .

(٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت : بعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون : « أرغبة عن سنَّتي ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ولكن سنَّتك أطلب ، قال : فإني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر وأنكح النساء ، فاتَّق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقّاً ، وإن لنفسك عليك حقّاً ، فصُم وأفطر وصلِّ ونَم » ، أخرجه أبو داود رقم ١٣٦٩ ، وانظر جامع الأصول : ٢٩٥/١-٢٩٦ ، الإحياء : ٤٢/٣ .

عثمان بن مظعون[١] التَّبتُّل » . وقال ﷺ : « سدِّدوا وقاربوا وعليكم[٢] .....[٣] وشيء من الدلجة »[٤] . وقالت عائشة [رضي الله عنها] : « إن كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نظن أنه لا يفطر ، ويفطر حتى نظن أنه لا يصوم »[٥] ، ونهى رسول الله ﷺ عن الوصال وقال : « إني لست كهيئتكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني »[٦] . ومعناه أن الاطِّلاع على العالم الروحاني ، ومشاهدة حضرة الربوبية لما كانت للأنبياء فطرة فطروا عليها ، وخلقاً امتازوا به ، وكانت العصمة المشيعة قلوبهم نحوه مركوزة في جبلَّتهم ، جعل الله لهم سلوك ذلك الطريق هدايةً وإلهاماً يهتدون إليها بمقتضى فطرتهم وخلقهم الأول ، فلا يستصعب عليهم طريقها ، ولا تخفى عنهم

---

(١) عثمان بن مظعون الجمحي ، صحابي عابد ، كان من حكماء العرب في الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، وهاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، وأراد التَّبتُّل والسياحة في الأرض زهداً بالحياة ، فمنعه رسول الله ﷺ ، فاتخذ بيتاً يتعبَّد فيه ، فأتاه النَّبي ﷺ وأخذ بعضادتي البيت وقال : يا عثمان ، إن الله لم يبعثني بالرهبانية (مرتين أو ثلاثاً) وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة ، وشهد بدراً ، ولما مات جاءه النَّبي ﷺ وقبَّله ميتاً حتى رؤيت دموعه تسيل على خدِّ عثمان ، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين ، وأول من دفن بالبقيع منهم . (طبقات ابن سعد : ٢٨٦/٣ ، الإصابة الترجمة ٥٤٥٥ ، حلية الأولياء : ١٠٢/١ ، الأعلام : ٢١٤/٤) .

(٢) في د : « وروحوا وعليكم ... وشيء » .

(٣) فراغ في ح بمقدار كلمة .

(٤) الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدُّلجة ، والقصد ، القصد ، القصد تبلغوا » (رواه البخاري : ١٠٩/١٠ ، ٢٥٢/١١ ، ٢٥٤ ، ومسلم رقم ٢٨١٦ ، وانظر جامع الأصول : ٣٠٨/١) .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلِّياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته » (رواه البخاري : ١٨٨/٤ ، ومسلم رقم ١١٥٨ ، والترمذي رقم ٧٦٩ ، وانظر جامع الأصول : ٣٠٢/٦ ، وما بعدها) .

(٦) الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : « نهاهم رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم ، فقالوا : إنك تواصل ؟ قال : إني لست كهيئتكم ، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني » (رواه البخاري : ١٧٧/٤ ، ومسلم رقم ١١٠٥ ، وانظر جامع الأصول : ٣٨١/٦) .

مسالكها ، كما لا يستصعب على الصبي طريق الثدي ، ولا على النحل بناء بيته المسدس ؛ ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠/٢٠] . فالله تعالى يتولى إطعامه وسقيه بما شاء من إمداده .

وأما حال المسكين الذي ليست هذه المشاهدة من فطرته [١] ، ولا من جبلَّته ، والعوائق عنها مكتنفة به ، فهو يرتقي - بالتلفت إلى شيء من هذا الكشف وطلبه ، ولو كان دون مراتب الأنبياء صلوات الله عليهم - مرتقى صعباً ، وخطراً عظيماً . هذا مع ما فيه من المهالك والعوائق التي يجب الحذر منها [٢] باجتنابه كما قدمنا ذكره .

(١) في د : « ليست هذه الفطرة المشاهدة من فطرته » .

(٢) في د : « حذرها » ، وفي هامش ح : « حذرها » نسخة .

الكلام فيما نقل المتأخرون اسم التصوف إليه والرَّد عليهم في ذلك

اعلم أن مجاهدة المكاشفة[١] ـ كما قدمناه ـ مشتملة على المجاهدتين الأخريين : مجاهدة الاستقامة ، ومجاهدة التقوى ، إذ هي مشروطة بها ، فصارت حينئذٍ مشتملةً على مجاهدة ورياضة ، ثم على مكاشفة ومشاهدة ، فلا جرم أن هذا العلم ينقسم إلى نوعين :

علم[٢] بأحكام المجاهدات والرياضة وشروطها ، ويسمى علم المعاملة .

وعلم برفع الحجاب وأحوال ما بعده ، ويسمى علم المكاشفة ، وعلم الباطن .

وتحقيقه أن القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته[٣] المذمومة ، ثم إخماد القوى البشرية ومحاذاة جانب الحق به ـ كما قدمناه ـ يرتفع عنه الحجاب ، ويتجلى فيه النور الإلهي ، فتنكشف له بذلك أسرار الوجود علوه وسفله[٤] ، وملكوت السموات والأرض ، وتتضح له معاني العلوم والصنائع ، وتنحل جميع الشكوك والشُّبه ، ويطلع على ضمائر القلوب وأسرار الوجود ، وتنكشف له معاني المتشبهات الواردة في الشرع ، حتى تحصل له المعرفة بحقائق الوجود كله على ما هي عليه : من ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه ، وقضائه ، وقدرته ، والعرش ، والكرسي ، واللوح ، والقلم ، والحكمة في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيب الآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى

(١) في د : « الكشف » .

(٢) يعتمد ابن خلدون هنا على الغزالي في الإحياء : ١/١٩ـ٢٠ ، وبتصرُّف قليل .

(٣) في د : « الصفات » .

(٤) في د : « علويه وسفليه » .

النُّبوَّة ، والوحي ، وليلة القدر ، والمعراج ، ومعرفة الملائكة ، والشياطين ، وعداوة الشياطين للإنس ، ولقاء الملائكة للأنبياء ، وظهورهم له ، ووصول الوحي إلى النَّبي ، وكرامة الولي ، وطريق المجاهدة ، وتزكية القلب وتطهيره ، ومعنى القلب ، والروح ، ومعرفة الآخرة ، وأحوال القيامة : من الصِّراط ، والميزان ، والحساب ، والحوض ، والشفاعة ، وعذاب القبر /٢٣/ ، والجنة ، والنار ، والعذاب ، والنعيم ، ومعنى لقاء الله ، والنظر إليه ، والقرب منه ، وقربه من العبد ، وجميع ما كان يسمع من الأسماء ، ويتوهم لها من معاني مبهمة غير متَّضحة[(١)] .

فعلم المكاشفة : أن يرتفع الغطاء حتى تتضح جلية الحق في هذه الأمور كلها اتِّضاحاً يحصل به اليقين الذي يجري مجرى العيان من غير نعت و[(٢)] لا اكتساب ، وهذا ممكن في حق هذه اللطيفة الربّانية . كما قدمناه ، وإنما حجبها عن ذلك ما تلوثت به من توابع البدن وصفات البشرية .

وعلم المعاملة الذي هو علم طريق الآخرة : هو العلم بكيفية تطهير القلب من الخبائث والكدرات بالكف عن الشهوات ، وإخماد القوى البشرية بقطع جميع العلائق البدنية ، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلي من[(٣)] القلب ، ويحاذي به شطر الحق تتلألأ فيه حقائقه ، وهذه هي الرياضة والمجاهدات التي قدمنا ذكرها .

فأما[(٤)] علم المعاملة فهو على صنفين : لأن مطلوب السالك إن كان النجاة فقط ، ولم يترق إلى الأعلى منها ، فهذا يكفيه الورع ومجاهدة القلب ، على مقتضى الوقوف عند حدود الله في أعماله الباطنة والظاهرة ، وهذا هو فقه[(٥)] الباطن الذي ذكرنا أنه

(١) الإحياء : ١٩/١ بتصرُّف .

(٢) في د : « من غير تعلُّم » وهو الأقرب .

(٣) في د : « ما ينجلي به القلب » .

(٤) الإحياء : ٢٠/١ بتصرف قليل .

(٥) في د : « وهذا فقه الباطن » .

كان يسمى تصوفاً في [الصدر] [١] الأول قبل ترقي الهمم إلى مجاهدة الكشف ، وكتاب هذه الطريقة المشهور فيها كتاب (الرعاية) [٢] للحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه .

وإن ترقي المريد بهمته إلى طلب السعادة الكبرى ، والفوز بالدرجات ، وتحصيل وسائلها التي هي الاستقامة وكشف الحجاب في حياته الدنيا ، فلابد له من معرفة [٣] اصطلاحات القوم ، وآدابهم وأحكامهم ، وكيفية مجاهداتهم ، وسبل تعليمهم ، ومراتب المجاهدات والمقامات ، وكيف تختلف المجاهدة الواحدة باختلاف المقامات ، والأخذ بأقوالهم في ذلك [٤] كله ، والتقييد [٥] للاقتداء بهم ، وهذا هو الذي غلب فيه اسم التصوف ، وكتاب هذه الطريقة (رسالة) الأستاذ أبي القاسم القشيري ، وفي المتأخرين كتاب (عوارف المعارف) [٦] للسَّهْرَوَرْدي [٧] .

ولما كانت مجاهدة الكشف مشروطة بمجاهدة الاستقامة ، ومجاهدة التقوى احتاج طالب الكشف إلى أحكام المجاهدات كلها ، فجعل الغزالي كتاب (الإحياء) مشتملاً على الطريقتين : طريقة الورع وفقه الباطن الذي تضمنه كتاب (الرعاية) وطريقة الاستقامة ومجاهدة الكشف الذي تضمنه كتاب (الرسالة) .

---

(١) ما بين معقوفتين زيادة من ط .

(٢) تقدم التعريف بالكتاب ومؤلفه .

(٣) في د : « فلابد من معرفة » .

(٤) في د : « من ذلك » .

(٥) في د : « والتقيد » .

(٦) عوارف المعارف للسّهْروردي : وهو مشتمل على ثلاثة وستين باباً ، كلها في سير القوم وأحوال سلوكهم وأعمالهم . أراد فيه مؤلفه إيراد وجه الصواب فيما اعتمده الصوفيون ، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم (كشف الظنون : ١١٧٧/٢) ، وقد طبع الكتاب مرات كثيرة .

(٧) السّهْروردي : عمر بن محمد بن عبد الله ، أبو حفص ، فقيه شافعي ، مفسّر ، من كبار الصوفية ، ولد بسهرورد سنة ٥٣٩ هـ ، كان شيخ الشيوخ ببغداد ، وأوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولاً ، له عدة كتب أشهرها عوارف المعارف وبغية البيان في تفسير القرآن ، جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب . توفي ببغداد سنة ٦٣٢ هـ . (وفيات الأعيان : ٣٨٠/١ ، الأعلام : ٦٢/٥) .

وأما علم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات ونتيجتها ، فلم يكن سبيل إلى الخوض فيه . وقد حذّر القوم رضي الله عنهم من إيداعه الكتب والكلام في شيء منه إلاّ ما يدور بينهم في المفاوضات[١] على سبيل الرمز والإيماء تمثيلاً وإجمالاً ، ولا يكشفون لغيرهم شيئاً من معانيه ، علماً بقصور الأفهام عن احتماله ، ووقوفاً مع حدود الشريعة في ترك الأخذ[٢] بما لا يعني ، وأدباً مع الله في صون أسرار الربوبية ، وإن صدر عن أحدٍ منهم كلمة من ذلك على سبيل الندور سمّوه شطحاً ، بمعنى أن حال الغيبة والسكر استولت عليه حتى تكلم بما ليس له الكلام به ، كما نقل عن أبي يزيد في قوله : « سبحاني ما أعظم شأني »[٣] ، وقوله : « جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله »[٣] . وقول رابعة : « لو وضعت خماري على النار[٤] ما بقي بها أحد » . وأمثال ذلك .

واعلم أن الخوض في هذا الفن من الأقوال محظور من وجوه :

أولها : أن العبارة عن تلك المدارك والمعاني المنكشفة من عالم الملكوت متعذرة ، لا ، بل مفقودة ، لأن ألفاظ التخاطب في كل لغة من اللغات إنما وضعت لمعانٍ متعارفة من محسوس ، أو متخيل ، أو معقول تعرفه الكافة ، إذ اللغات تواضع واصطلاح ،

---

(١) في د : « المفاوضة » .

(٢) ط : « في الأخذ » .

(٣) في ط : « لو وضعت خماري ما بقي بها أحد » .

(٤) سئل الإمام ابن حجر الهيتمي ما معنى قول أبي يزيد : سبحاني سبحاني ؟ فأجاب بقوله : للعارفين رضي الله عنهم ونفعنا بعلومهم وأسرارهم ولحظاتهم أوقات يغلب عليهم فيها شهود الحق تعالى بعين العلم والبصيرة فإذا تمّ لهم ذلك الشهود ذهلوا حتى عن نفوسهم ولم يبق لهم شعور بغير الحق تعالى .. فقوله : سبحاني معناه : قد تجلى علي الحق بشهوده حتى صرت كأني هو ، وسئل عن معنى قول أبي يزيد خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله ، فأجاب بقوله : هذا القول لم يصح عنه ، وإن صح فهو أن يقال : وقفوا بساحله ليعبروا فيه من رأوا فيه أهلية العبور ، ويمنعوا من لم يروا فيه أهلية العبور ، أو ليدركوا من رأوه أشرف على الغرق أو نحو ذلك مما فيه نفع للغير كما يقف الأفضل يشفع في دخول الجنة ، ويدخل المفضول ، قال بعضهم : أو يقاف وقوفهم وقوف صدور لا وقوف ورود ، فلا يظن بأبي يزيد نفع الله به إلا ما لا يليق بجلالة قدره وعلو مقامه . (الفتاوى الحديثية : ٢١٥ ، ٢٢٠) .

فلا توضع إلا للمعروف المتعاهد ، فأما ما ينفرد بإدراكه الواحد في الأعصار والأجيال فلم توضع له ، ولا يصح أيضاً التجوُّز بهذه الألفاظ إلى(١- تلك المعاني حتى يقال يعبر عنها بهذه الألفاظ -١) على طريق المجاز ، إذ التجوُّز إنما يكون بعد /٢٤/ مراعاة معنى مشترك أو نسبة ، ولا نسبة بوجهٍ بين عالم الملكوت وعالم الملك ، ولا بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، فإذن العبارة عن أحوال عالم الملكوت متعذرة أو مفقودة ، فكيف يتكلم بما لا يفهم ، فضلاً عن أن يودع الكتب ، وإن صاروا إلى ضرب الأمثال والقنوع بالإجمال فسبيل مبهم .

وثانيها : أن الأنبياء صلوات الله عليهم هم أهل المكاشفة والمشاهدة بالأصل ، إذ هي لهم جبلة وطبيعة(٢) ، واللمحة التي تحصل لغيرهم من ولي أو صدّيق بتكلف أو اكتساب واطّلاعهم على(٣) أحوال الملكوت أكمل من اطّلاع العارف والولي ، بل لا نسبة بينهما ، وهم قادرون على التعبير عن ذلك بإمداد الله إياهم بنوره .

ومع هذا فلم ينقل ذلك ، وقد سئل ﷺ عن الروح فقال : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] . وقد جعل علماء اليهود الذين سألوه عن الروح(٤) ، من علامة نبوته وصدق مدعاه أن لا يجيب عن ذلك(٥) . وإنما

(١-١) ما بينهما ساقط من د .

(٢) في ط : « وطبيعية » .

(٣) في د : « واطّلاع النبي على » .

(٤) في د : « الروح فقال : قل الروح من أمر ربي من علامة نبوته » .

(٥) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « بينا أنا مع رسول الله ﷺ ـ وهو يتوكأ على عسيب ـ مرَّ بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لا تسألوه لا يُسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه فقالوا : ياأبا القاسم ، حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر ، فعرفت أنه يوحى إليه ، فتأخرت حتى صعد الوحي ، ثم قال : ﴿ ويَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبِّي ، وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ ، فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه » . (رواه البخاري : ١٩٨/١ ، ومسلم رقم ٢٧٩٤ ، والترمذي رقم ٣١٤٠ ، والإمام أحمد في المسند رقم ٣٦٨٨ ، وانظر جامع الأصول : ٢١٦/٢ ، ٢١٧) ، وانظر تفسير البغوي : ١٣٤/٣ ، وفيه سؤال اليهود عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ونزول الوحي على النّبي ﷺ وإجابة الرسول ﷺ .

دعا الأنبياء الكافة إلى النجاة ، ونبهوا على تفاوت الدرجات ، وأوموا إلى شيء من أحوال عالم الملكوت دعت الضرورة إليه في عقائد الإيمان من أمور الصفات وأحوال القيامة ، تعين حمل بعضها الظاهر في عالم الملك كأحوال القيامة ، وعد بعضها من المتشابه كما في كثير من الصفات ، وقد عدَّ بعض العلماء كل ذلك من المتشابه ، فما ظنك بغير الأنبياء ممن لا يطمع في مداركهم ، ولا يرد على حوضهم ، ولم تدعه ضرورة التبليغ إلى النطق به .

وثالثها : أن العلوم والمعارف ـ بحسب نظر الشرع ـ تنقسم إلى [(١] محظور وغير محظور ، والقاعدة المستقرأة من الشريعة أن كل ما لا يهم المكلف في معاشه ولا في دينه فهو مأمور بتركه . قال ﷺ : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يَعنيْه »[(٢)] . قيل : هذا الحديث ثلث الدين ، فما يهم المكلف في دينه أو معاشه فغير محظور ، وربما تنتهي الأهمية فيه إلى الوجوب .

ومن هذا العلم بفروض الأعيان إذ هو أهم بحسب الدين ، وما لا يهم المكلف في دينه ولا معاشه تجده محظوراً . وتأمل قوله تعالى : ﴿ ويَسْألونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ تجد في قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] ، رائحة الإنكار الدّال على الحظر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْألونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩/٢] ، معناه أن الذي يهمكم من أمر الأهلّة كونها معالم للحج ، وهذا من أمور الدين ، أو معالم للناس في مزارعهم ومتاجرهم ، وهذا من أمور المعاش ، وما سوى ذلك فلا حاجة لكم به ، ثم عقبه بذكر ما هو أهم ، وهو النهي عما كان بعض الحاجّ يفعلون في إحرامهم من هجر البيوت في الدخول ، وإتيانها من

(١ـ١) ما بينهما ساقط من ح وأثبتنا ما في د .

(٢) الحديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (رواه الإمام مالك في الموطأ : ٩٠٣/٢ ، والترمذي رقم ٢٣١٨ ، ٢٣١٩ ، وابن ماجه رقم ٣٩٧٦ ، والحديث صحيح ، وانظر جامع الأصول : ١٣٤/١٠ ، ٧٢٩/١١) .

ظهورها ، ففي تعقيبه بهذا الحكم بعد الإضراب عن مقصود السؤال تنبيه وإيماء على حظر الشارع لذلك ، وطلب تركه من المكلفين .

ثم إن قوماً من المتصوفة المتأخرين عنوا بعلوم المكاشفة ، وعكفوا على الكلام فيها ، وصيّروها من قبيل العلوم والاصطلاحات ، وسلكوا فيها تعليماً خاصّاً ، ورتّبوا الموجودات على ما انكشف لهم ترتيباً خاصّاً ، يدعون فيه الوجدان والمشاهدة ، وربما زعم بعضهم في ذلك غير ما زعمه الآخرون ، فتعددت المذاهب ، واختلفت النِّحل والأهواء ، وتباينت الطرق والمسالك ، وتحيَّزت الطوائف ، وصار اسم التصوف مختصّاً بعلوم المكاشفة ، والبحث ـ على طريقة العلوم الاصطلاحية الكسبية ـ عن أسرار الملكوت والإبانة عن حقائق الوجود ، والوقوف على حكمته وأسراره ، ثم يفسرون المتشابه من الشريعة كالروح ، والملك ، والوحي ، والعرش ، والكرسي ، وأمثالها بما لا يتضح أو يكاد ، وربما يتضمن أقوالاً منكرة ، ومذاهب مبتدعة ، ككلمات الباطنية في حمل كثيرٍ من آيات القرآن المعلومة الأسباب على معنى الباطن ، ويضربون بحجب التأويل على وجوهها السافرة وحقائقها الواضحة ، كقولهم في آدم وحواء ، إنهما النفس والطبيعة ، وقولهم في ذبح البقرة : إنها النفس ، وقولهم في أصحاب الكهف : إنهما الخالدون[1] إلى أرض الشهوات ، وأمثال ذلك ، فتسكن قلوب كثير من أهل الضلال إلى ذلك استجلاء لتحصيل الغايات في البدايات ، واغتناماً للزبدة الممخوضة خالصةً من المتاعب ، فإذا طالبهم الأنْكار[2] بتحقيق دعاويهم لجؤوا إلى الوجدان الذين لا يتعدى دليله ، ولا يتضح على الغير برهانه ، ﴿ وَلَو شاءَ اللهُ ما فَعَلوهُ ﴾ [الأنعام : ١٣٧/٦] ، فلقد كان لهم سعة في تقليد السيف منهم في النهي عن الخوض في ذلك ، وإذا كانت كلماتهم وتفاسيرهم لا تفارق الإبهام والاستغلاق ، فما الفائدة فيها ، فالرجوع إذن إلى تصفح كلمات الشرع واقتباس معانيها من التفاسير المعتضدة بالأثر ، ولو كانت لا تخلص من الإبهام ، أولى من إبهامهم الذي لا يستند إلى[1-] برهان عقل ولا قضية شرع .

(١) خلد إليه : أقام ، (القاموس : خلد) .

(٢) أنكار جمع نَكِر أي منكر . (القاموس : نكر) .

والذي يجمع مذاهبهم على اختلافها وتشعب طرقها رأيان ؛ الرأي الأول : رأي أصحاب التَّجلي ، والمظاهر ، والأسماء ، والحضرات ، وهو رأي غريب فيلسوفي إشارةً[(١)] ، ومن أشهر المتمذهبين به ابنُ الفارِض[(٢)] ، وابن بَرَّجان[(٣)] ، وابن قوسي[(٤)] ، والبُوني[(٥)] ، والحاتمي[(٦)] ، وابن سودكين[(٧)] .

---

(١) في د : « فيلسوفي بالإشارة » .

(٢) ابن الفارض : عمر بن علي بن مرشد ، أبو حفص وأبو القاسم ، أشعر المتصوفين ، يلقب بسلطان العاشقين ، قدم أبوه من حماة فسكن مصر ، ولد له عمر سنة ٥٧٦ هـ فنشأ في بيت علم وورع ، فاشتغل بالفقه الشافعي ، وأخذ الحديث عن القاسم بن عساكر ، ثم حبب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وتجرَّد واعتزل في واد بعيد عن مكة ، وفي تلك الحال نظم أكثر شعره ، وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عاماً ، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر ، فقصده الناس حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته ، كان حسن الصحبة والعشرة ، رقيق الطبع ، سخيّاً جواداً ، وكان يعشق مطلق الجمال . قال الذهبي : كان سيد شعراء عصره ، له ديوان شعر متداول شرحه كثيرون منهم حسن البوريني وعبد الغني النابلسي وشرحاهما مطبوعان ، توفي سنة ٦٣٢ هـ ودفن في المقطم ، (طبقات الأولياء لابن الملقن : ٤٦٤ ، جامع كرامات الأولياء : ٢١٨/٢ ، الأعلام : ٥٥/٥) .

(٣) ابن برجان : عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي ، أبو الحكم ، صوفي من مشاهير العلماء والصالحين ، له كتاب في تفسير القرآن ، أكثر كلامه فيه على طريق الصوفية ، لم يكمله ، وله أيضاً شرح أسماء الله الحسنى ، توفي بمراكش سنة ٥٣٦ هـ ، (فوات الوفيات : ٢٧٤/١ ، جامع كرامات ٦٩/٢) .

(٤) في ح : ابن قوسي وأثبتنا ما في د لاتفاق من ترجم على ذلك وهو :
أحمد بن قسي الأندلسي ، أبو القاسم ، صوفي مشهور ، له كتاب (خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين) . لسان الميزان : ٢٤٧/١ ، ميزان الاعتدال : ٦٠/١ ، معجم المؤلفين : ٥١/٢ .

(٥) البوني : أحمد بن علي بن يوسف ، أبو العباس ، صاحب المصنفات في علم الحروف ، متصوف مغربي الأصل ، توفي بالقاهرة سنة ٦٢٢ هـ ، له من المؤلفات : شمس المعارف الكبرى ، واللمعة النورانية ، والسلك الزاهر ، وغيرها . (جامع كرامات الأولياء : ٣١٤/١ ، الأعلام : ١٧٤/١) .

(٦) الحاتمي : محمد بن محمد علي ، الشيخ الأكبر ، تقدمت ترجمته .

(٧) في ط : « سودكين » ، وفي د : « شوذكين » ، وفي ح : « شوجكين » ، وأثبتنا ما اعتمدته مصادر ترجمته .
ابن سودكين : إسماعيل بن سودكين بن عبد الله ، أبو الطاهر النوري ، كان من أصحاب الشيخ =

وحاصله في ترتيب صدور الموجودات عن الواجب الحق : أن نية الحق هي الوحدة ، وأن الوحدة نشأت عنها الأحدية والواحدية ، وهما اعتباران للوحدة ، لأنها إن أخذت من حيث سقوط الكثرة وانتفاء الاعتبارات فهي الأحدية ، ونسبة الواحدية إلى الأحدية ، نسبة الظاهر إلى الباطن ، والشهادة إلى الغيب ، فهي مظهر للأحدية بمنزلة المظهر للمتجلي ، ثم تلك الوحدة الجامعة التي هي عين الذات وعين قبولها للاعتبارين[1] ، أعني اعتبار الباطن وتوحده عن الكثرة ، واعتبار الظاهر[2] وتكثره ، فهي بين البطون والظهور كالمتحدث في نفسه مع نفسه .

ثم أول مراتب الظهور ظهوره لنفسه ، وأول متعلق الظهور الكمال الأسمائي للحديث مع نفسه ، وأول التجليات تجلي الذات الأقدس على نفسه ، وأول التَّجلِّيات تجلي الذات الأقدس على نفسه ، وينقلون في هذا حديثاً نبويّاً يجعلونه أصل نحلتهم ، وهو : « كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أنْ أُعرَفَ ، فخلقتُ الخلْقَ ليعرفوني »[3] ، والله أعلم بصحته ، مع أنه لا يشهد ـ ولو صح ـ بتفاصيل هذا المذهب ، ولا يقوم له بدليل واضح .

= محيي الدين بن عربي ، له كلام صوفي وشعر ، من تصانيفه : (شرح التجليات الإلهية لابن العربي) و (لواقح الأسرار ولوائح الأنوار) و (تحفة التدبير) ، توفي سنة ٦٤٦ هـ . (شذرات الذهب : ٢٣٢/٥ ، الأعلام : ٣١٤/١) .

(١) في د : « الاعتبارين » .

(٢) في د : « واعتبار الظاهر » .

(٣) حديث : كنت كنزاً مخفياً : قال العجلوني قال ابن تيمية : ليس من كلام النبي ﷺ ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم . قال القاري : لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدون ﴾ ، أي ليعرفوني كما فسّره ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو واقع كثيراً في كلام الصوفية واعتمدوه وبنوا عليه أصولاً لهم . (كشف الخفا : ١٣٢/٢ ، والمصنوع للقاري : ١٤١) ، وانظر تفسير الآلوسي عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدون ﴾ ، وقال لسان الدين بن الخطيب في روضة التعريف وقد أورده ص ٥٢٠ ، ٥٨٤ : وهو عندهم في صحة الاستناد وإليه بمنزلة حديث التواتر عند المجتهد .

ثم تضمن هذا التَّجلّي عندهم الكمال ، وهو إفاضة الإيجاد والظهور ، وليس هو من حيث الأحدية التي هي سلب الكثرة ، بل من حيث الواحدية التي هي المظهر ، وتنقسم[١] إلى كمال وحداني ، وكمال أسمائي ، لأن تلك الكثرة التي اعتبرت من حيث حصولها جميعاً دفعة[٢] واحدة ، وعيناً واحدة في شهود الحق ، فهو الكمال الوحداني ، وإن اعتبرت من حيث التفصيل في الحقائق والاعتبارات ، والتنزل في الوجود ، وأنها البرزخ الجامع لتلك الأفراد المنفصلة[٣] ، فهو الكمال الأسمائي المنزل تفصيله في الحقائق ، وهذه عندهم هي عالم المعاني والحضرة العمائية وهي الحقيقة المحمدية[٤] ، ومن أعيان كثرتها حقيقة القلم واللوح ، ثم حقيقة الطبيعة ، ثم حقيقة الجسم إلى آدم حقيقةً ووجوداً ، وتشتمل الحضرة العمائية عندهم من حيث اعتبار الكثرة والتفصيل على الحقائق السبعة الأسمائية التي هي الصفات ، وأشملها وأوعبها حقيقة الحياة ، ثم على حقائق[٥] الأنبياء والرُّسل والكُمَّل من المحمديين الذين هم الأقطاب[٦] /٢٥/ وعلى حقائق الأبدال

(١) في د : « وينقسم » .

(٢) في د : « في دفعة » .

(٣) في ح : « المفصلة » .

(٤) الحقيقة المحمدية : هي أكمل مجلى خَلقي ، وهي الإنسان الكامل بأخصِّ معانيه ، وهي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء . (المعجم الصوفي : ٣٤٨) .

(٥) في د : « ثم حقائق الأنبياء » .

(٦) الأقطاب جمع قطب : قال الكاشاني ص ١٤٥ : « هو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان » . والقطبية الكبرى : هي مرتبة قطب الأقطاب ، وهو باطن نبوة محمد ﷺ ولا يكون إلا لورثته ، لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالأكملية » .

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي في منزل القطب : « القطب مركز الدائرة ومحيطها ومرآة الحق ، عليه مدار العالم ، له رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلائق ، بالخير والشر على حدٍّ واحد ، لا يترجح واحد على صاحبه » ، (انظر المعجم الصوفي : ص ٩١٢) .

وقال ابن عابدين في رسالته إجابةالغوث وبيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والغوث ص ٢٦٤ : الأقطاب : جمع قطب وزان قفل ، وهو في اصطلاحهم : الخليفة الباطن ، وهو سيد أهل زمانه ، سمي قطباً لجمعه المقامات والأحوال ودورانها عليه ، مأخوذ من قطب الرحى : الحديدة التي تدور عليه .

السبعة[1] ، وهي كلها تفصيل الحقيقة المحمدية ، ثم تتفرع من الحقائق التي هي الأصول والمناشئ حقائق أخرى ، وتجليات ومظاهر للذات الأحدية ، وتترتب على أنواع في الترتيب[2] حتى تنتهي إلى عالم الحس والشهادة ، وهو عالم الفتق يسمونها عوالم وحضرات ومجالي[3] للحقائق المنسوبة إلى الحق تارة ، وإلى الكون أخرى ، وأول حضرة وليت الحضرة العمائية عندهم هي الحضرة الهبائية وتسمى مرتبة المثال ، ثم العرش ، ثم الكرسي ، ثم الأفلاك على ترتيبها ، ثم عالم العناصر ، ثم عالم التركيب إلى آخره وغايته ، وما دامت هذه كلها منسوبة إلى الحق ، وفي اعتبار الذات البرزخية الجامعة على تفاصيلها ، وتوالي رتبها منهي في عالم الرتق[4] ، فإذا نسبت إلى الكون وتجلّت في مظاهره فهي في عالم الفتق[5] ، إلى تفصيل كثير وعبارات مبهمة ، واصطلاح شارد .

(١) الأبدال أو البدلاء » جمع بدل ، ومقام البدلية مقام ذو مواصفات معينة تنطبق على عدد محدود من الرجال ، وهم أربعون عند بعض وسبعة عند بعض . (المعجم الصوفي : ١٨٩) .
يقول الشيخ محي الدين بن عربي في الفتوحات ١٦٠/١ : « الأبدال وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة .. وسموا هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعاً ويريدون أن يخلفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع ، لأمر يرونه مصلحة وقربة ، يتركون به شخصاً على صورته ، لا يشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل ، وليس هو ، بل هو شخص روحاني يتركه بدله بالقصد على علم منه ، فكل من له هذه القوة فهو البدل » . (وانظر المصطلحات الصوفية للقاشاني : ٣٦) .
وقال ابن عابدين ـ بفتح الهمزة ـ : « جمع بدل ، سموا بذلك ، لأنه كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، أو لأنهم أبدلوا أخلاقهم السيئة ورضوا أنفسهم حتى صارت محاسن أخلاقهم حلية أعمالهم ، أو لأنهم خلف عن الأنبياء » . (إجابة الغوث : ص ٢٦٥) .

(٢) في د : « من الترتب » .

(٣) في د : « ومجال » .

(٤) الرّتق : إجمال المادة الروحانية المسماة بالعنصر الأعظم المطلق المرتوق قبل خلق السموات والأرض . (اصطلاحات الصوفية للقاشاني : ١٤٨) .

(٥) الفتق : ما يقابل الرّتق من تفصيل المادة المطلقة بصورها النوعية ، أو ظهور كل ما بطن في الحضرة الواحدية من النسب الأسمائية ، وبروز كل ما كمن في الذات الأحدية من الشؤون الذاتية كالحقائق الكونية بعد تعينها في الخارج . (اصطلاحات الصوفية للقاشاني ١٣٥) .
الهبائية .

حاصله[١] ـ إذا خلص وهذب واتَّضح للفهم موضوعه ومسائله ـ أنه ترتيب للوجود قريب من ترتيب الفلاسفة ، شبيه بآرائهم الكسبية وعلومهم ، من غير برهان يشهد له ، ولا دليل يقوم عليه .

الرأي الثاني :

رأي أصحاب الوحدة ، وهو رأي أغرب من الأول في مفهومه وتعقله .

ومن[٢] أشهر القائلين به ابن دهاق[٣] ، وابن سبعين[٤] ، والششتري[٥] وأصحابهم ، وحاصله ـ بعد إنعام النظر والخوض فيما خاض فيه غيرهم في الواحد وما صدر عن الواحد ـ أن الباري جلّ وعلا هو مجموع ما ظهر وما بطن ، ولا شيء خلاف ذلك ، وأن تعدد هذه الحقيقة المطلقة ، الآنية الجامعة التي هي عين كل آنية[٦] ، والهوية التي هي عين كل هوية إنما وقع بالأوهام : من الزمان ، والمكان ، والخلاف ، والغيبة ،

(١) اقتبس ابن خلدون ما تقدم من لسان الدين بن الخطيب في روضة التعريف ، ص ٥٨٨ .

(٢) النص منقول عن روضة التعريف ص ٦٠٤ ـ ٦٠٨ بتصرف .

(٣) ابن دهاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق ، أبو إسحاق الأوسي المالقي المعروف بابن المرأة ، روى الموطأ عن ابن حنين ، وكان فقيهاً حافظاً للرأي ، عالماً بعلم الكلام ، وصنف كتاباً في الإجماع ، توفي سنة ٦١١ هـ . (الديباج المذهب ٩٠ ، الوافي بالوفيات : ١٧١/٦) .

(٤) ابن سبعين : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الإشبيلي المرسي ، المعروف بابن سبعين ، أبو محمد ، من الزهّاد ، وكان يقول بوحدة الوجود ، تلقى العلم في الأندلس ، وانتقل إلى سبتة ، له مريدون يعرفون بالسبعينية ، قال ابن دقيق العيد : جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته . توفي سنة ٦٦٩ هـ . (نفح الطيب : ٤٢١/١ ، الأعلام : ٢٨٠/٣) .

(٥) الششتري : أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الأندلسي ، الفقيه الصوفي . له عدد من المؤلفات منها : المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية ، والرسالة القدسية العامة والخاصة ، والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية ، وغيرها ، توفي سنة ٦٦٨ هـ بدمياط . (نفح الطيب : ١٦١/٧ ، لسان الميزان : ٢٤٠/٤ ، معجم المؤلفين : ١٣٥/٧) .

(٦) في د : « أينه » .

والظهور ، والألم[١] ، واللذة ، والوجود ، والعدم ، قالوا : وهذه كلها إذا حققت إنما هي أوهام راجعة إلى إخبار الضمير وليس في الخارج شيء منها ، فإذا أسقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما فيه واحداً ، وذلك الواحد هو الحق ، والعبد مؤلف من طرفي حقٍّ وباطلٍ ، فإذا أسقط[٢] الباطل وهو اللازم بالأوهام لم يبق إلا الحق ، وارتكبوا في الشريعة ومتشابهها مرتكبات غريبة ، وينفرد عندهم[٣] بسر الوجود المكتوم من بلغ درجة العارفين ، وهم أهل[٤] التحقيق ، والتحقيق يطلقونه على هذا العلم ، وأن الأنبياء والعلماء والأولياء علموه وخصّوا من رأوه أهلاً له .

والدرجات عندهم أولها : الصوفي للتجريد ، ثم المحقق لمعرفة الوجود[٥] ، ثم المقرّب ، وهو الذي اجتزأ من عين عينه على الأثر ، وزعم[٦] عبد الحق في بعض كتبه أن هذا الرأي محدث بقوله : « وهذا الذي نريد أن ننبه عليه هو مما لم يسمع في عصره ، ولا قيل إنه ظهر في دهره ، ولا مما دون ، أو علم في فلاة ولا مصر » ، ثم قال ، وأكذب[٧] بقوله : « وهو مأخوذ من كلام الله ورسوله » ، ثم نشأ عن الخوض في علم المكاشفة عند أهل هذا الرأي من الكمال الأسمائي الذي كانت مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب ، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء والأكوان من لدن الإبداع الأول ، تنتقل في أطواره ، وتعرب عن أسراره ، فحدث لذلك علم أسرار الحروف ، وهو علم لا يوقف على موضوعه ، ولا تحاط بالعدد مسائله ، تعددت فيه تواليف البوني ، وابن العربي ، وغيرهما ممن اتبع آثارهما . وحاصله عندهم تصرف النفوس

---

(١) في د : « والآلام » .

(٢) في د : « سقط » .

(٣) في د : « عندهم وينفرد بسر الوجود » .

(٤) في د : « أصحاب » .

(٥) في ط : « الوحدة » .

(٦) الكلام منقول بتصرف من روضة التعريف : ص ٦٠٨ .

(٧) في د : « وكذّب » .

الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى ، والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان ، ثم اختلفوا في سرِّ التَّصرف الذي في الحرف بم هو ؟ فمنهم من جعله المزاج الذي فيه[1] ، وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر ، واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعالاً بذلك الصنف ، فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير إلى نارية وهوائية ، ومائية وترابية ، على حسب تنوع العناصر ، فالألف للنار ، والباء للهواء ، والجيم للماء ، والدال للتراب ، ثم كذلك على التوالي من الحروف والعناصر[2-] إلى أن تبعد[-2] فيعين /٢٦/ لعنصر النار حروف سبعة[3] : الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال . ويعين[4] لعنصر الهواء سبعة أيضاً : الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء . ويعين[4] لعنصر الماء سبعة أيضاً : الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين . ويعين لعنصر التراب سبعة أيضاً : الدال والحاء واللام والعين والراء والخاء والشين[5] .

---

(١) في د : « المزاج الذي هو فيه » .

(٢-٢) ما بينهما ساقط من د .

(٣) في د : « فتعين لعنصر النار سبعة » .

(٤) في د : « وتعين » .

(٥) قال الأستاذ الطنجي : « هذه النتيجة تنبني على ما يذهب إليه أهل المغرب في ترتيب حروف (أبجد هوز .. إلخ) وفي القيم الرقمية التي تأخذها حسب هذا الترتيب ، أما على مذهب أهل المشرق في ترتيب (أبجد) فإن نتيجة هذا التقسيم تكون كما تراها في الجدول (أدناه) ، وقد دخل على نص مقدمته في الفصول التي استخدم ابن خلدون فيها حروف (أبجد) خلل كبير كان مصدره هذا الاختلاف » . انتهى كلام الأستاذ الطنجي .

أما ترتيب (أبجد) عند المغاربة فهو : (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ل ، م ، ن ، ص ، ع ، ف ، ض ، ق ، ر ، س ، ت ، ث ، خ ، ذ ، ظ ، غ ، ش) .

أما ترتيب المشارقة فهو : (أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ، ك ، ل ، م ، ن ، س ، ع ، ف ، ص ، ق ، ر ، ش ، ت ، ث ، خ ، ذ ، ض ، ظ ، غ) ، وبذلك يكون :

نارية ا هـ ط م ف ش ذ =

نارية	هوائية	مائية	ترابية
أ	ب	جـ	د
هـ	و	ز	ح
ط	ي	ك	ل
م	ن	ص	ع
ف	ض	ق	ر
س	ت	ث	خ
ذ	ظ	غ	ش

فالحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ، ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها ، إمَّا حِسّاً أو حكماً كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب والقتل والفتك ، والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارّة من حميات وغيرها ، وتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حسّاً أو حكماً ، كتضعيف قوة القمر وأمثال ذلك .

ومنهم من جعل سرّ التصرُّف الذي في الحرف للنسبة العددية ، فإن حروف (أبجد) دالة على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً ، فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً[1] ، كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين [كُلٌّ][2] في مرتبته ، فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد ، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات ، والراء على اثنين في مرتبة المئين ، كالذي بينها أيضاً وبين الدال والميم

=

هوائية	ب	و	ي	ن	ص	ت	ض
مائية	ج	ز	ك	س	ق	ث	ظ
ترابية	د	ح	ل	ع	ر	خ	غ

(١) كلمة « أيضاً » ليست في د .

(٢) ما بين معقوفتين زيادة من ط .

والتاء ، لدلالتها كلها[١] على الأربعة ، وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف ، وخرج للأسماء أوفاق كما للأعداد ، يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوفاق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل وعدد الحروف وامتزاج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب العددي بينها .

فأما سر هذا التناسب الذي بين الحروف وأمزجة الطبائع ، أو بين الحروف والأعداد فأمر عسير على الفهم ، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات ، وإنما مستنده عندهم الذوق والكشف . قال البوني : ولا تظنّن أن سرَّ الحروف مما يُتوصل إليه بالقياس العقلي ، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي .

وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها ، وتأثير[٢] الأكوان عن ذلك ، فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً ، وقد يُظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات[٣] واحد ، وليس كذلك ، فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية ، من جوهر القهر يفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية ، وبخورات جالبة[٤] لروحانية ذلك الطلسم ، مشدودة فيه بالهمة ، فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية[٥] .

وهو عندهم كالخميرة المركبة من أرضية وهوائية ومائية ونارية ، حاصلة في جملتها ، تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها ، وتقلبه إلى صورتها ، وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية [٦-]يحيلها إلى نفسه كما تحيل الخميرة ما حصلت فيه إلى نفسها[-٦] ، ولذلك

---

(١) كلمة « كلها » ليست في د .

(٢) في د : « وتأثر » .

(٣) الطلسم : يقول النابلسي : هي كلمة أعجمية يستعملها العرب بمعنى الخفاء والكتم . ويقول ابن عربي : إن الإنسان بنفسه هو الطلسم الأعظم والقربان الأكرم ، الجامع لخصائص العالم ، فهو قربة إلى مكوكب الكواكب سبحانه ، ومن أجل هذا الطلسم خدمته الكواكب . (المعجم الصوفي : ص ٧٣٥) .

(٤) في د : « جالبات » .

(٥) في د : « الطبائع العلوية بالسفلية » .

(٦-٦) ما بينهما في د : « خميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة » .

يقولون : موضوع الكيمياء جسد في جسد ، لأن أجزاء[(١)] الأكسير [(٢-]الذي هو موضوع العمل والصنعة كلها جسدانية[-٢)] ، ويقولون : موضوع الطلسم روح في جسد ، لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية ، والطبائع السفلية جسدانية[(٣)] ، والطبائع العلوية روحانية .

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء ، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كلها[(٤)] إنما هو للنفس الإنسانية [(٥-]والهمم البشرية ، لأن النفس الإنسانية[-٥)] محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات .

إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استنزال روحانية الأفلاك ، وربطها بالصور أو بالنسب العددية ، حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة فيما حصلت فيه .

وتصرف أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني ، فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية ، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها ، لأن مدده /٢٧/ أعلى منها ، ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك ، وأهون بها وجهة ورياضة ، بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى ، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب ، وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله بهم .

---

(١) كلمة « أجزاء » ليست في د .

(٢-٢) ما بينهما ساقط من د .

(٣) في ح : « جسد » وأثبتنا ما في د .

(٤) في د : « كله » .

(٥-٥) ما بينهما ساقط من د .

فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار[١] الله وحقائق الملكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف ، واقتصر على مناسبات[٢] الأسماء وطبائع الحروف والكلمات ، وتصرف بها من هذه الحيثية ـ وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور ـ كان إذن لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات أوثق منه ، لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مترتبة .

وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات ، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه ، فيكون حاله أضعف رتبةً ، وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذكره من الأسماء[٣] الحسنى أو ما يرسم من أوفاقها[٤] ، بل ولسائر الأسماء أوقاتاً تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم ، كما فعله البوني[٥] في (الأنماط)[٦] .

وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية ، وهي برزخية الكمال الأسمائي ، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة ، وإثبات هذه المناسبة عندهم بحكم المشاهدة التي تقدم الكلام فيها ، فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة ، وتلقى تلك المناسبة تقليداً كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم ، بل هو أوثق منه كما قلناه[٧] .

---

(١) في د : « أسرار » .

(٢) في د : « مناسبة » .

(٣) في د : « لذكر الأسماء » .

(٤) في د : « أوقاتها » .

(٥) في روضة التعريف لابن الخطيب ص ٣٢٧ بحث ذلك في نقله ابن خلدون بتصرف .

(٦) يشير ابن الخطيب وابن خلدون إلى كتاب البوني الذي هو بعنوان (اللمعة النورانية في ترتيب الأوراد الربانية) ، وقد جاء الكتاب في عشرة أنماط أي أقسام .

(٧) في د : « كما قدمناه » .

وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب . إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من أهل المشاهدة ، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعاني[1] ، والحروف والأسماء من جملة ما فيه ، فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ، ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي[2] في (غايته)[3] .

والظاهر من حال البوني في (أنماطه) أنه اعتبر طريقتهم ، فإن تلك (الأنماط) إذا تصفحتها وتصفحت الدعوات [التي][4] تضمنتها ؛ وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ، ثم وقفت على (الغاية) وتصفحت قيامات الكواكب [السبعة][5] التي فيها ، شهد لك ذلك ، إما بأنه من مادتها ، أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله ، ﴿ وما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] .

وليس كل ما حرمه الشرع من العلوم بمنكر الثبوت ، فقد ثبت أن السحر حق مع خطره ، لكن حسبنا من العلم ما علَّمَنَاهُ الشرع[6] .

---

(١) في د : « ومعادن » .

(٢) أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي ، من أهل قرطبة ، إمام الرياضيين بالأندلس في وقته ، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم ، وكانت له عناية بإرصاد الكواكب ، وله كتاب في تمام علم العدد (المعاملات في الحساب) ، وله (الرسالة الجامعة) ، (غاية الحكيم) ، (الأحجار) . توفي بمجريط سنة ٣٩٨ هـ ، وقيل سنة ٣٩٥ هـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٦٢/٢ ، مقدمة الرسالة الجامعة ، الأعلام : ١٢١/٨ ، معجم المؤلفين : ٨٥٣/٣) .

(٣) أي كتاب (غاية الحكيم) .

(٤) ما بين معقوفتين زيادة من ط .

(٥) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٦) كلمة « الشرع » ليست في د .

ثم إن تواليف هؤلاء المتصوفة الخائضين في علم المكاشفة تعددت ، وطال فيها الخوض وتعذر البيان ، وعكف كثير من أهل البطالة على تصفحها ، ووقف بهم العجز والكسل - الذي تعوذ منه النبي ﷺ - عندها[(١)] ، يظنون أن السعادة بمعرفة أسرار الملكوت في طيِّ صفحاتها ، وهيهات لذلك .

وما أوقع في هذا الخباط كله إلا الخوض في علوم المكاشفة الذي حقه عند أئمة القوم أن لا يخاض فيه ، وأنه سرُّ الله ، فلا يفشيه عارف .

ولقد قتل الحسين[(٢)] بن منصور [الحلاج][(٣)] بفتوى أهل الشريعة[(٤)] وأهل الحقيقة ، وقصارى اعتذار من يحسن الظن به منهم أنه سكر فباح بالسر فوجبت عقوبته ، وإلاَّ فالأغلب في حقه التكفير[(٥)] .

(١) الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » ، (رواه البخاري : ١٥١/١١ ، ومسلم رقم ٥٨٩ ، والترمذي رقم ٣٤٨٩ ، والنسائي : ١٠٥/٤ ، جامع الأصول : ٣٥١/٤ ، ٣٧١) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج ؛ أبو مغيث ، أصله من بيضاء فارس ، ونشأ بواسط العراق ، وانتقل إلى البصرة وحج ، ودخل بغداد وعاد إلى تستر ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ ، فاتبع بعض الناس طريقته ، وصف بأنه كان يأكل يسيراً ويصلي كثيراً ويصوم الدهر ، وقد اتُّهم باعتقاده بوحدة الوجود ، والحلول والاتحاد ، فأمر الخليفة المقتدر العباسي بالقبض عليه ، فسجن وعذب وضرب ، وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث ، وقطعت أطرافه الأربعة ثم خرّ رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة ، ونصب الرأس على جسر بغداد سنة ٣٠٩ هـ ، له مؤلفات كثيرة أوردها ابن النديم في ستة وأربعين عنواناً منها : (الطواسين) و (علم البقاء والفناء) و (الكبريت الأحمر) و (الوجود الأول) و (الوجود الثاني) و (اليقين) و (التوحيد) . وألفت فيه مؤلفات كثيرة منها (الحلاج شهيد التصوف الإسلامي) لطه عبد الباقي سرور ، وصنف لويس ماسينيون كتاباً في الحلاج وطريقته ومذهبه ، وكذلك وضع غولد زيهر رسالة في الحلاج وأخباره وتعاليمه . وانظر طبقات الصوفية للسلمي ٣٠٧-٣١١ ، وفيات الأعيان : ١٨٣/١ ، تاريخ بغداد : ١١٢/٨-١٤١ .

(٣) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٤) أهل الشريعة وأهل الحقيقة : قال الهيتمي في فتاويه الحديثية : الحقيقة : مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة ، والشريعة هي الأصل . (الفتاوى : ص ٣١١) .

(٥) قال الهيتمي في فتاواه ص ٣٠٠ : ما معنى قول الحلاج أنا الحق . فأجاب : للعارفين رضي الله عنهم =

ولقد نقل عنه صاحب كتاب (الغاية) عملاً من الأعمال السحرية لا يتعمدها مسلم ، فكيف عارف ، فإذن الخوض في علم المكاشفة والكلف /٢٨/ بموضوعاتها ومقالات أهلها ضرب من البطالة ، لأن الطالب لذلك إن كانت نفسه مرتقية بهمتها إلى المعرفة ، [١-]متطلعة إلى فهم أسرار الملكوت فعليه بالمجاهدة والسلوك ، فهما يفضيان به إلى ذلك ، وليس له سبيل إلى[-١] المعرفة والعلم بأحوال الملكوت ، من الألفاظ ، والاصطلاحات ، ومسطرات[٢] الدواوين ، إذ لا دلالة للألفاظ عليها[٣] ، لعدم الوضع ، وعدم المناسبة للتجوز ، كما مرَّ . وإن كانت نفسه متكاسلة عن ذلك ، منحطة إلى حضيض التقليد ، فماله وكلمات يؤديه الخوض فيها إلى علم أشبه بعلوم الفلاسفة ، بل علوم الفلاسفة ترجع إلى تخييل برهان بنظم أقيسة ، وترتيب أدلة ، بخلاف أقوال هؤلاء ، فإن البرهان الصناعي مفقود ، والوجدان مخصوص ، فلم يبق إلا القبول بمجرد حسن الظن بهم

= ونفعنا بعلومهم وأسرارهم ولحظاتهم أوقات يغلب عليهم فيها شهود الحق تعالى بعين العلم والبصيرة ، فإذا تمَّ لهم ذلك ذهلوا عن نفوسهم ولم يبق لهم شعور بغير الحق تعالى ، فحينئذٍ يتكلمون على لسان ذلك القرب .. فقوله : أنا الحق معناه قد تجلى عليَّ الحق بشهوده حتى صرت كأني هو ، وهذا كله إن صدر عنهم في حال الصحو ، وأما إن صدر عنهم ذلك في حال الغيبة فهي من الشطحات التي لا حكم لها .

وقال أيضاً ص ٢١٥ : وقد بسط الغزالي رحمه الله أحواله فأجاب عن كلماته ووقائعه بما ينزه ساحته عن حلول أو غيره من الاعتقادات الباطلة وكلماته الدالة على معرفته .

وقال السلمي في طبقات الصوفية ص ٣٨ : ومنهم الحلاج وهو الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، وهو من أهل بيضاء فارس ، نشأ بواسط والعراق ، وصحب الجنيد ، وأبا الحسين النوري ، وعمر المكي ، والفوطي وغيرهم ، والمشايخ في أمره مختلفون ردّه أكثر المشايخ ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف ، وقبِله من جلتهم أبو العباس بن عطاء ، وأبو عبد الله محمد بن خفيف ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي ، وأثنوا عليه ، وصححوا له حاله ، وحكوا عنه كلامه ، وجعلوه أحد المحققين ، حتى قال محمد بن خفيف : الحسين بن منصور عالم رباني . قتل يوم الثلاثاء ببغداد بباب الطاق لستٍ بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة .

(١-١) ما بينهما ليس في د .

(٢) في ح : «ومستطرات» .

(٣) ما بينهما ليس في د .

[لو أبانت الألفاظ عن مقاصدهم][1] ، وكيف يحسن الظن بهم ، وكثير من ظاهر أقوالهم مخالف لظاهر الشريعة ، ولا يحسن ظن بمن خالف الشرع في قول ولا عمل « ذكر لأبي يزيد رجل ، وصف له بالعرفان ؛ وطلب زيارته ، فلما أشرف عليه رآه في المسجد وهو[2] يتنخم ، فرجع عن زيارته وقال : من لا يؤمن على أدب من آداب الشريعة ، كيف يؤمن على أسرار الله »[3] .

فإذا كان الشرع نهى[4] هؤلاء عن الخوض في علوم المكاشفة ، وهم لا ينتهون ، فكيف يوثق بهم في أسرار الله تعالى ، وتتلقى منهم بحسن القبول ؟

هذا لو خلصت عبارتهم من الإبهام ، فكيف وهي متلبسة ببدعة أو كفر . أعاذنا الله .

فليس هذا الذي سموه تصوفاً بتصوف ، ولا مشروع القصد ، والله أعلم .

---

(١) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٢) كلمة « وهو » ليست في د .

(٣) النص في الرسالة : ٨٠/١ على النحو التالي : قال أبو يزيد : قُم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه ؟!

(٤) في د : « ينهى » .

الكلام في اشتراط الشيخ المعلم[١] في المجاهدة

وفي أي المجاهدات يجب ، وفي أيها يتأكد ، وفي أيها لا يجب ووجه ذلك

اعلم أنه تقرر من جميع ما قدمناه أن التصوف كله راجع إلى مجاهدة وسلوك يفضيان ببلوغ الغاية فيهما إلى كشف ومشاهدة يحصل فيها العلم بالله وصفاته ، وأفعاله وأسرار ملكه ، وسائر ما قدمناه . وتقرر أن هذا العلم الحاصل من المشاهدة والكشف لا ينبغي أن يودع الكتب ، وبيّنّا خطأ المتأخرين من المتصوفة في تسميته تصوُّفاً ، وجعله علماً مدوّناً ، واعتقادهم أنه مستفاد من الدفاتر والكتب ، وإنما هو نور يقذفه الله في القلب المزكى بالمجاهدة ، المحاذى به شطر ، فإذا اطّلع به على سر إلهي ، أو حكمة ربانية ، أو اتضح له منهم من مخاطبات الشرع ، ومتشابه الكتاب والسُّنة ، فلا يعتد به ويقف عنده ، فإن الاعتداد به حجاب قاطع ، بل يستمر على سيره إلى الله ، ولا يخلقه مع ذلك بالإفشاء ، فسرّ الله أحق بالصون .

ثم إنا بيّنا اختلاف المجاهدات[٢] باختلاف البواعث ، وأن الباعث إن كان طلب النجاة فقط فهي مجاهدة التقوى والورع ، وإن كان طلب الفوز بالسعادة والدرجات العلى في الدار الآخرة فهي مجاهدة [٣]الاستقامة ، وإن كان الباعث طلب المعرفة برفع الحجاب والمشاهدة في الحياة الدنيا فهي مجاهدة[٣] الكشف ، وذكرنا أن التصوف يطلق

(١) كلمة « المعلم » ليست في د .

(٢) في د : « المجاهدة » .

(٣-٣) ما بينهما ساقط من د .

على المجاهدات الثلاث ، إلا أنه غلب في الأخيرتين استعماله ، واختص بها علمه عند شيوخ الرسالة ومن اقتفى أثرهم[١] ، وإن علم التصوف هو العلم بشروط هاتين المجاهدتين ، وأحكامها ، وآدابها ، ومصطلحات أهلها . وقد أشار الأستاذ أبو القاسم القشيري إلى المغايرة بين مجاهدة الكشف ومجاهدة الاستقامة بمغايرة البواعث قال : « فالمريد الذي له إيمان بهم إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقاصدهم ، فهو يساهمهم فيما خصوا به من مكاشفات[٢] الغيب ، ولا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة ، وإن كان مريداً[٣] طريقة الاتباع وليس بمستقل بحاله ، ويريد أن يعرج في أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلفه ، وليجر على طريقة هذه الطائفة ، فإنهم أولى به من غيرهم » انتهى كلامه[٤] .

ثم اعلم أن افتقار هذه المجاهدات إلى الشيخ المعلم ، والمربي الناصح ليس على سبيل واحدة ، بل هو في بعضها أكمل وأولى ، وفي بعضها أحق وآكد ، وفي بعضها أوجب ، حتى إنه لا يمكن بدونه ، فلنفصل ذلك ونبينه :

أما مجاهدة /٢٩/ التقوى التي هي بالورع فلا يضطر فيها إلى الشيخ ، إنما يكفي فيها معرفة أحكام الله وحدوده ، أُخذت من كتاب ، أو لُقنت من معلم ، أو تدورست من أستاذ ، وذلك لما بيَّنا أن هذه المجاهدة فرض عين على المكلف ، فكيف يضيع فرض العين الواجب على الفور ، ويهمل حق التكليف ، لانتظار الشيخ الذي لا مزيد عنده على ما أودعه العلماء بطون كتبهم ، وصفحات تواليفهم ، ناقلين ذلك عن الكتاب والسُّنة ، معلنين بالمآخذ والأصول .

---

(١) في د : « آثارهم » .

(٢) في د : « مكاشفة » .

(٣) في د : « يريد » .

(٤) النص في الرسالة : ٧٣٤/٢ ، وقبله : فإذا كان أصول هذه الطائفة أصح الأصول ، ومشايخهم أكبر الناس ، وعلماؤهم أعلم الناس ، فالمزيد الذي إيمان بهم ...

نعم يكون لصاحب هذه المجاهدة كمال بالاقتداء بشيخ معلم ، يبين له الحق في صور الأفعال لقناً بالعيان ، وهو من شروط الكمال في كل تعليم ، لأن مستنده الحسن ، فإن العلم بأحكام الله وحدوده علم بكيفية عمل ، والعلم بكيفية العمل تارةً يستند إلى النقل والخبر ، وتارةً يستند إلى الحس والمعاينة ، واستناده إلى الحس أكمل .

ولهذا ثبت في الصحيح في تلقين النبي ﷺ كيفية الصلاة : « أن جبريل نزل فصلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى ، فصلى رسول الله ﷺ ، ثم صلى فصلى .. خمساً »[(١)] ، فلقنها عياناً استيفاء لرتب[(٢)] الكمال حيث تعينت .

وقد كان - ﷺ - إذا وفد العرب وطلبوا تعلم[(٣)] الشرائع ، لم يقتصر بهم في الأكثر على الإخبار ، بل كان يبعث كبار الصحابة لمباشرة تعليمهم بمعاينة صور الأفعال ليقتفى مثالها .

وإن وجد الاقتصار على[(٤)] الإخبار كما في حديث وفد ربيعة : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع » ، وأنه قال آخراً : « احفظوهن وبلغوهن من وراءكم »[(٥)] ، إلا أنه قليل ، وبعث الصحابة للتعليم كان أكثر .

---

(١) رواه البخاري : ٢٢/٢ في مواقيت الصلاة من حديث أبي مسعود الأنصاري ، ومسلم رقم ٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، والموطأ : ٨/١-٩ ، وأبو داود رقم ٤٠٤-٤٠٦ في الصلاة ، والنسائي : ٢٥٢/١ ، وانظر جامع الأصول : ٢٢٩/٥ .

(٢) في د : « استيعاباً لرتبة » .

(٣) في د : « تعليم » .

(٤) في د : « وإن وجد اقتصار بهم على » .

(٥) الحديث رواه أبو سعيد الخدري قال : « إن ناساً من عبد القيس قدموا على رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا نبي الله ، إنا حيٌّ من ربيعة ، وبيننا وبينك كفار مضر ، ولا نقدر عليك إلا في الأشهر الحرم ، فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا ، وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به ، فقال رسول الله ﷺ : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان وأعطوا الخمس من الغنائم . وأنهاكم عن أربع : عن الدباء ، والحنتم ، والمزفت ، والنقير ، قالوا : يا نبي الله ، =

وكذلك نجد تعليم فرائض العين لأبناء المسلمين ، كالصلاة ، والوضوء ، بمعاينة الفعل أبلغ من تعليمها بالإبانة والقول ، حتى إن مناسك الحج ينتصب لتعليمها في الموسم أيام أداء الفريضة خلق كثير ممن مرن على تعلمها وتعليمها ، فتجد الفقيه المستبحر في حفظ فروع كتاب الحج يسكن إليهم في تعلم[1] أداء فرضه أكثر من سكونه إلى محفوظه ، فيأتم بهم ، ويأخذ أعيان المناسك عنهم ، وما ذلك كله إلا لأن وثوق النفس بالحس أبلغ من وثوقها بالخبر ، فهو شرط كمال ، لا شرط صحة ووجوب .

وأما مجاهدة الاستقامة التي هي التخلق بالقرآن ، وبخلق الأنبياء ، فمحتاجة إلى الشيخ[2] المعلم لعسر الاطِّلاع على خلق النفس ، وخفاء تلونات القلب ، وصعوبة علاجها ومعاناتها ، مع أنها ليست بفرض عين في حق المكلفين ، فإذن يتأكد طلب الشيخ في حق صاحب هذه المجاهدة ، والاقتداء فيها بسالكها المطلع على عللها ، ولا ينتهي ذلك إلى حد الوجوب والاضطرار ، إذ مأخذها كلها من الكتاب والسُّنة ، والاصطلاحات المتعارفة ، والخفي منها في مجاري التعلم[3] والسلوك ، وإن كان كثيراً ، إلا أنه غير خارج عن الاختيار والمعارف الكسبية ، فهو مع الاعتصام بالسُّنة آمن[4] من مخاوفها ، مستدرك في كل وقت فائتها ، مميز بالتخاطب والتفاوض وتصفح أقوال العلماء أعيانها وأحكامها .

= ما علمك بالنقير ؟ قال : بلى ، جذع تنقرونه ، فتلقون فيه من القطيعاء ، أو قال : من التمر ، ثم تصبون فيه من الماء ، حتى إذا سكن غليانه شربتموه ، حتى إن أحدكم ، أو أحدهم ، ليضرب ابن عمه بالسيف ، قال : وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك ، قال : وكنت أخبأها حياء من رسول الله ﷺ ، فقلت : ففيم نشرب يا رسول الله ؟ قال : في أسقية الأدَم التي يلاث على أفواهها ، قالوا : يا رسول الله ، إن أرضنا كثيرة الجرذان ، ولا تبقي بها أسقية الأدم ، فقال النبي ﷺ : وإن أكلتها الجرذان ، وإن أكلتها الجرذان ، وإن أكلتها الجرذان » . (الحديث أخرجه مسلم رقم ١٨ في الإيمان ، والنَّسائي : ٣٠٦/٨ في الأشربة) .

(١) في د : « تعليم » .

(٢) في ح : « فمحتاجة بعض الشيء إلى الشيخ » .

(٣) في د : « التعليم » .

(٤) في د : « مأمون » .

وأما مجاهدة الكشف والمشاهدة التي مطلوبها رفع الحجاب ، والاطّلاع على العالم الروحاني ، وملكوت السموات والأرض ، فإنها مفتقرة إلى المعلم المربي ، وهو الذي يعبر عنه بالشيخ ، افتقار وجوب واضطرار لا يسع غيره ، ولا يمكن في الغالب حصولها دونه لوجوه :

الأول : أن هذه المجاهدة ، وإن كان أصلها من الكتاب والسُّنة ، إلا أنها من التفاريع المحدثة ، والرهبانية المبتدعة كما قدمناه ، وكأن طريقة الشرع[1] طريق عام للمكلفين في حصول النجاة أو السعادة بعد الموت ، وهذه المجاهدة طريق خاص ، لأهل الهمم في تحصيل بذر السعادة الكبرى قبل الموت ، بنوع من الكشف الحاصل بالموت ، فكأنها بمنزلة شريعة خاصة ، لها أحكام وآداب لا يقلد فيها غير من شرعها وسنّ طريقها[2] ، وكلهم مطبقون على اشتراط الشيخ في هذا الطريق ، محذرون من الاستقلال بسلوكه ، والتّفرد في بيدائه ، ويوجبون على السالك إلقاء زمامه بيد شيخ قد سلك الطريق ، وأفضى به إلى المقصود من[3] المشاهدة ، وعرف غوائل السلوك ، ومكامن العلل ، ومواضع الأخطار ، /٣٠/ وقواطع الأعداء برأي العيان لا بشاهد الخبر ، فيكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، والأعمى المار على شاطئ البحر في يد قائده ، فكيف نعدل عن شرط القوم في طريق لم نتلقه إلاّ منهم ، ولا عرفنا مشروعيته ولا كيفيته[4] إلاّ عنهم .

الثاني : أن صاحب هذه المجاهدة هو متعرض بطلبه ـ كما قدمنا ـ لحصول صفتين : إحداهما من كسبه واختياره [وهو التصفية عن الخلق الذميم ، والتزكية بالخلق

(١) في د : « طريقة الشريعة » .
(٢) في د : « سنها وشرع » .
(٣) في د : « في المشاهدة » .
(٤) كلمتا : « ولا كيفيته » ليست في د .

الحميد][1] ، والأخرى خارجة عن قدرته واختياره ، وليست من كسبه ، وهو ما يعرض للسالك من الأحوال قبل الكشف ومعه وبعده .

وقال الأستاذ أبو القاسم : « إن الذي خصَّ به العبد أفعال وأخلاق وأحوال ؛ فالأفعال تصرفاته باختياره ، والأخلاق جبلة فيه ، ولكن تتغير بمعالجتها على مستمر العادة ، والأحوال ترد على وجه الابتداء ، وصفاؤها بقدر زكاء الأعمال » . انتهى كلامه .

ثم إن الأحوال الخارجة عن الاختيار هي ثمرات الصفات المكتسبة التي هي الأعمال ، وناشئة عنها ، وبعضها هي مترتبة على بعض حتى تنتهي إلى المشاهدة ، ثم إنها خفية وغير متناهية ، وبقدر ما يتطرق لواحد منها من الفساد ، يتطرق لما بعده ، لأن كل حال منها تنبني على ما قبلها من الأحوال . ومعنى الفساد في الأحوال حصول أضدادها ، وفي ذلك هلاك السالك ـ أعاذنا الله ـ وليس مما يمكن تلافيه أو إصلاحه ، إذ هو خارج عن الاختيار ، فإذا حصل وترتبت عليه الأحوال التي بعده فاسدةً أيضاً لفساده ، بعد أمد الفساد ، وتضاعف قدره واتسع نطاقه ، ولم يمكن في الاختيار إزالته إلاّ باستئناف سلوك آخر يراجع به الصفات التي من كسبه ، ويتعرض بها لرحمة الله في محو ما عقد في القلب من فاسد الأحوال الناشئة ، وقد يتعذر استئناف السلوك بفوات المحل الذي هو القلب ، بما عساه يكون عقد فيه من الأحوال الفاسدة الموجبة للزندقة والإباحة ورفض الشريعة ، وما ينشأ عن ذلك من الفتور والكسل ، فيفقد الداعي والباعث ؛ فتتعذر المداواة ، ويفوت التلافي ويقول : ﴿ يـالَيْتَنـا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ ﴾ [الأنعام : ٢٧/٦] ، وقد فات الليت .

وإذا كان السالك نصب عين الشيخ ، وبمرأى منه ، وتمحيص لأعماله وسلوكه ، والشيخ قد سلك وعلم فاسد الأحوال من صالحها ، وعما ينشأ صالحها وفاسدها ، وكيف

---

(١) ما بين معقوفتين زيادة من د .

ينشأ ، وما يكون منها[١] واصلاً ، وما يكون قاطعاً ، وكيف تترتب الأحوال غير[٢] المقدورة على الأعمال المقدورة ، ومقدار[٣] الزكاء في الأعمال التي يكون عنه صفاء الأحوال ما هو ، وقد خبر ذلك كله بالابتلاء والتجربة والمران ، ولم يقلد فيه الكتب والأخبار ـ استقام السلوك ، وأمنت المخاوف ، وذهب الغرر .

ومثال السالك في محاولة ذلك مثل الصبَّاغ يحاول صبغة من حمرة ، أو صفرة ، أو خضرة ؛ فليس تنزيل الصبغ[٤] من قدرته ولا اختياره ، وإنما الذي في قدرته[٥] غمس الثوب في الماء الممزوج بأصباغ مخصوصة ، أو معدني ، أو نبات ، على نسب ومقادير مقدرة ، فيستعد الثوب بذلك لحلول الصبغة التي يقترحها ، فلا بد من المعلم العارف بمقادير الأجزاء ، وكمية بعضها من بعض ، ومدة المزاج بالطبخ أو التخمير ، وكيفية الغمس وزمنه ، ويرى ذلك عياناً لمتعلمه ، وإلا فربما أداه إلى حلول صبغة أخرى غير التي كانت في اقتراحه ، ويمتنع عليه استئناف صبغ آخر لفوات المحل باستحكام الصبغة الأولى المانعة من ذلك .

فكذلك السالك ، إذ هو يروم تلون القلب بصبغة خاصة من المعرفة المؤذنة بالسعادة ، فإن استحكمت صبغة أخرى فات المحل عن استدراك الإصلاح ، والشيخ المربي هو الذي يريه كيفية استنزال تلك الصبغة ، وأجزاءها ، ومقاديرها ، ونسبها ، وزمنها ، فلا بدَّ منه ، ولا تُتَصور دونه ؛ إذ لا يُتَصور حُلولُ الصبغة جُزافاً ، ولا يقدم عليها بالقياس ، وإذا روعي ذلك في الثوب الرفيع ضنانة به على الخطر ، فكيف بالقلب[٦] مع خطر الشقاء السرمد ـ أعاذنا الله ـ .

---

(١) في د : « فيها » .

(٢) كلمة « غير » سقطت من ط .

(٣) في د : « ومقادير » .

(٤) في د : « الصبغة » .

(٥) في د : « في كسبه » .

(٦) في د : « فكيف في القلب » .

الثالث : أن حقيقة هذا السلوك أنه موت صناعي ، فإنه ـ كما قدمنا ـ إخماد القوى البشرية كلها ، حتى يكون /٣١/ السالك ميت البدن حي الروح ، فكأن السالك يحاول تحصيل موت صناعي ، يماثل الموت الطبيعي ليحصل له المطلع الذي يحصل بالموت الطبيعي ، أو أقرب الحالات منه ، وأشبهها به إن لم يكن بعينه ، حرصاً على حصول المطلع قبل فوات البدن ؛ وفي تحصيل هذا الموت تقع الرياضة ، وقد ذكرنا مستندهم في هذه الرياضة ، وهو قوله ﷺ : « موتوا قبل أن تموتوا »[1] . وكلّ تعليم صناعي يساوق به[2] أمر طبيعي ، فلا يستقل بدَرْكه إنسان ، ولا بدَّ في تعلمه من المعلم المرشد إلى خفيات أسبابه ، لخفاء أسباب الطبيعة ، وتعذر الاطلاع عليها في الأكثر ، فإذا كان معلم قد حذق في هذا التعليم حصلت الإفادة وأنتجت الرياضة ، وإلاَّ فلا ، شأن الصنائع كلها .

الرابع : وهو أبين دلالة في هذا العرض . أن المعاني التي يتناولها[3] هذا السلوك ويقع فيها التفاهم نوعان :

نوع من قبيل المتعارف عند الأفكار من المدارك المحسوسة أو المعقولة ، فتضبطه القوانين ، وتستقل بإفادته الكتب والعبارات ، وهو صورة السلوك المحسوسة ؛ من قطع العلائق عن النفس ، والتزام الخلوة والذكر على الهيئة المخصوصة ، والاقتصار على الفروض والرواتب بعد تحصيل مجاهدة التقوى ، ومجاهدة الاستقامة .

ونوع آخر ليس من قبيل المتعارف عند الأذهان ولا في التصورات ، وليس من مدارك الحس والعقل والعلوم الكسبية ، بل هي أمور ذوقية ، وجدانية ، يجدها الإنسان في نفسه ، ولا يقدر أن يصورها لغيره إلا بضرب مثال ، أو تجوز بعيد ،

(١) قال في كشف الخفا للعجلوني ٣٨٤/٢ : قال الحافظ ابن حجر : هو غير ثابت ، وقال القاري : هو من كلام الصوفية ، والمعنى موتوا اختياراً بترك الشهوات ، قبل أن تموتوا اضطراراً بالموت الحقيقي .
وكذلك ورد تخريجه في المقاصد الحسنة : ص ٤٣٦ ، والمصنوع : ص ١٩٨ .

(٢) في د : « يسارق به » .

(٣) في د : « التي بنى عليها هذا السلوك » .

فلا يمكن ضبطها بالقوانين العلمية ، ولا بالعبارات[١] الاصطلاحية ، ولا دخولها تحت الأبواب والفصول الصناعية ، وهي مما يعرض للسالك في سلوكه من طوارئ العلل ، والأحوال ، والواردات ، والإلقاءات ، والمواجد [٢-الغريبة الموارد ، البعيدة عن المثل المحسوسة-٢] ، وسائر ما يعتوره منها من ابتداء سلوكه إلى انتهائه وخوضه في بحر المعرفة والتوحيد .

وهذا النوع هو نكتة السلوك وسره ، وحقيقته التي لا يتم شيء منه دونها ، فما لم يتصور السالك هذه المعاني الذوقية[٣] ، ويميز بعضها عن بعض ، ويفرق بين ما يكون منها مشيعاً نحو مطلوبه ، مما يكون عائقاً ، كان عمله مجاناً ، ولم يتم له مطلوب ، لا ابتداء ولا انتهاء ، وليست الكتب مما تفيد ذلك بوجه ، ولا العبارة مما تحصله في الذهن ، فلابد من الشيخ الذي ميَّز بذوقه أعيانها ، وفرَّق بين ضارها ونافعها ، يشير إلى أعيانها إشارة الأبكم إلى أعيان المحسوسات ، ولا يقدر على العبارة عنها ، وهذه الإشارة إلى الأعيان أبلغ من الإفادة بالعبارات ، ولهذا لا تجد هذه الأمور ملخصةً في كتاب ، ولا مقررة في ديوان من بين معاني التصوف ، إلا ما يقع من ذلك إشارة ، أو في حكاية لا تكشف عبارتها عن وجه المقصود .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : « وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم بعضهم مع بعض ، والستر على من باينهم في طريقتهم ، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غِيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف ، أو مجلوبة بضرب تصرف ، بل هي معان أودعها الله في قلوب قوم ، واستخلص بحقائقها أسرار قوم »[٤] . انتهى كلامه [رحمه الله تعالى] .

---

(١) في د : « بالعبارة » .

(٢-٢) ما بينهما ساقط من د .

(٣) كلمة « الذوقية » ليست في د .

(٤) النص في الرسالة : ٢٠٠/١ بتصرف قليل .

الكلام في الفصل بين المتناظرين ، وتعيين الحق من أقوالهما والصحيح من أدلتهما

وإذا فرغنا مما وجب تقديمه بين يدي الكلام على تلك المناظرة ، وحققنا طريق المتصوفة وأنواعها ، وبيّنّا في أيها يفتقر إلى الشيخ ، فلنأت الآن بما وعدنا به من الفصل بين المتناظرين ، فقد انكشف الغطاء عن الفصل بينهما بما قدمناه من هذه المقدمات ، ولننقل كلامهما نصّاً ، ثم نحيل على كل فصل من هذه الفصول المقدمة بين يدي الكلام .

قال مشترطو[1] الشيخ للذين نَفَوا اشتراطه ، وادَّعَوا التعويل على الكتب وشيوخ الفتوى دون شيوخ التجريد :

فقال لهم : « لم اعتمدتم على الكتب ، وتركتم الاعتماد على شيوخ الطريقة ، والقوم إنما اعتمدوا /٣٢/ على الشيوخ وتركوا الكتب ؟ » .

فقالوا : « أصل السلوك إنما هو بالكتاب والسُّنة وما نشأ عنهما ، وها هي بأيدينا مسطورة ، ونقَلَتُها منتصبون لتعليمها ، وشيوخ هذه الطريقة من جملتهم ، فما الذي يمنع من السلوك دونهم ؟ » .

فقال لهم : « إن كان مجرد النقل كافياً في حصول هذا المقصود أو غيره على الجملة[2] فليستوِ ، في جميع العلوم والصنائع من حفظ وصفها ، ولم يعانها ، مع من عاناها بالفعل ، ودخل فيها حالاً واتّصافاً ، لكن هذا لا يكون ، فما توهمتم أنه يحصل بمجرد النقل لا يكون » .

(١) في ح : « مشترط » ، وأثبت ما في د .

(٢) « على الجملة » ليست في د .

قلت : قد تقدم بيان أنواع المجاهدات ، وأن مجاهدة الكشف هي التي يشترط فيها الشيخ المربي لغرابتها[١] ، وعظيم الخطر فيها ، وخروج أحوالها وثمراتها عن كسب السالك وقدرته واختياره ، وأنها طريق خاص مغاير لطريق الشرع العام . وأنت تعلم أنها مُحْدَثَة ، وأنها لم تكن على عهد السلف الأول ، فلم يعلم منهم بيان لكيفية سلوكها من الخلوة والذكر ، ولا إلمام بثمرتها من تجلي الأنوار وكشف الحجاب ، بل ربما يباين الكثير من كلماتها وأحكامها - في الظاهر - لمقتضى[٢] الشرع ، لولا حسن التأويل من أهلها ، إنما هي طريق عثر عليها أولياء الله وخاصته في انفرادهم ، وقطع العلائق عن قلوبهم ، فبيَّنوا كيفية سلوكها ، وأوضحوا معارجها ، حرصاً على إيصال الخير والسعادة لمن رقته الهمة إليها ، والتمسوا مشروعيتها من الكتاب والسُّنة ، على مضايقة من أهل الفتيا وحملة الشريعة في ذلك ، كما قدمناه .

وأما مجاهدة التقوى فهي جادة الشريعة ، ومضمار النجاة ، كما أن مجاهدة الكشف جادة التصوف ، ومعراج المطلع الذي هو بزر السعادة العظمى والدرجات العلى .

وأما مجاهدة الاستقامة فهي جادة القرآن والنبوءة . وكلا المجاهدتين واضحة المأخذ والبيان من الشرع ، وناقلوها المنتصبون لتعليمها كثير .

فقول النافين : « إن مأخذ التصوف ومنشأه من الكتاب والسُّنة ، وإنها مسطورة بأيدينا ، وناقلوها المنتصبون[٣] لتعليمها ، وإن شيوخ الطريقة من جملتهم » .

إن أرادوا به المجاهدتين اللتين هما جادتان للشريعة والقرآن ، وهي مجاهدة التقوى ، ومجاهدة الاستقامة ، فصحيح ، وليستا بمفتقرتين إلى الشيخ - كما قدمنا ذلك قبل -.

---

(١) في د : « لغربتها » .

(٢) في د : « مقتضى » .

(٣) في د : « وناقلوها والمنتصبون » .

وإن أرادوا به مجاهدة الكشف التي هي جادة التصوف فممنوع .

وإن ادعى أن شيئاً منها مسطور فعلى سبيل الإجمال والخفاء ، لعدم الوضع فيها أو في شيء من معانيها ، إذ هي خارجة عن المتعارف المعهود ، وكل ما يدعيه أهلها من الأحوال والواردات فمن هذا القبيل ، فلابد من العيان المصدق للخبر الرافع للاحتمال الموهم عند تعذر الحقيقة اللفظية بتعذر[1] الوضع ، ولا يوضح ذلك كله ، ويميز المدركات العيانية فيه إلا السالك المجرب ، مع ما فيه من الغرر الذي لا يؤمن عند التفرد وتقليد الخبر ، كما قدمناه .

وقول النافين : « إن شيوخ الطريقة من جملتهم » ، مردود بأن شيوخ الطريقة شيوخ تربية وارتياض ودلالة على أحوال معاينة خارجة عن الاختيار ، ليست من قبيل المحسوسات ، ولا العلوم المتعارفة ، وشيوخ الفتيا وحملة الشريعة شيوخ نقل وإبانة أخبار عن كيفية عمل داخل تحت القدرة .

وكثير بين المقامين ، اللهم إلا أن يكونوا[2] من جملتهم في وجوب الحق لهم ، وتعظيمهم واتباع هديهم ، فصحيح .

(١) في د : « لتعذر » .

(٢) في د : « يكون » .

وفي قصة عمر مع أويس[1] ، وشيبان الراعي[2] مع الشافعي[3] ،

(١) أويس القرني : هو القدوة الزاهد من سادات التابعين في زمانه ، أحد النُسّاك العبّاد المقدمين ، أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القَرني المُرادي اليماني ، سكن القفار والرمال ، وأدرك حياة النّبي ﷺ ولم يره ، وفد على عمر وروى قليلاً عنه وعن علي .
عن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس ، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مراد ثم من قَرَن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها برٌّ ، لوأقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لي ، قال : فاستغفر له .
ويرجح الكثيرون أنه شهد وقعة صفين مع علي رضي الله عنه وأنه قتل فيها . (ترجمته في طبقات ابن سعد : ١١١/٦ ، حلية الأولياء : ٧٩/٢ ، وفيه أنه مات في غزوة أذربيجان أيام عمر ، رضي الله عنه ، سير أعلام النبلاء : ١٩/٤ ، الأعلام : ٣٢/٢) .

(٢) شيبان الراعي : العبد الصالح الزاهد القانت لله . قال الصلاح الصفدي : توفي في حدود السبعين ومائة ، وقال أبو نعيم : المنيب الواعي شيبان أبو محمد الراعي ، كان في العبادة فائقاً ، وبالتوكل على ربّه عزّ وجلّ واثقاً . قال : كان شيبان الراعي إذا أجنب وليس عنده ماء دعا ربه فجاءت سحابة فأظلت فاغتسل ، وكان يذهب إلى الجمعة فيخط على غنمه فيجيء فيجدها على حالتها لم تتحرك . قال الزبيدي في شرح الإحياء : مات بمصر ودفن بقرب المزني . وفي المقاصد الحسنة للسخاوي : أنكر الإمام ابن تيمية اجتماع الإمام الشافعي مع شيبان الراعي فقال مانصه : مااشتهر بأن الشافعي وأحمد اجتمعا بشيبان الراعي وسألاه فباطل باتفاق أهل المعرفة لأنهما لم يدركاه . ثم قال الزبيدي : وقد أثبت لقيهما إياه غير واحد من العلماء ، ففي الفتوحات للشيخ الأكبر قدس سره لما سأله أحمد والشافعي عن زكاة الغنم ؟ قال : على مذهبنا أو مذهبكم ؟ إن كان على مذهبنا فالكل لله لانملك شيئاً ، وإن كان على مذهبكم ففي كل أربعين شاة شاةٌ ... (حلية الأولياء : ٣١٧/٨ ، شرح الإحياء : ١٧٠/١ ، الوافي بالوفيات : ٢٠١/١٦ ، كشف الخفا : ٤٠١/٢) .

(٣) الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي ، المطلبي ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة . ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، برع في الشعر واللغة وأيام العرب ، ثم أقبل على الفقه والحديث فكان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات ، فأفتى وهو ابن عشرين سنة ، وكان ذكياً مفرطاً ، له تصانيف كثيرة . توفي في القاهرة سنة ٢٠٤ هـ ، (حلية الأولياء : ٦٣/٩ ، تاريخ بغداد : ٥٦/٢ ، طبقات الشافعية للسبكي : ١٨٥/١ ، الأعلام : ٢٦/٦) .

والمحاسبي مع ابن حنبل[1] ، وأمثالها أصل لذلك كبير .

وأما استدلال المشترط للشيخ بأنه لو اكتفى السالك بالنقل دون المعلم للزم التساوي في جميع العلوم والصنائع بين من حفظ وصفها ولم يعانها ، وبين من عاناها ودخل فيها حالاً واتصافاً ، فضعيف ؛ إذ للنافين منع هذا اللزوم ، مع أن التفاوت بين من عانى التعلم[2] ، وبين من لم يعانه هو الحق ، فلا يلزم منه الافتقار إلى الشيخ ، بل يحصل[3] لمن عانى التعلم[2] من الشيخ رتبة من التعليم /٣٣/ ، ويحصل[3] لمن لم يعانه من الشيخ واكتفى في معاناته بالنقل رتبة دون الأول .

والحق أنه لابد للسالك من الشيخ ، ولا يفضي به النقل وحده إلى مطلوبه ، لا من أجل التفاوت بين التحصيلين كما ذكر ، بل من أجل أن مدارك هذه الطريقة ليست من قبيل المتعارف من العلوم الكسبية والصنائع ، وإنما هي مدارك وجدانية إلهامية ، خارجة عن الاختيار في الغالب ، ناشئة عن الأعمال على هيئات مخصوصة ، فلا يدرك تمييزها بالمعارف الكسبية ، بل تحتاج إلى الشيخ الذي يميزها بالعيان والشفاه ، ويعلم هيئات الأعمال التي تنشأ عنها ، وخصوصيات أحوالها .

---

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الله ، الشيباني ، إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة ، ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ ، فنشأ منكبّاً على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة ، في أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ، ومات قبل أن يناظر ابن حنبل ، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن ، وأطلقه سنة ٢٢٠ هـ ، ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل أكرم الإمام ابن حنبل وقدّمه ، صنّف كثيراً من المصنفات ، توفي سنة ٢٤١ هـ ببغداد . (حلية الأولياء : ٢٦١/٩ ، تاريخ بغداد : ٤١٢/٤ ، البداية والنهاية : ٣٢٥/١٠ ، الأعلام : ٢٠٣/١) .

(٢) في ح : « التعليم » .

(٣) في د : « تحصل » .

فقالوا : طريقة التصوف إنما عمدتها العمل والتجرد للخدمة ، فهي مفتقرة إلى تصويره ، فإذا تصورت كيفيته من شيخ ، أو كتاب ، أو ناقل عن كتاب فقد حصل المراد .

فقال لهم : كلا ، بل هي تشتمل على جزأين :

أصغرهما تصوير كيفية العمل ، وهذا قد يكفي فيه مجرد الوصف بالنقل[١] على المسامحة والتسليم جدلاً .

وأما الجزء الأكبر ، بل هو كلية الطريقة ، فهو معرفة العلل الطارئة على السالك في نفسه ، أو قلبه ، أو حاله ، ومعرفة معاناتها ، ومعرفة الإلقاءات القلبية ؛ من كونها نفسية ، أو شيطانية ، أو ملكية ، أو ربانية ، ومعرفة الأحوال ، والواردات ، والمواجد الداخلة عليها ، ومباديها ، ولواحقها ، وتمييز حقّها من باطلها ، والخبرة التامة بمواقع الزّلل[٢] بأهل السلوك .

نعم والعلم[٣] بجميع المكامن[٤] ، والمواطن التي يتحرَّز فيها بالسالك ـ إذا دخلها ـ أن يخرج من الإيمان إلى الكفر ، ومن السُّنة إلى البدعة ، ومن الحرية إلى استعباد الأغيار ، وإلى الوقوف مع الحال ، أو مع الكرامة[٥] ، أو المكاشفة ، أو الرؤيا الصالحة ، وأخذ الأهبة لهذه الأمور ابتداء ، واستصحاباً ، إلى غير ذلك من الجزئيات التي[٦] لا يحصرها ضبط ، ولا تستقل بالتعريف بها الكتب .

قلت : هذا الكلام أجرى على السداد من الذي قبله ، وليس المراد من معرفة هذه

(١) في د : « مجرد الوصف النقل » .
(٢) في د : « العلل » .
(٣) في د : « نعم والعام » .
(٤) في ح : « المكلفين » .
(٥) في د : « أو تتبع الكرامة » .
(٦) كلمة « التي » ليست في د .

الأمور غير المنحصرة معرفتها على طريقة[1] العلم الكسبي ، بل على طريقة الوجدان الذي ينفرد به الشيخ ، حتى يميزها المتعلم[2] واحدةً واحدةً تمييز العيان .

وأما قوله : « ولا تستقل به الكتب » فليس المراد أن استقلال الكتب بها ، وضبطها بالحصر العلمي كافٍ في معرفتها ، بل ولو استقلت بها الكتب ، وضبطها الحصر ، فإنما أصارها ذلك من قبيل العلوم الكسبية ، وخرجت من بابها ، ولا يردها إلى بابها إلاَّ تمييز الشيخ المعلم ، ودلالة المتعلم السالك[3] على أعيانها .

فقالوا : « هذا كله مسطور في الكتب ، ويكفيك في ذلك كتاب أبي حامد ، رضي الله عنه ، فإنه بسط القول في ذلك بسطاً شافياً ، وزاد على مقدار الكفاية ، وهو شيخ الطريقة باتفاق من أهلها وغيرهم من أهل العلم والإنصاف ، فكيف لا يقتدى بكلامه ، ويهتدى بأعلامه ، وكذلك كتب غيره من [أئمة][4] الأعلام الربانيين » .

فقال لهم : إنكم قد استدعيتم الكلام في ثلاثة مقامات :

أحدها ـ أن يقال : من المعلوم أولاً أن الشيخ في طريق الله سبحانه كالدليل في الطريق المحسوس على تقريب المثال ، ولو وصف لك دليل مثلاً غنيمة دون إدراكها مَهامِه ومفازات ، سكانها أعداء يقطعون السبيل ، وقلَّما يسلم منهم من سار فيها ، فصور لك الطريق إليها ، وما فيها من المخاوف والمتالف وأشراك العدا المنصوبة ، وكيف التحرز منها[5] ، فأردت أن تعتمد على مجرد وصفه لتسير عليه ، ولم تكن عرفته قبل ذلك لم يغنك الوصف البتة ، لاختلاف المسالك وتشعبها ، واشتباهها ، وانتشار القواطع فيها ، وشدة الخوف من غرة العدو ؛ فالوصف تقريبي لا يأتي على الحقيقة ،

(١) في د : « طريق » .
(٢) في د : « للمتعلم » .
(٣) في د : « السائل » .
(٤) ما بين معقوفتين زيادة من د .
(٥) في ح : « فيها » .

ولا سيما إن كان متعلقه خفياً وبعيداً عن نيله بالخيالات والأوهام ، اللهم إلاَّ أن يصاحبك الدليل ، ويحملك على الجادة ، وينكب بك عن مظان الخوف ، أو يعدلها عدتها التي تليق بها ، فإن ظهر لك العدو ألقى إليك من العدة[1] والحيلة ما يليق بك وبه وفي ذلك الموضع حتى تحصل[2] إلى غنيمتك فتظفر بها ، ثم تخرج بها عن أرض العدو /٣٤/ كذلك محوطاً محفوظاً ، وإلا أسرت أو استؤصلت .

فكذلك الطريق إلى التحقق بمعرفة الله ، فإن دون الوصول إليه مسافتين : مسافة الدنيا ، والقائم فيها[3] من الأعداء والشيطان . ومسافة النفس[4] ، والمستولي عليها الهوى ، ومكايد العدو فيها لا تتناهى ، ولا تسعها الكتب ، بل لا توفى وصفها لبعد مرماها ، وخفاء أغراضها ، ودقة تصورها ، إذ ليست من قبيل ما يعهد ، فلا يكفي فيها مجرد الوصف دون نظر من نَوَّرَ اللهُ بصيرته بنور الحق[5] . فكيف يقطع هذا الطريق بغير دليل ؟ هذا متعذر في العادة الجارية .

والمقام الثاني : أن الكتب المشار إليها محشوة بالحكايات عن أرباب الأحوال الذين ملكتهم الأحوال[6] ، وأرباب الأحوال الذين ملكوا أحوالهم ، وأكثر ما تحتوي الكتب على القسم الأول ، والمملوكون للأحوال لا يقتدى بهم ما داموا كذلك ، ومن اقتدى بهم خرج عن الطريقة المثلى ، وخيف عليه الانقطاع ، وهو الغالب فيمن اتبعهم ، إذ هنالك صار الناس حين اتبعوهم فرقاً :

فمنهم من اختلَّ جسمه حتى تلف أو كاد[7] .

---

(١) في د : « القوة » .

(٢) في د : « حتى تصل » .

(٣) في د : « بها » .

(٤) في د : « الدنيا » .

(٥) في د : « الحكمة » .

(٦) في د : « أحوالهم » .

(٧) « أو كاد » ليست في د .

ومنهم من تلف عقله أو كاد .

ومنهم مَنْ شادَّ الدِّيْن[١] بما لم يأذنِ اللّهُ فيه[٢] فغلبه .

ومنهم من يئس من روح الله في السلوك أو كاد .

ومنهم من كان على طريقة خير من علم أو عمل ، فانقطع عنه لعارض رياء ، أو عجب ، أو حب دنيا ، أو جاه ، ولم يتحقق : أصحيح ذلك [العارض][٣] أم وسواس ، فترك العمل والعلم ظانّاً أنه يتركه لله ، وقد نال الشيطان منه ما قصد .

ومنهم من أساء ظنه بالطريقة وأهلها ، وكذب بها إلى غير ذلك من الأمور العارضة التي لا يزيلها النقل من كتب التصوف ، بل يثيرها . وهذه الأمور لا يدرك كنهها إلا أربابها .

ولم نرَ فيمن تقدَّم ، أو تأخَّر من ثبت تحت إيالة شيخ سني محقق ، اتفق له شيءٌ من هذا .

وأما المالكون للأحوال فهم المقتدى بهم ، لأنهم لما ملكوا أنفسهم ، وقهروا أحوالهم ، كانوا مقيدي الحركات والأحوال بالاقتداء ، بخلاف من تقدم ، فإن أحوالهم لا يقدرون على تقييدها ، فلذلك يصدر عنهم كثير ما[٤] يظهر من الشريعة خلافه ، وهم فيه معذورون ومحقون[٥] ، وقد لا يكونون كذلك .

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الدِّين يسر ، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » . (رواه البخاري في المرضى : ١٠٩/١٠ ، وفي الرقاق : ٢٥٢/١١ ، ٢٥٤ ، ومسلم رقم ٢١٨ ، والنَّسائي : ١٢١/٨ ، ١٢٢ ، جامع الأصول : ٣٠٨/١) .

(٢) في د : « به » .

(٣) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٤) في د : « كثيراً مما » .

(٥) في ح : « ومحققون » وأثبتنا ما في د .

والفرق بين الفريقين عسير ، لا يدرك من الكتب المذكورة ، وعلى الفرق ينبني الاقتداء وعدمه ، فإذا كنا لا نفرق بينهما فكيف نطمئن إلى الاقتداء .

ومن هنا نقول : قد يترك المقتدي بالكتب الاقتداء بمن ينبغي الاقتداء به ، ويقتدي بالآخر[١] ، أو يقتدي[٢] بهما جميعاً ، وأحوالهما لا تتلاقى في كثير من الأمور ، فيعمل بأمر كالمتنافي ، وقد يكون الرجل الواحد مملوكاً لبعض الأحوال مالكاً لبعض ، فيصح الاقتداء به في الثاني دون الأول ، ولا يقدر على الفرق إلا الشيخ ، وأيضاً فالذين تظهر عليهم الأحوال أنواع :

فمنهم من هو محق فيه .

ومنهم من هو صاحب حال ، أصله مرض النفس[٣] ، فتجري له عادة[٤] ، من غيبة عن الحس ، أو صعق ، أو بكاء ، أو صياح ، أو غير ذلك من الأحوال ، وهو في الحقيقة مبطل فيه ، كما أنه قد يكون صاحب كرامة في الظاهر ، وإنما هو في يد الشيطان .

ومنهم من هو محق في هذه الأشياء .

ومنهم من كان غير محق[٥] .

ومنهم من كان صاحب حال ، ففتر[٦] عن العمل[٧] المثير له ففتر الحال ، [٨]-فيظن أنه

(١) في د : « بالأخرى » .
(٢) في د : « ويقتدي » .
(٣) في د : « فرض النفس » .
(٤) في د : « عليه عادة » .
(٥) في د : » من كان هو مستحق » .
(٦) في د : « ففتر الحال » .
(٧) في د : « عن الأمل » .
(٨-٨) ما بينهما ساقط من د .

مالك لحاله ، فيتشبه بمن هو كذلك حقيقة وهو قاصر فيه^٨ ، وذلك باب فتنة [وهوى][1] .

وأيضاً فالأحوال والمواجد منها ما هو صحيح بإطلاق ، ومنها ما هو غير صحيح بإطلاق ، ومنها ما يتبعض إلى النوعين ، ومنها ما يكون صحيحاً من وجه دون وجه ، ومنها ما هو محتمل ، وجميعها محتاج إلى نظير الشيخ ولا يشرحه غيره ، وعلى النظر في ذلك كله والتفرقة بين الجميع تنبني مسائل فقهية وسلوكية واعتقادية ، فإذن من رام أن يتصوف دون شيخ قد ربّاه شيخ آخر بسند سلوكي إلى للعلم الأول وللرشد الحق - ﷺ - فقد رام أمراً صعباً ، ورمى مرمى بعيداً .

والمقام الثالث : أن الطرق إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، وإن كان واحداً في نفسه ، فكل سالك يليق به من التربية ما لا يليق بغيره ، والأحوال والمواجد والواردات ، والمواهب والعلوم والإلقاءات /٣٥/ والعوارض في السلوك تختلف بحسب الأشخاص ، والأحوال والبداية والنهاية ، والقوة والضعف ، وسبيل سلوكهم غير متفق ، فقد يكون الرجلان على وِزانٍ[2] واحدٍ في العلم والعمل وترتيب الرياضة ، ويعرض لهما عارضان مختلفان ، فيحتاجان إلى دواءٍ مختلفٍ ، إن جعل واحداً لم يصلح ، أو متحدٍ ، إن جعل مختلفاً لم يصلح ، ويعرض لهما العارض المتّحد فيصلح لأحدهما من العلاج ما لا يصلح للآخر ، وترد على كل واحد منها الأحوال والمواجد والإلقاءات متفقة ومختلفة ، فيفرق الشيخ بين مؤتلفها ، ويجمع بين مختلفها بحسب ما أراه الله .

هذا فيما يعرض له في التخلق والتحقق معاً ، والتحقق بالتوحيد أشد وأحرى ألاّ يكتسب الدخول فيه من كتاب ، بل تحت شيخ خاض بحر التوحيد ، ثم وقف على

(١) مابين معقوفتين زيادة من د .

(٢) في د : « وزن » .

ساحله يدعو إليه[١] ، وشأن هذا السلوك أعظم ، والتحرز فيه أتم ، والعوارض الطارئة على سالكه أقوى وأدهى ، وأمر ، وأكثر ، إذ الهلاك فيه أقرب إلى سالكه من شراك نعله .

فأكثر الباطنية ، والحلولية ، والزنادقة ، والإباحية ، والتناسخية ، والجبرية ، وسائر ما يذكر من الفرق في هذا النمط ، إنما أصل هلاكهم[٢] السلوك في هذا الطريق من غير شيخ محقق عارف ، أو الخروج عن نظره فيه ، فالاحتياج فيه إليه كاحتياج الجسد إلى الغذاء .

قلت : في هذه المناظرة طول ، وربما يقصر بفهم[٣] من يرومه[٤] ، فلنورده ملخصاً بعد تقرير المناظرة الأولى[٥] ، فعليها مبناه .

وذلك أن النافين لاشتراط الشيخ زعموا ـ كما تقرر أولاً ـ أن الطريقة إنما تحتاج إلى بيان كيفية السلوك وحصول صورته في الذهن ، ليقع العمل على وفقها ، فإذا حصلت عن شيخ ، أو من عن شيخ ، أو من تصفح كتب القوم ، أخذ السالك في العمل على وفق ما حصل عنده واكتفى به .

وأجاب المناظر بمنع انحصار الحاجة في هذه الطريقة إلى كيفية السلوك فقط ، بل قال[٦] : عندنا أمران وهما : كيفية السلوك أولاً ، ثم ما يعرض أثناءه من العلل ، والأحوال ، والواردات ، والمواجد ، وتنوعها ، واختلافها ، واختلاف ما ينبني عليها إلى

---

(١) إشارة إلى قول أبي يزيد البسطامي : خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله ، وقد تقدم تفسير ذلك ، ص ٦٤ .

(٢) في د : « ضلالهم » .

(٣) في د : « فهم » .

(٤) في ط : « يقصر فهم المعنى على من يرومه » .

(٥) في د : « أولاً » .

(٦) كلمة « قال » ليست في د .

غير نهاية ، فإن كفى الوصف في كيفية السلوك فلا يكفي في هذه ، بل لا بد من الشيخ البصير بها مجملة ومفصلة[١] .

فادَّعى النافون بعد ذلك : أن هذه الأمور الأخرى كلها مسطورة في الكتب بالكفاية أو الزائد عليها كالإحياء وغيره .

فقال المناظر : هنا ثلاثة مفهومات يحتاج فيها إلى تعليم الشيخ :

أولها : طريق السلوك ومثلها على التقريب بالطريق المحسوس ، وفرض فيها من المخاوف والمهالك ، والأعداء والغرر كثيراً ، وإن مثل هذا في العادة لا يغني فيه الوصف ، بل لا بد من مصاحبة الدليل البصير بذلك كله ، وحينئذٍ يطمع في السلامة ، فكذا في طريق السلوك .

وثانيها : أن كل ما سطر في الكتب من شأن العلل والواردات ، والأحوال والمواجد إنما هو حكاية عن السالكين ، وهم مختلفون في غلبتهم لأحوالهم ، أو غلبتها لهم ، وفي صحة الأحوال أو فسادها ، وفي حقيقة الحال وتوهمها ، أو بنائها على ما يخالف الطريقة ، وينشأ عنه غير المطلوب ، ولا يستقل بتحقيق ذلك الكتاب ، بل لا بد من المعلم البصير بالفروق التي يريها عياناً .

وثالثها : أن السلوك لم تتحد طريقه ، بل الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق ، وكل سالك له طريق يناسبه ، وتربية تخصُّه ، وكما اختلف طريق[٢] السلوك فتختلف العلل والأحوال والواردات باختلافها ، وتختص كل طريق بمناسبة منها ، ويخفى درك الفرق على السالك إن لم يباشره المعلم يباشره المعلم البصير بذلك ، لا سيما في سلوك مقام التوحيد .

---

(١) في د : « أو مفصلة » .

(٢) في د : « اختلفت طرق » .

هذا حاصل ما ذكره هذا المناظر ، وأنت ترى كيف[1] كلام هذين المتناظرين كلّه عَريٌ عن الدليل ، وليس إلاَّ دعوى النافين ، ومنع المشترط من غير إقامة دليل ، وإلاَّ فكلامه في الأول من الأمور الثلاثة التي سمَّاها مقامات ، بعد أن مثل بالمحسوس ، وفرض المخاوف غايته منع الاكتفاء بالنقل ، واستبعاد /٣٦/ ذلك في العادة ، وكلامه في الثاني من تلك المقامات ، بعد أن قرر أحوال السالكين والأحوال واختلافها واختلافهم ، غايتهم دعوى أنه لا يستقل بتحقيقها الكتاب ، وكذا في الثالث حيث عدد الطرق ونوعها ، ثم ادَّعى أيضاً عدم الاستغناء بالكتاب في ذلك .

والتحقيق الذي يدل على اشتراط الشيخ المعلم في ذلك هو ما قدمناه من أن مدارك هذه الطريقة كلها ، وما يطرأ فيها على السالك من العلل ، والأحوال ، والواردات ، وجدانية ذوقية ، وليست من قبيل العلوم الكسبية المتعارفة ، ولا مما يعرف بالوضع اللغوي ، وتحصره القوانين الصناعية ، وأكثر الأحوال والعلل والمواجد ، مع كونها غير متعارفة فهي أيضاً خارجة عن الاختيار ، وكيفياتها تكون بحسب ما نشأت عنه ، وكل ما مسطور في الكتب فمن قبيل العلوم الكسبية المتعارفة ، وعباراتهم عن أحوال هذه الطريقة كلها إنما هي من قبيل المجاز الذي لا تعرف حقيقته ، فلابد من الشيخ الذي يفيد علم ما ليس عندنا رأساً ، وهذا هو الجواب الحق الصادع بالبرهان .

وهذا في مجاهدة الكشف .

وأمّا مجاهدة الاستقامة ومجاهدة التقوى فالرجوع فيهما إلى المسطور المنقول ، والفتاوى الصحيحة رجوع صحيح ، وبناء على أصل وثيق . والله أعلم .

فقالوا : فهذه الكتب المصنفة في الطريقة الصوفية ، إن كانت مفيدة للمقصود الذي وضعت له فهو ما أردنا ، وكل ما قلته باطل ، وإن لم تفد فتصنيفها عبث ، بل

---

(١) كلمة « كيف » ليست في د .

هي على رأيك فصل ، وذلك يقدح في إمامة القوم ، لكنهم أئمة مقتدى بهم بإجماع ، [١-]فكلامك الذي يخرجهم عن ذلك باطل بالإجماع[-١] .

فقال لهم : كلام القوم في كتبهم صحيح ، أعني أبا حامد[٢] ، والمحاسبي[٣] ، وابن عطاء[٤] ، ومن في نمطهم من أهل السنة وأئمة الهدى ، دون من خرج عن ذلك ، فيصير السلوك فلسفياً ، ومع ذلك فكل ماتقدم ذكره صحيح ، لأن ماقاله أبو حامد وغيره إنما قالوه عن تحقيق[٥] وإنصاف ، ولكن بعد أن يقال : ذلك الوصف الذي وصفوه هل يصح الاستقلال به في السلوك ، دونهم ودون من لم يقم مقامهم من ورثتهم في الانتصاب للهداية بما قالوه . فهذا هو محل النزاع . وأما الفائدة فيما صنفوه[٦] من ذلك فالتنبيه والتحريض على التأهب للمعاملات والأحوال السنية ، ليدخل فيها بشروطها ، كما تصنف الكتب في أنواع العلوم ، فلا يستفاد بها حتى تؤخذ عن أربابها ، وآكد الشروط في السلوك الشيخ الذي يريك مافي الكتب في نفسك عياناً ، لاأن يطلعك على مجرد فهمها ، لأن الطريقة لم تنبن إلاَّ على التحصيل الوجداني ، وما في كتب التصوف لايفهمه حقَّ الفهم إلاَّ من وجده وجداناً ، وصار له وصفاً ، والمواجد إذا عبر عنها أهلها لم يفهمها إلا من وجدها ، وأما غيرهم فيتصور الحق باطلاً وبالعكس ، لبعد هذه الأغراض عن مألوفات البشر ، وقد يصيب في التصور ويخطئ في الترتيب الوضعي للسلوك ، للجهل بمواقعه ، فالسالك مفتقر في ذلك كله إلى الشيخ .

(١-١) مابينهما ساقط من د .

(٢) تقدمت ترجمته في هامش صفحة ٣٤ .

(٣) تقدمت ترجمته في هامش صفحة ٣٥ .

(٤) تقدمت ترجمته في هامش صفحة ٤٥ .

(٥) في د : « تحقق » .

(٦) في د : « صنفوا » .

وأيضاً فإن ما تركه أرباب الكتب أكثر مما ذكروه ، وما ذكروه إنما هو قواعد جملية ، يحتاج ظاهرها إلى التأويل في مواطن لا تحصى ، وإطلاقها إلى التقييد ، ومجملها إلى البيان ، وعمومها إلى التخصيص ، لاختلاف أحوال السلوك والسالكين كما تقدم .

قلت : قد بيّنّا أصناف[(١)] المجاهدات ومراتبها ، وأن المجاهدة الأولى مجاهدة التقوى بالورع ، وهي فرض عين ، وأن المجاهدة الثانية مجاهدة الاستقامة ، وهي التخلق بخلق القرآن والأنبياء ، وهي فرض عين في حق الأنبياء ، مشروعة في حق طالب الدرجات العلى من الأمة ، والكلام في كلتيهما كلام في المعارف ، وعلومها من قبيل العلوم الكسبية ، وأن تصانيف [أئمة][(٢)] القوم كلها مملوءة بأحكام هاتين المجاهدتين من ورع واستقامة ، ككتاب (الإحياء)[(٣)] و (الرعاية)[(٤)] و (القوت)[(٥)] وابن عطاء[(٦)] وغيرهم .

وأن المجاهدة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع ، /٣٧/ وهي طلب رفع الحجاب بسلوك خاص على هيئة خاصة ، وذكرنا الخلاف في مشروعيتها ، وأن الكثير من أحكامها إنما هو مستفاد من أئمتها الواجدين لها ، إذ ليست مداركها من قبيل الكسب والعلوم المتعارفة ، وليس في الأوضاع اللغوية ما يمكن التعبير به عن شيء منها ، وليس في كتب القوم منها إلا الأقل ، وهو الذي تمكن العبارة عنه عن كيفية السلوك ، وذكر بعض الأحكام التي هي من غير المواجد الذوقية .

(١) كلمة « أصناف » ليست في د .

(٢) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٣) تقدمت التعريف بالكتاب ومؤلفه ، هامش صفحة ٣٤ .

(٤) تقدمت التعريف بالكتاب ومؤلفه ، هامش صفحة ٣٥ .

(٥) (قوت القلوب في معاملة المحبوب) لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، الواعظ ، الزاهد ، الفقيه ، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة ، ورحل إلى البصرة ، وسكن بغداد ووعظ فيها ، توفي ببغداد سنة ٣٨٦ هـ ، وقد طبع كتابه (قوت القلووب) عدة مرات . (تاريخ بغداد : ٨٩/٣ ، وفيات الأعيان : ٤٩١/١ ، الأعلام : ٢٧٤/٦) .

(٦) تقدمت ترجمته في هامش صفحة ٤٥ .

وأما ما اختص بمواجدها الذوقية من أحكام وتصورات فلم يلموا به ، ولا أودعوه كتبهم ، وإنما هو من وظيفة الشيخ ، وغاية ما يأتون به في هذا الباب حكايات مبهمة ، وإشارات مجملة ، إلى حال ، أو وارد ، أو وجد ، لكن غير جلية ، محتاجة إلى تفسير الشيخ ، ولا تظنَّن أن ألفاظهم التي اصطلحوا عليها تفيد غيرهم تصوراً لحقائق معانيها ، وإنما تواضعوا عليها للكلام فيما بينهم ، لا لخطاب من لم يذق أذواقهم ، وقد نقلنا لك كلام الأستاذ أبي القاسم ، فيما قبل(١) .

فقول النافين : « إنه لو لم تكن مصنفات القوم مفيدة للمقصود كان تصنيفها عبثاً » ، فنقول : ما المعنى بالمقصود هنا إن كان مجاهدة التقوى ، أو مجاهدة الاستقامة ، فمصنفات القوم مفيدة لجميع أحكامها وآدابها ، وإن كان المعنى بالمقصود(٢) مجاهدة الكشف والاطلاع فلا ضير في خلو هذه المصنفات عن كمال إفادتها ، وقد تضمنت شيئاً منها ، وهي كيفية السلوك ، وترك الباقي ـ وهو الكلام في العلل ، والواردات ، والمواجد ، والأحوال ، وجميع ما يعرض في السلوك ، مما هو صعب(٣) الطريقة ، وجادة ذلك السلوك ـ لإفادة الشيخ وتعليمه ، إذ لا تمكن العبارة عنها ، ولا يفي بها(٤) تفسير قولي ، ولا قانون صناعي بها ، لخروج مداركها عن العلوم الكسبية كما مرَّ .

وقول المناظر : إن الفائدة في هذه المصنفات التنبيه والتحريض على التأهب للمعاملات والأحوال السَّنية ، فأهونْ بها فائدةً لو صحَّ انحصار فائدة التصانيف المذكورة فيها ! كيف ؟ وهي كلها مملوءة من أحكام مجاهدات الاستقامة ، والورع ، الكفيلين بالنجاة ومراتب الصدِّيقين ، وأي شيء أعظم من مجاهدة الأنبياء ، والتَّخلُّق بخلق

(١) تقدم قول القشيري ص ٩٢ .

(٢) في د : « المقصود » .

(٣) في ط : « صلب » .

(٤) كلمة « بها » ليست في د .

القرآن ؟ ولم يفت من هذه التصانيف إلاَّ ما في سلوك[١] الكشف من المواجد الذوقية التي تعذرت عنها العبارة ، بل امتنعت ، ولا ضير في خلو هذه التصانيف عنها ، فالفوائد الأخرى أعظم منها ، والخلاف في مشروعيتها قد قررناه ، مع أن الشيخ كفيل بتحصيل فائدتها .

ثم إن المناظر تنبه[٢] لهذا المعنى فعقب به كلامه ، وليته تنبه من قبل ، فقال : وآكد الشروط في السلوك الشيخ الذي يريك ما في الكتب في نفسك عياناً ، لا أن يطلعك على مجرد فهمها ، لأن الطريقة لم تنبن إلاَّ على التحصيل الوجداني ، إلى آخر ما ذكر في هذه المناظرة . وهو كلام سديد ، ونكتته[٣] ما قررناه قبل .

فقالوا : ما عند الشيخ من علم ذلك كله ، إن كان راجعاً إلى المنصوص عليه في الكتب المذكورة فالرجوع إلى المنصوص عليه فيها غير ضائر ، وإن لم يكن راجعاً إليها فتلك شريعة ثانية ادَّعيتها . « وحسبُكَ من شَرٍّ سَماعُه »[٤] .

فقال : بل هو راجع إلى المنصوص عليه في الكتاب والسُّنة ، لكنه روح ما سطر في الكتب[٥] ، ومعاقد ما فرع الجميع عن أصول الشريعة ، ولذلك صار الصوفي المحقق يبصر

(١) في د : « إلا ما سلوك » .

(٢) في د : « تنبه » .

(٣) في د : « ونكتة » .

(٤) قال الميداني : حَسْبُكَ من شرٍّ سماعُه : أي اكتفِ من الشرّ بسماعه ولا تُعاينْه ، ويجوز أن يريد : يكفيك سماع الشر ، وإن لم تقدم عليه ولم تنسب إليه . قال أبو عبيد : أخبرني هشام بن الكلبي أن المثل لأم الربيع بن زياد العبسي ، وذلك أن ابنها الربيع كان أخذ من قيس بن زهير بن جذيمة درعاً ، فعرض قيس لأم الربيع وهي على راحلتها في مسير لها ، فأراد أن يذهب بها ليرتهنها بالدرع ، فقالت له : أين عزب عنك عقلك يا قيس ؟ أترى بني زياد مصالحيك ، وقد ذهبت بأمهم يميناً ويساراً ، وقال الناس ما قالوا وشاؤوا ؟ وإن حسبك من شر سماعه ، فذهبت كلمتها مثلاً ، تقول : كفى بالمقالة عاراً وإن كان باطلاً . يضرب عند العار والمقالة السيئة ، وما يخاف منه . (مجمع الأمثال : ٢٥٤ـ٢٥٥) .

(٥) في ح : « ما سطر في الكتاب والسُّنة » .

الفقيه في فقهه ، والمفسر في تفسيره ، والأصولي في أصوله ، والطبيب في طبـه ، والأمير في إمارته ، والصانع في صنعته ، وسائر الأصنـاف في نِحَلِهم ومعـايشهم ، ويطلعهم على مواقع الغلط والزَّلل فيهـا ، ويبين لهم كيفيـة الخروج عن ذلـك ، وهـذا العلم هو الـذي استبدَّ[١] به الشيخ دون الكتب ، ودون من لم يتحقق بما تحقق به ، وما نسبـة مـا منحـه الله من ذلك إلى جميع العلوم ، وتصاريف الوجود ، إلاَّ نسبة أصول الفقه إلى الفقيه[٢] ، بل هو /٣٨/ أقرب وأوضح .

قلت : الذي عند الشيخ صنفان من العلوم :

صنف يرجع إلى شروط هذا السلوك من تصوير كيفيته ، وتقديم مجاهـدتي التقوى والاستقامة عليه ، وأحكام ذلك كله . وهو الصنف منصوص عليـه في كتبهم ، ومـا ملأ أسطارَها إلا تعدُّد[٣] مسائله ، وتفصيل أحكامه ، والنقل فيه كاف .

وصنف هو روح هذا السلوك ، وسر حقيقته ، وهو الكلام في الطوارئ التي أشرنـا إليهـا ، وهو ذوقي لا تفي بـه عبـارة ، ولا يخلص فيـه الاعتاد على الكتب والنقل ، بـل الشيخ يشير إلى أعيان تلك الطوارئ ، ويميزها للسالك عند ذوقه إياها ، ومشاركته له في تعارفها[٤] .

وأما قول النافين : « إن لم يكن راجعـاً إلى كتبهم فهي شريعـة ثـانيـة » ، فتشنيع من القول ، وقد قدمنا أنها طريقة خاصة مغـايرة لطريقـة الشرع العـامـة ، عثر عليهـا الصِّـدِّيقون ، واقتفوهـا حرصـاً على الـدرجـات العلى ، وعلمـوا ـ بعـد ذوق معـانيهـا ، ووجدان مـداركهـا ـ كيف تتعلق بهـا الأحكام الخمسـة[٥] ، وألقوا فهم ذلـك لمن خـاض

(١) استبدَّ به : أي اختصَّ به .

(٢) في د : « الفقه » .

(٣) في د : « تعديد » .

(٤) في ط : « تعرفها » .

(٥) الأحكام الخمسة في الفقه وأصوله : الوجوب والحرمة والإباحة والندب والكراهة .

لجهم ، وعبر بحر[١] ذوقهم ، فهي مندرجة تحت الأحكام الخمسة ، اندراج الخاص تحت العام ، لكن لتعذر العبارة عن متعلق الأحكام الخمسة فيها[٢] ، وعدم عموم البلوى ، خفي ذلك إلاَّ على أهله المختصين بتعارفها ، ومعرفة حكم الله فيها .

وأما قول المناظر : « إنه راجع إلى المنصوص عليه في الكتاب والسُّنة ، لكنه روح ما سطر ومعاقد ما فرع الجميع عن أصول الشريعة » .

فقول خطابي لا يقنع الخصم ، إذ يمنع تعلق الأحكام الخمسة بتلك الطوارئ كلها ، ويستند في منعه لفقدانها من الكتب[٢] . والتحقيق ما ذكرناه ، وهو الذي منع من إيداعها الكتب ، وشيوخها أولياء الله ، عالمون كيف دخلت تحت الأحكام لعلمهم بحقائقها الوجدانية .

وأما قوله : « إن الصوفي المحقق يبر أهل العلوم والصنائع في علومهم وصنائعهم » فقول صحيح ، وقد تقدم أصل ذلك ما هو ، وأن صاحب العلم الإلهامي قد انكشف[٣] له حقائق الوجود ، وخبايا أسراره على ما هي عليه ، فهو يراها بعين قلبه ، ويهدي إلى الصواب ، ويصدُّ عن الخطأ ، لدخول ذلك كله في مداركه ، وهل العلوم الكسبية والصناعية إلاَّ ظل من ظلال علمه ؟ فهو يحرز جميع المدارك البشرية بالنور الذي ألقى الله في قلبه ، والعلوم الربانية التي ملأت جوانب صدره .

فقالوا : إن كان ما استبد به علماً يمكن التعبير عنه أمكن اكتسابه ، ورجع إلى قبيل المنقول ، لأنه إن صنفه صار من جملة المنقولات ، ومثل هذا فَعَلَ أبو[٤] حامد رضي الله عنه ، وغيره ، وإلاَّ فهو بالقوة في حكم المصنف إذا[٥] كان في علمه محصلاً ، وفي

(١) في د : « بحار » .

(٢) في د : « من الكتاب » .

(٣) في د : » قد انكشفت » .

(٤) في د : « فِعلُ أبي حامد » .

(٥) في د : « إذ » .

ذهنه معقولاً متصوراً . وعلى كلا الأمرين يمكن اكتسابه وقراءته وإقراؤه ، وما شأنه هذا فهو من قبيل المكتوب ، فيصح الأخذ بما في الكتب منه ، لأنه هو ، وإن يمكن[١] ذلك فما هذا العلم ؟

فقال لهم : ليس بعلم يمكن اكتسابه ، ولا حصره وضبطه بقانون ، ولا جمعه في عقد[٢] ، ولذلك نسأل الشيخ المحقق[٣] عما عنده من علم التصوف ، فيجيب بأن ليس عندي شيء ، لأنه فقير على كل حال ، بل هو كاللوح لما يلقى فيه ، وإنما الذي اختصه الله به نور وجداني موضوع فيه ، يفرق فيه بين الحق والباطل في كل شيء ، وهذا النور لا يقدر الشيخ على وضعه[٤] ، ولا إلقائه لسالك ولا غيره ، ولا يعبر عنه إلا بالمثال ، بل المثال مظهر لذلك النور فقط ، وحقيقته مخفية كما كانت ، فمن كان من أهل ذلك النور فهم المراد ، ومن لا فلا .

ومن ههنا ضلّ كثير ممن اتّبع آثار الكتب في هذه الطريقة ، فصاروا ﴿ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٢/٣٠] ، فنزّلوا نصوص الكتاب والسُّنّة على ما لا يعرفون من أحوال القوم ، أو صيّروا أحوال القوم تجري على شريعة أخرى ، غير التي بثّها رسول الله ﷺ /٣٩/ في الأمة ، ورأوا أن الصوفية مخاطبون بغير ما خوطب به الجميع ، ويكفيك هذا من سوء أحوال من اتّبع آثار الكتب .

قلت : قد تقرر أن مدارك هذا السلوك ليست من قبيل العلوم الكسبية ، ولا الاصطلاحات النقلية ، بل هي وجدانية ذوقية ، لا يمكن التعبير عنها إلاّ لمن شارك في وجدانها وذوقها كما مرّ .

---

(١) في د : « وإن لم يكن ذلك » .
(٢) في د : « في عقده » .
(٣) في ح : « الحق » .
(٤) في ح : « وصفه » .

فقولهم : إن كان ما استبد به علماً يمكن التعبير عنه ، أمكن اكتسابه ورجع إلى قبيل المنقول ، سواء صنفه ، فهو منقول بالفعل ، أو لم يصنفه فهو محصل في علمه ، فهو منقول بالقوة .

قلنا : ليس بعلم يمكن التعبير عنه ، إذ العلم الذي يعبر عنه إنما هو العلوم الاصطلاحية الكسبية ، وأما الوجدانية فلا .

وقولهم : « يمكن اكتسابه وإقراؤه » إن أرادوا به العلم المتعلق بمجاهدة التقوى ، أو مجاهدة الاستقامة فصحيح ، وإن أرادوا به العلم المتعلق بمجاهدة الكشف فممنوع ، لما قدمناه[1] من خروج مداركها عن قبيل العلوم والاصطلاحات . وقد ألم بذلك المناظر في قوله : « إنما هو نور وجداني موضوع فيه ، يفرق به بين الحق والباطل في كل شيء » إلى آخر ما قال .

وأما بيانه لضلال المقتدين بالكتب حتى زعموا أن الصوفية مخاطبون بغير ما خوطب به الكافة ، فإن صحَّ أن منشأ هذه المضلة من الاقتداء بالكتب ، والاعتماد على النقل ، فوجهه ما قدمناه من مدارك السلوك ذوقياً وجدانياً[2] ، فمن اعتمد على النقل ، ولم يميزها ، لم يفهم تعلق الأحكام الخمسة بها فيقول : ولعل حكم التصوف حكم آخر هذا وجهه . والله أعلم .

وقد كنا بيّنا فساد رأي من زعم تفاوت الناس في خطاب الشريعة ، وأن لها ظاهراً وباطناً في أوائل[3] المقدمة .

فقالوا : « السلوك بدون شيخ ، إما أن يكون ممتنعاً لذاته أو لأمر خارج ، وامتناعه لذاته غير صحيح ، وإن امتنع لأمر خارج[4] فهو : إما العادة ، وإما الشرع :

(١) في د : « لما قررناه » .
(٢) في ط : « ذوقية وجدانية » .
(٣) في د : « أول » .
(٤) في د : « لخارج » .

فأما العادة فغير مانعة ، لأن كثيراً من الناس سلكوا بدون شيخ ، ولكن سَمِعَ من كتاب ، أو نَقلَ عن كتابٍ كيفيةً فالتزمها ، وتولى الله هدايته ، ولم يكله إلى أحد ، ومن بحث عن سير الناس وجد ذلك » .

وأما الشرع فأين يوجد دليل شرعي على إيجاب السلوك بشيخ ، وامتناعه دونه ، بل فيه ما يدل على خلاف ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ﴾ الآية ، [الأنفال : ٢٩/٨] . فهذا نص في أن من اتَّقى الله حصل له النور الفرقاني الذي زعمت أنه من خواص الشيخ ، وإذا حصل له ذلك بمجرد التقوى ، وحقيقتها : امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وهذا يحصل[1] من الكتب لأنه مجرد نقل فروع الفقه ، وما ينضم إليها من تحقيقات الصوفية ، فما الحاجة إذن إلى الشيخ ؟ وفي القرآن الكريم : ﴿ والَّذينَ جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩/٢٩] ، وهو بمعنى[2] الأول إلى غير ذلك ، مما في هذا المعنى .

فقال لهم : ليس ذلك يمتنع لذاته ، وإنما امتنع[3] عادةً وشرعاً ، أما في العادة فإن السنة الجارية ، والعادة المعتادة ، فيمن نرى سيرهم مسطورة في الكتب الاعتماد على الشيوخ ، وعدم الاستغناء عنهم ، وأكثر مَنْ زَلَّ عن الصِّراط المستقيم ، إنما زلُّوا بسبب السلوك دونه ، وبمخالفته[4] في بعض الأمور ، وقد رأينا ذلك عياناً ، وسمعناه في الكتب ، ولا أعني[5] بالاعتماد على الشيخ أن يكون ملازماً لشيخ واحد فقط ، وإن كان ذلك هو الأولى فإنه غير لازم على الجملة ، وما من سالك[6] دون شيخ البتة ، فإن فرض

(١) في د : « يصح » .
(٢) في د : « معنى » .
(٣) في د : « بمتنع » .
(٤) في د : « أو بمخالفته » .
(٥) في د : « وإنما أعني » .
(٦) في د : « وأما من سلك » .

وجوده عقلاً فربما لا يوجد عيناً ، إذ ما من رجل تعينه ، ولم تعلم له شيخاً ، إلا ويمكن أن[1] كان تحت نظر شيخ لا تعلمه ، إذ لا يلزم من عدم علمك به عدمه ، فالشيخ يكون من جملة الأسباب التي يتولى الله بها العبد ، وعلى فرض وجوده فهو نادر ، ومن جملة خوارق العادات التي لا ينبني عليها حكم مطرد ، بمنزلة الشّواذّ في النحو التي تحفظ ولا يقاس عليها ، وبمنزلة بيع العرايا[2] ، والقراض[3] ، والمساقاة[4] ، التي توقف على

---

(١) في د : « أنه كان » .

(٢) بيع العرايا : جمع عرية ، وهي عطية ثمر النخل دون أصله ، والأصل فيها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رخّص في بيع العرايا بخرصها فيها دون خمسة أوسق أو من خمسة أوسق (شكّ داود) راوي الحديث .
انظر الموطأ : ٦٢٠/٢ ، وتبيين السالك : ٤٣٣/٢ ، وفي الموسوعة الفقهية : العرايا : جمع عرية وهي النخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً فيجعل له ثمره عامها ، كانت العرب في الجدب تتطوع بذلك على من لا ثمر له . وبيع العرايا جائز عند الشافعية والحنابلة ، أما الحنفية والمالكية في قول فلم يستجيزوا وذلك للنهي عن للزابنة . (للوسوعة الفقهية ٩١/٩ ، ابن عابدين ١٠٩/٤ .

(٣) القراض والمضاربة : اسمان مترادفان ، وكلمة القراض مشتقة من القرض وهو القطع ، والقراض هو أن يدفع نقداً لمن يتجر به بجزء معلوم من الربح .
(تبيين السالك : ٦٣/٤ ، بدائع الصنائع للكاساني : ٧٩/٦) .

(٤) المساقاة : مفاعلة من السقي ، لأنه معظم عملها وأصل منفعتها ، وهي عقد على القيام بمؤن شجر أو نبات ، كالنخيل والأعناب وغير ذلك على أن يكون للعامل مقابل عمله جزء مشاع من غلة الشجر أو النبات ، وهي مستثناة من الأصول الممنوعة لضرورة الناس إلى ذلك وحاجتهم إليه . (تبيين السالك : ١٨٠/٤ وبدائع الصنائع : ١٨٥/٦) .

محلها ، ولا يقاس عليها ؛ بل مسألتنا أقرب إلى شهادة[١] خزيمة[٢] ، وعناق أبي بردة[٣] في الضحايا[٤] .

---

(١) خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة ل أبو عمارة الأنصاري ، الصحابي الجليل ، ذو الشهادتين ، شهد أحداً وما بعدها ، وكان من كبار جيش علي رضي الله عنه ، واستشهد يوم صفّين سنة ٣٧ هـ ، وعن زيد بن ثابت قال : لما كتبنا المصاحف فقدت آية كنت سمعتها من رسول الله ﷺ فوجدتها عند خزيمة بن ثابت : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين ، أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين . (البخاري : ٣٩٨/٨ ، في تفسير سورة الأحزاب ، والطبراني الكبير رقم ٣٧١٢ ، ٤٨٤١ ، والإصابة : ٩٣/٣ ، أسد الغابة : ٦١٠/١ ، سير أعلام النبلاء : ٤٨٥/٢) .

(٢) قصة إجازة النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين أخرجها أبو داود رقم ٣٦٠٧ في الأقضية ، باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به ، عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع رسول الله ﷺ المشي ، وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه ، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته ، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي ، فقال : أوَليس قد ابتعته منك ؟ فقال الأعرابي : لا ، والله ما بعتكه ، فقال النبي ﷺ : بلى قد ابتعته منك ، فطفق الأعرابي يقول : هلمّ شهيداً ، فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : بمَ تشهد ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين . إسناده صحيح .

(٣) أبو بردة بن نيار البلوي ، حليف الأنصار ، له صحبة ، وهو خال البراء بن عازب ، شهد بدراً وأُحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . مات سنة ٤١ أو ٤٢ أو ٤٥ هـ . (تهذيب الكمال : ٧١/٣٣ ، الإصابة : ٣٤/١١) .

(٤) إشارة إلى حديث أبي بردة بن نيار قال : « شهدت العيد مع رسول الله ﷺ ، قال : فخالفت امرأتي حيث غدوت إلى الصلاة إلى أضحيتي فذبحتها ، فصنعت منها طعاماً ، قال : فلما صلى بنا رسول الله ﷺ وانصرفت إليها ، جاءتني بطعام قد فرغ منه ، فقلت : أنى هذا ، فقالت : أضحيتك ذبحناها وصنعنا لك طعاماً لتغدى منها إذا جئت ، قال : فقلت لها ، والله لقد خشيت أن يكون هذا لا ينبغي ، قال : فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : ليس بشيء فضح ، قال : فالتمست مسنة فما وجدتها ، قال : فالتمس جذعاً من الضأن فضح ، قال : فرخص له رسول الله ﷺ في الجذع من الضأن فضحى به حيث لم يجد المسنة » . قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢٤/٤) .

=

وأيضاً إن وجد فقلما ينتفع به في السلوك ، بل يكون أمة وحده .

وأما في الشرع فالدليل عليه أوضح ، كقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النَّحل : ٤٣/١٦] ، /٤٠/ وقوله : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُم ﴾ الآية ، [النِّساء : ٥٩/٤] .

وأيضاً : « العلماء ورثة الأنبياء »[١] . والاستغناء عن الوارث للنبي يشبه الاستغناء عن النَّبي ، لأن النَّبي بعث ليبين الكتاب ، فوارثه أيضاً قد أقيم لمثل ذلك ، وكل صاحب علم شرعي وارث للنَّبي في ذلك العلم ، والأدلة على هذا لا تكاد تنحصر ، وما استدللتم به غير قادح ، فإن التقوى مفتقر فيها إلى هداية الشيخ ، أعني كيفية الدخول فيها بالفعل بحسب كل شخص وحال ، والتحرز من العوارض المخرجة عنها ، وكما أن التقوى إنما تحصل بتدريج ، كذلك نتيجتها على حسبها ، فالفرقان يحصل على تدريج ، وشيئاً فشيئاً ، وبحسب كمال المقدمات يكون كمال النتائج .

وأيضاً فالفرقان يحصل للمتقي بحسب ترقيه في المقامات ، ففي مقام الإسلام يحصل له فرقانه الخاص به ، وفي مقام [٢-]الإيمان ومقام[-٢] الإحسان كذلك ، وفرقان كل مقام نتيجة تقواه الخاصة به ، وكل تقوى لها أصول ومبادئ ، وواردات ، ومواجد وعوارض ، ونتائج تليق بها ، وتظهر استقامة السالك أو اعوجاجه[٣] ، وصحة العمل

= وعن جابر بن عبد الله : أن رجلاً ذبح قبل أن يصلي النبي ﷺ عتوداً جذعاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا تجزئ عن أحد بعدك ، ونهى أن يذبحوا حتى يصلوا . قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجالهما رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢٤/٤) .

(١) هو جزء من حديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ... وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذه بحظ وافر » ، رواه أبو داود رقم ٣٦٤١ ، ٣٦٤٢ ، والترمذي ٢٦٨٣ ، ٢٦٨٤ ، وابن ماجه ٢٢٣ ، جامع الأصول : ٤/٨ ، والترغيب والترهيب : ١٢٠/١ .

(٢-٢) ما بينهما ليس في د .

(٣) في د : « واعوجاجه » .

أو فساده ، فلا بد من الشيخ لها كما تقدم ، وكذلك المجاهدة في إنتاجها الهداية إلى الصراط المستقيم ، كالتقوى في إنتاجها الفرقان ، حتى إذا قطع السالك تلك المسافات ، وجاز تلك المتالف التي لا يعرفها إلا أهلها ، وظهر للشيخ منه التبصر في ذلك كله ، ورجع بأقدام سلوكه إلى مركزه الذي سافر منه ، وقد ألبس خلعة النور الإلهي ، واستقام له النور الفرقاني ، وَكَلَهُ الشيخ إلى الله الذي به الهداية في الأول والآخر .

فإن تيسرت له بعد هذا أسباب التربية دخل فيها على بينة ، غير تارك للاهتداء بشيخه عاش أو مات ، فإن النور الذي وضع فيه وألبسه ، وإنما حصل له من ذلك الطريق ، فإن تركه انطمس عنه ذلك النور .

هذه السُّنة جارية في الشيخ والتلميذ مطلقاً ، إنما هي سلسلة متصلة إلى رسول الله ﷺ ، من وصلها وصل ، ومن قطعها انقطع .

قلت : ردَّدَ النافون امتناع السلوك بدون شيخ[١] بين الامتناع لذاته ، أو لأمرٍ خارج ، وهو العادة ، أو الشرع ، ونفوا الامتناع بحسب الذات ، ووافقهم المناظر عليه ، ونازعهم في الامتناع العادي والشرعي .

واعلم أن حصر الامتناع في هذه الثلاثة ممنوع ، وامتناع هذا السلوك بدون الشيخ إنما هو لوصفه ، وهو كون مداركه الوجدانية ذوقية ، لا يمكن فهمها إلاَّ بتعيين الشيخ المدرك لها تعييناً شفاهياً ، وكل ما امتنع لوصفه فقد يوجد عند تخلف ذلك الوصف يوماً ما ، وتمييز المدارك الوجدانية قد يكون بتسديد من الله وإلهام[٢] لمعرفة أعيانها ، ولا يكون ذلك إلاَّ لأفراد من الخلق على سبيل الكرامة التي هي أخت المعجزة ، التي تقلب الممكن العادي أو المستحيل عن طبيعته ، لكن لا يظهر للمريد وإخوانه صحة

---

(١) في د : « الشيخ » .

(٢) كلمة « وإلهام » ليست في د .

السلوك إلاَّ بعد حصول الثمرة ، وهو المطلع ، فإذا تيقن حصولها علم أن الله تولى أمره وهدايته .

ولما كان رفع الامتناع بعناية الله وهدايته خرقاً للعادة[١] ، فلا يقاس عليه ، ولا يعتمد المريد السلوك بغير شيخ ، وإن كان ممتنعاً لما فيه من اشتباه مداركه[٢] على من لم يجدها تعويلاً على أن الله تعالى يتولى هدايته في ذلك ، فإن هذا حمق من الفعل ، وهذر من القول ، كما يقول من يباشر النار تعويلاً على أن الله جعلها على إبراهيم برداً وسلاماً فيقول : أباشرها والله يقيني منها ، وكما يعتمد شرب السّم القاتل تعويلاً على كرامة خالد بن الوليد في شربه ، ولم يضره[٣] .

ولا يرتفع الممكن عن إمكانه ، ولا الممتنع عن امتناعه بخرق العادة على سبيل المعجزة والكرامة ، بل يجب على المريد أن يكون مشفقاً في كل وقت - وإن ظن الهداية - من أنها إملاء[٤] حتى يظفر بالغرض المطلوب ، ويعلم أن نعمة الله عليه قد تمت . وهذا من الندور بحيث لا يعتمد عليه سالك ، فالامتناع الذاتي غير صحيح ، كما اتفق عليه المتناظران ، والامتناع العادي مردود كما زعم المناظر على اشتراط /٤١/ الشيخ ، ولا يقدح في الامتناع الوصفي مادام الوصف ، وامتناع الوصف أقل نادر ، فلا يجعل عمدة في اشتراط الشيخ في هذا السلوك الذي هو ضروري له كما تقدم .

(١) في د : « للعادات » .

(٢) في د : « مداركها » .

(٣) أخرج أبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم عن أبي السفر قال : نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له : احذر السّم لا تسقيكه الأعاجم ، فقال : ائتوني به فأخذه بيده ثم التهمه ، وقال : بسم الله فلم يضره شيئاً .
وأخرج أيضاً عن الكلبي قال : لما أقبل خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر يريد الحيرة بعثوا إليه عبد المسيح ومعه سم ساعة ، فقال له خالد : هاته ، فأخذه في راحته ، ثم قال : بسم الله وبالله ربّ الأرض والسماء ، بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه داء ، ثم أكل منه ، فانصرف عبد المسيح إلى قومه فقال : يا قوم ، أكل سم ساعة فلم يضره ، صالحوهم فهذا أمر مصنوع لهم . (جامع كرامات الأولياء : ١/٨٠) .

(٤) هكذا في د وفي ح : « أصلاً » ؟

وأما الامتناع الشرعي فلا أدري من أين منعه النافون ، فإن غاية دليلهم أن التقوى كفيلة بالنور الفرقاني ، والمجاهدة كفيلة بالهداية ، وهذا مطلق ، فما المانع في[1] تقييده بالاقتداء بالشيخ ، كما يفعل في كثير من مطلقات الكتاب والسُّنة ، هذا إن أريد بالتقوى والمجاهدة سلوك الكشف والاطِّلاع الذي تبين أن المعلم المفهم لمداركه ضروري الوجود .

وأما مجاهدة الاستقامة والتقوى فقد بَيَّنا أن مداركها متعارفة معلومة متفهمة في التخاطب من حملة الشريعة ، إذ ليست مداركها[2] وجدانية ، فيمكن وجودهما[3] تعويلاً على الكتب والنقل دون الشيخ ، إلا أن وجود الشيخ أكمل كما قدمناه ، فلا يحتاج في إطلاق الآيتين[6] إلى تقييد باعتبارهما .

وأما قول المناظر : « العلماء ورثة الأنبياء »[7] ، فالاستغناء عن الوارث يلزم منه الاستغناء عن النَّبي ، وكل صاحب علم شرعي وارث للنَّبي في ذلك العلم » .

فاعلم أن للنَّبي [في ذلك][4] ثلاثة أحوال :

حالة عامة : من حيث هدايته الخلق[5] ، وهي طلب النجاة للمكلفين .

وحال خاصة : وهي مجاهدته في نفسه التي هي فرض عينه ، وهي الاستقامة ، والتَّخلُّق بالقرآن .

---

(١) في د : « من » .

(٢) في د : « مداركها » .

(٣) في د : « وجودها » .

(٤) ما بين معقوفتين زيادة من د .

(٥) في د : « للخلق » .

(٦) أي آيتي الأنفال : ٢٩ ، والعنكبوت : ٦٤ .

(٧) تقدم تخريج الحديث في هامش ص ١١٩ .

وحال هي خاصة الخاصة : وهي سلوكه طريق الاطّلاع بالتحنث بغار حراء[١] ، منفرداً عن الخلق ، وما كان يعرض له أثناء ذلك من واردات ، ومواجد ، مما يتولى الله فيها هدايته وتربيته .

وهذا السلوك الكشفي قطرة من بحر ذلك السلوك ، وظل من أعلامه ، وإن كان تفاوت ما بينهما[٢] تفاوت ما بين السراج والشمس ، لا بل السراج أقرب إلى الشمس ، لكنه منه على جهة المثال والتقريب ، والمقصود الأول للمكلفين - من حيث اتباع الأنبياء والاقتداء بهم - إنما هو طلب النجاة ، وفيه تكون حقيقة الوراثة للعلماء ، ولا يمكن الاستغناء عنها بوجه ، إذ هي رأس المال ، وبضاعة الإيمان ، فلا يمكن الاستغناء عن وارثها عن النبي ﷺ .

وأما طلب الاستقامة والتخلق بأخلاق الأنبياء التي هي فرض عينهم ، فأكمل في حق المكلفين ، سَمَوا بها إلى الدرجات العلى ، واقتناصها من العلماء والكتب في حق من طلبها وتقيد لأحكامها ضروريّ ، فلا يمكن الاستغناء عن الوارث فيها .

والمراد بالوارث في الأمرين حامل[٣] الأحكام الشرعية الداخلة تحت المعاني المتعارفة .

وأما طريقة هذا السلوك الذي هو خاص الخواص فأمر مضايق في مشروعيته[٤] من الوارثين الذين هم العلماء ، ويمكن الاستغناء عنه رأساً ، أو يجب على قول المانع

(١) التَّحنُّث بغار حراء : عن عائشة رضي الله عنها : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، كان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التَّعبُّد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .. » ، صحيح البخاري : ١٤/١ .

(٢) في د : « ما بينها » .

(٣) في د : « حال » .

(٤) في د : « مشروعية » .

له ، إذ لم يعرف الصدر الأول من الصحابة والسلف شيئاً منه ، ولا عَوَّلُوا على مسلكه ، إنما كانوا بين طالب نجاة ، أو طالب استقامة ، متخلق بأخلاق النبي ﷺ وأفعاله ، فكيف الاستغناء عما هو شرط فيه من وجود معلم أو غيره ؟

وأما اختلاف التقوى والمجاهدة الذي ذكره المناظر باختلاف المقامات ، واختلاف نتائجها فصحيح ، والتقوى في مجاهدة التقوى والاستقامة متفهمة المدارك أصولاً ، ومبادئ ، وواردات ، ومواجد ، وعوارض ، ونتائج ، لأنها كلها من قبيل المتعارف ، وأما في مقام السلوك الكشفي فمعانيها ومداركها غير متفهمة أصولاً ، ومبادئ ، وعوارض ، ونتائج ، لما قدمناه ، فلابد من الشيخ المميز لأعيانها ، وغير ذلك من كلام المتناظرين ظاهر .

فقالوا : « هذا قد يكون معمولاً به مع وجود الشيخ وعدم تعذره ، وأما في هذه الأزمان فهو معدوم ، وإن كان موجوداً فنحن لانعرفه ، وإذا لم نعرفه فماذا يصنع طالب السلوك إن لم يتلقّ سلوكه من الكتب ؟ » .

فقال لهم : « إن كان شيخ هذا الطريق الخاص يعدم ظهوره ، فهو في نفسه غير معدوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وأما في الطريق العام لجميع الخلق فهو ظاهر موجود ، ولا يخلو المريد هنا أن يكون سالكاً أو مجذوباً ؛ فإن كان سالكاً قصر نفسه على امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، حسبما يسلمه له[1] شيخ الفقه /٤٢/ في طلب طريقه من غير ميل إلى تفريط ولا إفراط ، ولا ركون إلى تساهل ولا تشديد ، وغير تارك لصناعته الجائزة إن كان صانعاً ، ولا علمه إن كان عالماً أو متعلماً ، ولا زائد[2] على نفسه من النوافل والمندوبات ما يضيق فيه على نفسه في معاشه أو راحة نفسه ، بل يكون بحيث لا يظهر له انحياز عن الناس ، ولا خروج عن جملتهم ، إلاَّ في الأمور غير الجائزة ، إذا اجتنبها ولم يجتنبوها ، أو الواجبة إذا قام بها ولم يقوموا بها .

(١) كلمة « له » ليست في د .

(٢) في د : « زائداً » .

ولعل هذا المقدار أيضاً يحتاج فيه إلى الشيخ ، ولكنه قريب يكتفى فيه بالفقيه المفتي ، ثم يصنع ما يصنعه طالب علم الفقه ، أو الأصول ، أو الحديث ، أو غير ذلك من العلوم الشرعية ، من البحث عن معلم ، والسؤال عنه ، والرغبة إلى الله في سره أن يسنيه له على ما يحبه ويرضاه . فإن دلّ على محق معروف بالصفات المعتبرة في الشيخ ، وقد ذكرها الناس رحل إليه - إن قدر - وإلا كاتبه بحاله .

وإن لم يجد تمادى على طلبته ورغبته ، وما كتب[1] الله له فسيبلغه لا محالة .

وأما المجذوب وهو المأخوذ عن نفسه ، غير المالك لها ، اشتغالاً بربّه ، وانقطاعاً إليه ، بحيث لا يرجع إلى تدبير نفسه ، ولا يقدر على ذلك ، فوظيفته - إن أشكل عليه أمر - أن لا يقتدي بالكتب فيه ، بل إن كان من قبيل ما عند الفقيه رجع إليه فيه ، وإن كان من قبيل آخر فصدقه في خدمة من جذبه إليه ، يهديه إليه بأي وجه شاء ، وإنما عليه أن لا يعتمد على كتاب ، ولا على ناقل من[2] كتاب ، إذا[3] لم يكن من العلم والتحقيق بما ينقله . والله الموفق للصواب » .

قلت : ادّعى النافون عدم هذا الشيخ ، وجعلوا ذلك[4] دليلاً على عدم اشتراطه ، وإنما يكون دليلاً على ذلك لو وجب هذا السلوك بمقتضى الشرع أو العقل ، حتى يكون وجوده دون الشيخ دليلاً على عدم اشتراطه ، كيف ونحن قد قدمنا مضايقة أهل الفتيا في مشروعيته ، لكن نحن لا نقول بذلك ، بل نقول : إن وجد الشيخ اقتفى هذا السلوك ، وإن فقد ترك ، خيفة من الغرر وارتكاب الخطر ، حتى يخلقه الله .

وأما ادّعاء المناظر أنه لا يفقد حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فدعوى غريبة ،

---

(١) في د : « كتبه » .

(٢) في د : « عن » .

(٣) في د : « إذ » .

(٤) جملة « وجعلوا ذلك » ليست في د .

وما ذهب إليها إلا بعض المتصوفة المتكلمين في علوم المكاشفة ، والقائلين بالقطب ، والأوتاد ، والأبدال ، وقد قدمنا مذاهبهم وزيّفناها ، وبيّنا فسادها .

والحق أن الشيخ السالك من جملة أمور الكائنات الجزئية التي توجد زماناً ، وتفقد زماناً ، فإذا وجد استقام السلوك ، وإذا فقد ترك السلوك لفقدان شرطه ، حتى يهيئه الله عزّ وجلّ ، فيعثر على الطريق بعض أولياء الله كرامة له ، وإلهاماً وتسديداً ، وعناية ، ويقع التعليم منه والتربية في جيل بعد جيل ، إلى أن تنقطع السلسلة بعد أعصار متعددة ، وأزمان متعاقبة ، فننتظر رحمة الله في بعثه ، والله أعلم .

وقول المناظر : وأما في الطريق العام لجميع الخلق فهو ظاهر موجود . فالظاهر منه أنه فرض الكلام في اشتراط الشيخ في سلوك الكشف ، وفي سلوك الاستقامة والتقوى ، وقد بيّنا اختلاف ما بين هذه المجاهدات ، وأن الأوليين منها لا يشترط الشيخ فيها ، بخلاف الثالثة فيكون الطريق العام على هذا التقدير طريق الفتيا ، وشيخها المفتي ، وهو غير مفقود في الأكثر ، وربما يفقد فيرجع إلى الكتب ، وتقتبس منها الفتاوى ، إذا صحت الأصول وثبت إسنادها ، حتى تحصل لبعض الأساتيذ ملكة مستحكمة فيعود التعليم ، ولا ضير في فقدان الشيخ في هذه الطريق ، إذ لا غرر فيها ولا خطر ، بخلاف سلوك الكشف .

ثم قسم المناظر المريد إلى سالك ومجذوب ، وزعم أن المريد إذا فقد الشيخ يقتصر على الطاعات ، مقتدياً بإمام الفتيا ، مقبلاً على معاشه وصناعته ، راغباً إلى الله في دلالته على الشيخ .

وليت شعري إذا فقد هذا السلوك رأساً ما الذي يفقده المريد ؟ بل هذا السلوك ـ واللهِ ـ أقربُ إلى الخطر وأمس إلى الغرر ، إلا من عصم الله ووفق ، وهل بعد حصول الاستقامة التي هي خلق الأنبياء والصدّيقين ، وخلق القرآن سلوك يطلب ؟

ثم قال : « فإن دلَّ على محق معروف بالصفات المعتبرة في الشيخ ، وقد ذكرها /٤٣/ الناس رحل إليه ـ إن قدر وإلاَّ كاتبه بحاله .

قلت : وكيف تصح المكاتبة أو تفيد ؟ وهو يقرر من أول مناظرته أن التعليم من الكتاب لا يفيد شيئاً ، ولا يستند إلى النقل سالك ، وبيَّن دخول الضرر على المقتدي بالكتب ، وأي فرق بين الكتب المؤلفة ، وكتاب يكتبه سالك من بلدٍ بعيد ؟ وكله استناد إلى النقل والكتاب ، وإنما في خطاب الشيخ بُعد مكاني ، كما في الكتب المسطرة بُعد زماني .

ثم إنه شرح وظيفة المجذوب .

واعلم أن المجذوب لا وظيفة له ، فإنه عندهم المختطف عند المطلع ، مثل : بهلول وغيره من مجانين أهل السلوك ، وهو فاقد لعقل التكليف أبداً ، ولم تبق له وظيفة ، إذ الوصول قد حق ، والوظائف إنما هي وسائل للوصول ، وهذا المجذوب الذي قد وصل ، وشاهد الأنوار ، وجذب عن نفسه وعقله ، فهو لا يدري ما الكتاب ؟ ولا الإيمان ؟ ولا النقل ؟ إنما هو سابح دائماً في بحر المعرفة والتوحيد ، مختطف عن الحس والمحسوس .

خاتمة وتحقيق :

ما زال يختلج في نظري أن المجذوب فاقد لعقل التكليف[1] ، وهو أدون مراتب النوع الإنساني ، فيكون خارجاً عن زمرة المؤمنين بما سقط عنه من التكليف وسيما العبادات . فكيف يُلحق بمراتب أولياء الله ، ويعدُّ منهم ؟ كما هو معلوم قديماً وحديثاً وغير نكير ، حتى ألهم الله إلى كشف الغطاء عن ذلك بمنّه وهدايته :

وذلك أن العقل الذي ناط به الشرع التكليف هو عقل [تدبير][2] المعاش ، وهو

(١) في د : « التكليف » .

(٢) ما بين معقوفتين زيادة من د .

قيام الإنسان على معاشه وتدبير منزله ، فإن فقد هذا العقل لنقص في ذاته ، وفي لطيفته الروحانية ، كسائر الحمقى والمجانين نزل عن رتبة النوع الإنساني ، ولم يكن من الإيمان[١] في شيء فضلاً عن الولاية ، وإن فقد هذا العقل لفرق في بحر الأنوار الإلهية ، وقلة تعريج على المحسوسات بما حملت ، فلا يضره ذلك ، ولا ينزل به عن رتبة النوع ، بل تعلو لديه رتبة الإيمان ، وتصح له الولاية بما عنده من مشاهدة أنوار المعرفة ، وله في حفظ مقامه ـ مع سقوط التكاليف ، وبتر أسباب وصوله الحاصل لديه ـ حكم شرعي غريب اتفق عليه أهل الطريقة المفوض علم ذلك إليهم ، فقد قدمنا أن الأحكام الشرعية إنما تتعلق بمداركهم بعد وجدانها وذوقها ، وليست تخفى الأحكام الشرعية في حقهم لالتباسها ولا لخفائها ، وإنما هو لأجل خفاء ما تتعلق به من مداركهم الذوقية ، وإذا حصل لهم الإدراك الذوقي بحال ، أو وارد ، أو إلقاء ، أو غير ذلك علموا كيف يتعلق حكم الله به ، وربما يستغرب في حقهم حكمٌ ما ، وإنما هو لغرابة متعلقة من تلك المدارك الذوقية ، فلا يستنكر ذلك منهم[٢] ، فهم أعلم بمداركهم ، والسعادة أصلها التخصيص .

وقد انتهى كلام المتناظرين ، وانتهى بنا نحن الكلام بانتهائه[٣] .

والله يرشدنا إليه ، ويدلنا على السعادة بمعرفته ، ويهدينا إلى صراطه المستقيم ، ويجعل أعمالنا خالصةً لوجهه ، عائذةً برضاه من سخطه ، إنه على ما يشاء قدير[٤] .

تمّ التقييدُ المسمّى بـ (شفاء السائل في تهذيب المسائل) للشيخ الرئيس أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، نفعه الله بذلك ، جواباً عن المناظرة الصوفية التي

(١) « من الإيمان » ليست في د .

(٢) في د : « فلا يستبعد ذلك عنهم » .

(٣) في د : « لانتهائه » .

(٤) في آخر نسخة د : كمل بحمد الله وحسن عونه ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده ، وعلى آله وصحبه من بعده ، وسلم كثيراً ، وكان الفراغ منه يوم الإثنين التاسع والعشرين من جمادى الأولى الذي من عام تسعين وثمان مئة ، عرّفنا الله خيره بمنّه وكرمه .

كتبها الشيخ الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله سائلاً من علماء عصره ، بالعدوة المغربية الجواب عنها والفصل فيها .

وكان الفراغ من تقييده في وسط جمادى الآخرة عام ستة عشر وثماني مئة ، عرف الله بركته على يدي عبيد الله المشفق من ذنبه الراجي عفو ربِّه محمد المدعو بأبي يحي بن محمد بن محمد بن عاصم بن أبي عاصم القيسي ، لطف الله به في الدارين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

انتهى كا وجدته حادي عشري جمادى الأخرى عام ١١٤٣ من خط من ذكر ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . أحمد بن عبد العزيز وفقه الله بمنّه .

في هامش الأصل : « في حاشية المنتسخ منه ما نصه : بلغت المقابلة بالأصل المنتسخ ... فهمي للإصلاح » .

« بلغت المقابلة ثانية بالأصل المجتلب إلى المغرب ، وهو واصل جواباً للشيخ ... رضي الله عنه » .

ملحق

يتضمن ثلاث رسائل :

١ ـ جواب مسألة سلوك التصوف لابن عبّاد .

٢ ـ فتوى أبي العباس القباب في السلوك الصوفي من شيخ أم لا ؟

٣ ـ حكم الالتزام بالشيخ في التربية الصوفية لليوسي .

جواب مسألة سلوك طريق الصوفية

هل يصحُّ ذلك بالكتب الموضوعة فيه ؟ أو لا بد من الشيخ

وفيه ذكر الطريق الموصل إلى الله

للشيخ المحقّق العالم الرَّباني محمد بن إبراهيم بن محمد

المعروف بابن عباد الرُّندي النفزي

ترجمة ابن عباد

هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك النفزي الحميري الرُّندي ، أبو عبد الله المعروف بابن عبّاد ، الفقيه الواعظ ، الزاهد ، العارف ، الصوفي الكبير ، الخطيب ، الحسيب ، ولد ببلده رُندة سنة ٧٣٣ هـ ، وحفظ القرآن ابن سبع سنين ، واشتغل بالنحو والفقه والأصول ، حتى رأس فيها ، ثم أخذ في طريق الصوفية ، وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات ، وألّف فيه تآليف بديعة ، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ، وله كلام عجيب في التصوف وصنف فيه منها (شرح الحكم) لابن عطاء الله ، و (الرسائل الكبرى) في التوحيد والتصوف وغيره ، و (الرسائل الصغرى) ، و (شرح أسماء الله الحسنى) ، و (بغية المريد) .

تنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة ، واستقر إماماً وخطيباً بالقرويين بفاس ، وكان آيةً في التحقيق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة وعدم المبالاة بالمدح والذّم ، بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق وعدم المبالاة بهم ، وقيل عنه : إنه واحد عصره بالمغرب ، وقيل : ابن عبّاد أمة وحده . كان الغالب عليه الحياء من الله تعالى ، لا يرى لنفسه مزيةً على مخلوق .

توفي ـ رحمه الله ـ بعد عصر يوم الجمعة ثالث رجب سنة اثنتين وتسعين وسبع مئة بفاس ، وحضر جنازته الأميرُ فمن بعده ، ولم ترَ جنازة أحفل ولا أكثر خلقاً منها ، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر .

(سلوة الأنفاس : ١٣٣/٢ـ١٤٢ ، نفح الطيب : ٣٤١/٥ـ٣٥٠ ، الأعلام : ٢٩٩/٥) .

أجاب ابن عباد ـ رحمه الله ـ على سؤال الشاطبي ـ رحمه الله ـ برسالتين : إحداهما مطولة ، والأخرى مختصرة .

أما المطولة فقد نشرت في (المعيار المعرب والجامع المغرب) ، الجزء الثاني عشر من الصفحة ٢٩٣ حتى الصفحة ٣٠٧ ، بتحقيق د . محمد حجي ، طبعة دار الغرب الإسلامي .

أما الرسالة المختصرة فهي الرسالة السادسة عشرة من الرسائل الصغرى لابن عباد التي نشرت ببيروت سنة ١٩٥٧ م ، وهي مختصرة عن المطولة ، وقد ألحق محقق الرسائل الصغرى النص المطول بآخر الرسائل اعتماداً على كتاب المعيار .

وكذلك اعتمد الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي في نشر نص الرسالة المطولة على (المعيار المعرب) .

وقد اعتمدت في إخراج النص على الإجابة المطولة من (المعيار المعرب) مع المقابلة على نص الرسالة السادسة عشرة من الرسائل الصغرى . وذلك لأن المطولة تضم المختصرة .

وقد قدمت بتعريف مختصر للشاطبي والونشريسي وابن عباد .

ترجمة الشاطبي

هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي من أهل غرناطة ، كان من أئمة المالكية ، من كتبه : (الموافقات في أصول الفقه) و (الإفادات والإنشاءات) و (الاعتصام) و (شرح الألفية) .

توفي سنة ٧٩٠ هـ ، (نيل الابتهاج ص ٤٦ ، الأعلام : ٧٥/١) .

ترجمة الونشريسي

هو أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي (نسبة إلى ونشريس جبل مرتفع في غرب الجزائر) .

ولد عام ٨٣٤ هـ ونشأ بمدينة تلمسان ، وأخذ فيها على جماعة من الأعلام ، وأخذ أيضاً بفاس عن عددٍ من علمائها .

ثم هاجر واستقر بفاس يدرس الفقه المالكي بالقرويين وغيرها . وتخرج عليه عدد وافر من الفقهاء في فاس وغيرها ، من أشهرهم ولد عبد الواحد قاضي فاس ومفتيها .

ألّف عدداً من المؤلفات أكثرها في الفقه المالكي .

توفي بفاس سنة ٩١٤ هـ .

ترجمته في :

- دوحة الناشر لابن عسكر ص ٤٧ .
- فهرس أحمد المنجور ص ٥٠ .
- نيل الابتهاج ص ٨٧ .
- مقدمة المعيار المعرب ص أ-ك طبع بالمغرب - وزارة الأوقاف ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م .

سؤال في علم التَّصوُّف

[سؤال أبي إسحاق الشاطبي لابن عبَّاد عنِ الشَّيخ والسلوك]

كتب به من غَرْناطة قاعدة الأندلس الشيخ العالم العارف المحقق سيدي أبو إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله ـ للشيخ المحقق العالم الصالح الرَّبّاني أبي عبد الله سيدي محمد بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحي بن عبّاد النفزي الرّندي ، أفاض الله علينا من بركاتهم ، ومنحنا حظّاً وافراً من عنايتهم .

فأجاب رحمه الله ونفع به بما نصه :

الحمد لله حقَّ حمدِه ، والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّدنا محمد رسوله وعبده ، وعلى آله وصحبه وسلم . من محمدِ بن عبّاد لطف الله به إلى أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي وصل الله حفظه ، وأجزل من خير الدَّارَيْن حَظَّه ، بمَنِّه وكَرَمِه . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد :

فقد بلغني كتابكم ، وتعرفت منه ما طلبتم[1] . والذي أُعلمكم به ـ قبل كل شيء ـ أني لست بأهل للأخذ في مثل ذلك ولا أستحسنه من نفسي لوجوه :

أحدها : أني أعلم قصور باعي في فنِّ التَّصوف من قبل أني لم آخذ فيه مع من له ذوق وتحقَّق فيه من أهله ، ولم أُعْنَ بتطلبهم والبحث عليهم . وأكثر شأني إنما هو الاشتغال بمطالعةِ بعض كتب القوم لا غير ، فإن تكلَّمتُ في ذلك بشيء كنت عُرْضَةً لوقوعِ الزَّلَلِ والخطأ منِّي كثيراً .

(١) بعده في الرسائل الصغرى ص ١٠٦ : وقد تصفحت كل واحد من الكتابين اللذين بعثتم بهما إلى سيدي أبي العباس القباب وعلمت مضمنها .

والثاني : أنَّ في ذلك من سوء الأدب معهم ، لأنهم عباد الله المخصوصون بالقرب والولاية له ، ومن هو في غاية البعد ونهاية الأجنبية منهم في النسبة ، كيف يجمل به أن يخبر عنهم أو يذكر حالهم ، والكلام على الأمر المطلوب يستدعي ذلك .

والثالث : أن النية منا يبعد تخلصها في ذلك ؛ إذ غاية ما يعرض أن يكون كلامي فيه تعليماً لجاهلٍ بأمرٍ غيرِ واجبٍ عليه في ظاهر الشرع ، ولا يصح ذلك إلا ممَّن فرغ من تأديب نفسه وعمل على خلاصها بما هو بصدده من ارتكاب الآثام ، واجتناب الإجرام ، فإن اشتغل مع هذه الحال بغيره في شيء لا يلزمه لم تتخلص فيه نيته ، ولم تتحصل له أمنيته ، وكان متكلفاً آخذاً بما لا يعنيه[1] .

فهذه وجوه ثلاثة في كل واحد منها كفاية في وجوب الكفِّ عن هذا الأمر ، لكني أقول ـ على حسب ما ألفناه واعتدناه من الاسترسال في مثل هذا على سبيل القربة والحسبة ـ: قد قرأت كتابيكم وفهمت مُضَمَّنَهما ، ولا يمكنني أن أتكلم على جميع فصولهما بتصحيح أو إبطال ، لأنَّ الكلام فيهما قد طال وتشعَّب وذهبَ كلَّ مذهب .

وأنا أذكر لكم ما فهمته في أمر الشيخ وما ظهر لي في كيفية بداية السلوك إلى الحق على حسب الاختصار والإيجاز ، لأني أرى الكلام في هذا الفن وما يتعلق به ، القليلُ منه أولى من الكثير ، والإيماء والتلويح ، أبلغ في الإفصاح والتصريح .

وبذلك يتبين ما عندي من فصول المناظرة ، ولا ألتزم كون ما أذكره صحيحاً في نفس الأمر حتى نحتاج إلى نصب الأدلة والبراهين على ما ندعيه ، وإنما نسوق ذلك على حسب مذهبٍ من المذاهب ، والمتجرد لذلك يصححه أو يبطله إن أحب .

---

(١) إشارة إلى الحديث النبوي : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه الإمام مالك في الموطأ : ٩٠٣/٢ ، والترمذي رقم ٢٣١٨ ، ٢٣١٩ ، وابن ماجه ٣٩٧٦ ، والحديث صحيح (جامع الأصول : ١٣٤/١٠ ، ٧٢٩/١١) .

وما وقع فيه من نوع استدلال على مطلب من المطالب ، فأنا في ذلك متبرع ، فإن صحَّ ذلك الدليل فهذا المطلوب ، وإن بطَل لم يلزم من بطلانه بطلان المدلول ، ويبقى المذهب قابلاً للتصحيح أو الإبطال من غير أن يتوجه على مطالبةٍ بذلك .

والحامل لي على سلوك هذا السبيل ما فيه من وجدان السلامة لي من الخطر الذي يتعرض له كل من يتكلم على طريق التصوف ممَّنْ لا تحقيق له فيه ، ويدَّعي صحة ما ينظره بعقله وفهمه وينسب ذلك إلى القوم ، ولعلَّ شيئاً من ذلك لا يصح عندهم ، فيكون بذلك مفترياً كذّاباً عليهم .

ثم فيه من سوء الأدب معهم والتقدم بين أيديهم ما لا يستقيم به شيء ، وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحس والحركة أولى به في عاقبته ، فيخلص بذلك من شر لسانه ويده .

ثم إن ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن أراده الله تعالى بذلك ، فعلى العبد أن يعمل على خلاص نفسه ، ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره . وقد قيل : « رضا الناس غاية لا تدرك » ، فإن استحسنتم ذلك وانشرحت له صدوركم فَبها ونِعِمَّتْ ، وإلاَّ فاجعلوني أحدَ المتناظِرَيْن ، وقدِّروا كلامي في ذلك مذهباً ثالثاً لهم ، وسلوا عن جميعها من يَدُلُّكم الله تعالى عليه ويهديكم إليه . وإن رأيتم أن تعلمونا بما يستقرّ عليه الحال من بيان أو إشكال فحسن ، والله تعالى يفتح علينا وعليكم وهو الفتّاح العليم .

الذي أراه أن الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة أمر لازم لا يسع أحداً إنكارُه ، وكان هذا من الأمور الضرورية ، لكن الشيخ شيخان : شيخ تعليم وتربية ، وشيخ تعليم بلا تربية .

فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك ، وإنما يحتاج إليه من فيه بَلادةُ ذِهنٍ واستعصاء نفس . وأما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه ، وتقيده به من باب أولى .

وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك ، وكتب أهل التصوف مرجعها إلى شيخ التعليم ، لأن الاستفادة منها لا تصح إلا باعتقاد الناظر فيها أن مؤلفها من أهل العلم والمعرفة ، وممَّن يصح الاقتداء به ، ولا يصح هذا الاعتقاد إلاّ من قبل شيخ معتمد عليه عنده ، أو من طريق يثق به ، فإن كان ما يستفيد منها بيِّناً موافقاً لظاهر الشرع اكتفى بذلك ، وإلاَّ فلابدَّ له من مراجعة شيخ يبينه له . فالشيخ إذن لا بدَّ منه على كل حال ، لأن الشيخ دليل على طريق الله تعالى بمنزلة الدليل على الطريق المحسوسة ، كما ذكره أصحاب المناظرة . وقد قيل : « من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه » . أما كون شيخ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكين فظاهر ، لأن حجب أنفسهم كثيفة جداً ، ولا يستقل برفعها وإماطَتِها إلاّ الشيخ المربي ، وفيهم يتحقق أكثر ما ذكره مشترطو الشيخ من أصحاب المناظرة وألزموه لخصومهم ، وهم بمنزلة من لهم علل مزمنة من المرض ، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية الظاهرة .

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس ، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه ، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه الشيخ شيخ التعليم ، أو يأخذه من الكتب ما لا يستقيم لغيره ، وهو واصلٌ بإذن الله تعالى ، ولا يُخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه ، وأتاه من بابه ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . إلا أنه قد لا يكمل كما يكمل من تقيد بالشيخ المربي ، لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب عظيمة الأشراك ، فلابدَّ من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر . ولذلك قلنا أنه من باب الأولى .

فإن تقيّد به لزمه من الأحكام التي يلتزمها مع الشيخ ما لزم الآخر ، فيجب عليه أن يطالعه بجميع أموره ويعرض عليه ما يستفيده من شيخ التعلم ومن الكتاب ، ولا يعتمد على شيء من ذلك ولا يعمل به إلا بإذنه .

واعتماد الشيخ المربي هو طريقة الأئمة المتأخرين من الصوفية ، وشأن سالكي هذه الطريقة تهذيب أخلاقهم ورياضة نفوسهم بما يُلزمهم من الدُّخول في الخلوة ، وملازمة الذكر الذي يلقنه لهم ، والتقليل من الطعام والكلام والمنام ، إلى غير ذلك من الأحكام التي يلتزمون بها مع الشيخ المربي ، فإذا تموا على سلوكهم تحت إيالة شيخهم كانوا كاملين وصلح الاقتداء بهم الصلاحيةَ التامة .

[شروط شيخ التربية]

ويشترط في هذا الشيخ شروط ذكرها أئمة هذا الشأن - رضي الله عنهم - ويشترط فيه أن يكون مُنفرداً بالتربية للسالك .

واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم ، ويظهر هذا من كتب كثير مصنفيهم كالحارث بن أسد المحاسبي ، والشيخ أبي طالب المكي[1] وغيرهما ، من أجل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين ، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها ، وسوابقها ولواحقها ، لا سيما الشيخ أبي طالب ، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك ، وشأن سالكي هذه الطريقة هو تهذيب أخلاقهم ورياضة نفوسهم باستعمالهم العلم الظاهر والباطن في أحوالهم التي تختلف عليهم من غنى أو فقر ، أو صحة أو مرض ، أو حضر أو سفر ، أو رخاء أو شدة ، أو فرح أو حزن ، أو غير ذاك من الأحوال التي تتجدد عليهم ، فيتصرفون في كل حالة من هذه الأحوال بما يلقيه شيخ التعليم إليهم من أحكام الشريعة والطريقة على ما يرونه لائقاً بحالهم ، وأقرب إلى سلامة عقولهم وأبدانهم ، من غير إفراط ولا تفريط .

---

(١) تقدمت ترجمتها .

ولا يشترط في شيخ التعليم الانفراد كما يشترط ذلك في شيخ التربية ، وهذه هي الطريق السابلة التي انتهجتها أكثر السالكين ، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين ، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية ، وتقيَّدوا بهم ، والتزموا معهم ما يلتزمه التلميذ مع الشيخ المربِّي ، وإنما كان حالهم اقتباسَ العلوم واستصلاحَ الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضُهم لبعضٍ ، ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثرَهُ في بواطنهم وظواهرهم . ولذلك جالوا في البلاد وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعبّاد .

وشيخ التربية في هذه الأزمنة متعذِّر ، ووجودُهُ أعزُّ من الكبريت الأحمر ، هذا هو الظاهر .

وإذا كانت هذه المسألة التي وقعت المناظرة فيها وهي من مبادئ تصور وجه السلوك وكيفيته اتسعت واستعجم أمرها ، فكيف يكون الحال في نفس السلوك ومداواة ما يعرض فيه من الآفات والعلل ، ولست أدري أي المصيبتين أعظم : فقد الشيخ المربِّي ، أو عدم التلميذ الصادق فـ ﴿ إنّا للهِ وإنّا إليْهِ راجِعونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦/٢] .

فإن قيل : فماذا يصنع إذن من يلزمه اتِّخاذ شيخ التربية في هذا الزمن الذي بلغ الغاية في الفساد ، واستولى فيه الجهلُ على كافة العباد ؟ وهل يستقيم له سلوك سبيل المتقدمين في زمانهم وهو أحسن الأزمان ، ومع إخوانهم وهم أفضل الإخوان ؟ وذلك لقربه من زمن النُّبوة التي انتشرت فيه أنوار الإيمان واليقين ، وتمكن الدين بذلك أي تمكين ، فالمؤمنون كلهم إذ ذاك مستقيمون في عقائدهم وأعمالهم وأحوالهم ، والكائن بينهم على غير سبيلهم ومناهجهم نادر ، وما أرى هذا إلاّ بعيداً ، لا سيا مع بلادة ذهنه واستعصاء نفسه على حسب ما فرضتم .

فأقول : ليس ذلك ببعيد ، وذلك أن حالة التصوف مخصوصة بمخصوصين ، لا يفتح بابها ولا يرفع حجابها إلاّ لمن آثره الحق تعالى واصطفاه ، واختصه واجتباه .

وكل من اصطفاه الحق تعالى واختصه لا سبيل إلى كون من الأكوان إليه ، بل يتولاه الحقُّ تعالى بحفظه ونصره ، ويَمُدُّه بمعونته ويسره ، وعليه أن يفعل ما يفعله سالكو تلك الطريق ، وذلك بأن يفرّ عن مواضع الفتن والشرور ، ويعتزل مجالس العامة والجمهور ، ويقطع عن نفسه العلائق الظاهرة التي تدعوه إلى ارتكاب الآثام والفجور . فإذا فعل ذلك فليبحث عن أخلاق السلف وأحوالهم مع الله في إقامة عبوديته وإخلاص مساعيهم إليه ، وليطلب ذلك في مظانه وعند أهله ، وفي كتب أئمة هذا الشأن ، وليأخذ نفسه بالعمل بما يستفيده من ذلك ولو مسألةً واحدةً ، مستعيناً بالله تعالى ومتوكّلاً عليه ، ومجتنباً للّغو والتّنطّع . فإذا قام بذلك على ما ينبغي له فقد التحق بالأولين ، وحاز قصب السبق في الآخرين ، وكان من الغرباء الذين « طوبى لهم »[1] ، وعند ذلك تترادف عليه أنواع المزيد ، ويستمر في سلوكه على نهج سَديد ، ويَبعث الله إليه من الهداة المرشدين من تسكن إليه نفسه ويطمئن به قلبه . وقد يقيض الله تعالى في أثناء ذلك شيخاً ربّانياً يُرقّيه بهمّته في أسرع وقت ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩/٢٩] . وليس على المريد إلاّ تصحيحُ نيّته مع الله تعالى ، وتحسين ظنه به ، فإذا هو قد وصل ، بل لا مدخل له في هذا على التحقيق . فإذا فرضنا شخصاً انبعثت همّته إلى سلوك هذه الطريقة واجتهد في الأعمال التي ذكرناها ولم تظهر له بارقة من نور ، وبقي في ظلمات الجهل والغرور ، فليعلم حينئذٍ أنه لم يؤهَّلْ لهذه الطريقة ، ويكون حاله إذ ذاك حال عامّة الأفراد الذين شأنهم الاقتصار على اتباع ظاهر الشرع ، والعمل على طلب الجزاء والعوض ، فليزمه الرجوع إلى علماء الظاهر في نوازله ، ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهَؤلاء مِنْ عَطاء رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظوراً ﴾ [الإسراء : ٢٠/١٧] .

(١) فيه إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، رواه الإمام مسلم رقم ١٤٥ ، والترمذي ٢٦٣١ ، جامع الأصول : ٢٧٥/١ .

والـذي ينبغي أن يعتمـده المريـدون في بـدايـة أمرهم ـ قبـل احتيـاجهم إلى شيـخ أو كتاب يستفيدون منـه جزئيـات السلوك ـ أن يُصحِّحوا قصـدهم بمراعـاة الصـدق مع الله تعـالى ، فمن أراد أن يكـون الله تعـالى معـه فليلـزم الصـدق فـإن الله تعـالى مـع الصادقين . قال ذو النون المصري[1] ـ رضي الله عنه ـ : « الصدق سيف الله ماوُضع على شيء إلاَّ قطعـه » ، وذلـك بـأن يكلفوا أنفسهم ويستعملوهـا بمقتضى حـال التصوف من البراءة من الدعوى ، والعكوف بالقلب على باب المولى ، وحسن الظن وصدق الرجـاء ، والوقوف بين يدي الله تعالى على قـدم الهيبـة والحيـاء ، فبـالتزامهم لهـذه الأشيـاء وحمل أنفسهم عليهـا يستنجزون من الله تعـالى المـوعـود ، ويصلـون إلى المرغـوب والمقصـود . والقاصـد إلى سلوك طـريق التصوف بمـا يضـاده من الاختيـار والـدعوى وشـدة الطلب وقوة الحرص وغلبـة الطمع كطـالب المـاء بجـذوة نـار[2] . وقـد قـالوا : أبـواب الملـوك لا تقرع بـالأيـدي ، بـل بنفس المحتـاج . وليعلم المسترشـد أن حـالـة التصـوف أثرة من الله تعالى وتخصيص لبعض عباده وعناية بهم ، ولقد كانوا منفردين بحـالهم عن أشكالهم ، ولا مطمع لغيرهم في الإحاطة بكنه أمرهم ، كما قال المشايخ : « الصوفية أهلُ بيتٍ واحدٍ لا يدخل فيهم غيرُهم » ، وذلك أن الله تعـالى لمـا أراد أن يكونوا لـه أهْلُون من خلقـه ، ومعنى ذلك أن يكونوا بـه ولَـهَ ، قـذف الإيمـان في قلوبهم وكتبـه فيهـا ، وأيَّـدهم بروح منه ، وكل ذلك من غير تقدم وسيلة ولا سببيّة منهم . فلمـا منَّ عليهم بـذلـك وأشهـدهم تلك المنَّة فتح لهم حينئذ بـاب اللَّجـأ والافتقـار إليـه ، ورأوا أنفسهم بعين العجز وقلـة

---

(١) تقدمت ترجمته .

(٢) في الأصل : كطـالب في المـاء بحدوث نـار ، وهـو اقتبـاس من البيت المشهـور من قصيدة لأبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت ٤١٦ هـ) .

ومكلفَ الأيـامِ ضـدَّ طبـاعِهـا   متلمس في المـاء جـذوة نـار

وأول القصيدة :

حكم المنيـة في البريـة جـاري   مـا هـذه الـدنيـا بـدار قرار

(الأعلام ٤/٣٢٧) .

الحيلة وغاية الضعف والفاقة . فلما فتح الله لهم هـذا البـاب تلقـاهم منـه بـأنواع التحف والكرامات والألطاف والمنن ، تحقيقاً لوعده في كفاية عبـاده المفتقرين إليـه واللائـذين بجانبـه ، فـازدادت إذ ذاك أنوار إيـانهم وتضـاعفت ، والحق تعـالى يصرفهم في أحوالهم وأعمالهم على حسب ما يلمح لهم من الأنوار ، وما يجلي لقلوبهم من الأسرار ، فلم يزل هذا دأبهم ، وملازمة باب الله تعـالى شـأنهم ومـذهبهم ، إلى أن وصلوا إلى مقـام الإحسـان ، وهنالك تراءى لهم مقام التوحيـد ، وتحققوا بخـالص التجريـد ، فـانمحت إذ ذاك رسوم بَشَريَّتهم ، وبطَلَت أحكام أنيتهم . وعند وجود العِيان ، فُقدت الأعيان . ﴿ وقُلْ جـاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : ٨١/١٧] . وهذه هي الغايـة التي هي بغية أعمالهم ، والْمُنية التي استحقروا في جنب نيلها بذل نفوسهم وأقوالهم ، وبذلـك يتحقق لهم إخلاص عبوديتهم لربِّهم ، ويتخلصون من رؤية إخلاصهم ، ولا مطلب لهم سوى هذا . ويستوي في هذا مجذوبهم وسالكهم ، إلاَّ أن المجذوبين أوصلهم إلى هذا المقـام في أقرب زمـان من غير معـانـاة ولا تعب ، والسـالكين على عكس هـذا ، وجميعُهم لم يُخْلِهمُ اللهُ تعالى من وجود كلاءته ورعايته في أطوارهم كلها ، من بداية ونهايـة ، فكانوا بذلك منفعلين لا فاعلين . ولذلك قال الشبلي[1] ـ رضي الله عنه ـ « **الصوفية أطفـال في حجر الحق** » .

فإن قلت : هذا جبر محض ، وأنت لا تقول بالجبر .

فـأقول : التعبير ههنـا بـالجبر ظلم في حق هـذا المقـام ، لأن مفهوم الجبر لا يتصور إلاَّ في عـالم الحجـاب والفرق ، حيث يتصور وجود الجـابر ، والمجبور ، والمجبور عليـه ، وما به يقع الجبر ، والمعدومات كلهـا أوهـام وخيـالات عنـد أربـاب الكشف والشهود . والجبر في هذا العالم باطل قطعـاً ، لأن لسـان الشرع أثبت الاختيـار والكسب للعبـد ، وعليه يقع الثواب والعقـاب . وأمـا في حضرة الجمع وشُهود الأحـديـة فلا يتصور وجود الجبر ، فأنتم ترون هذه الحال كيف اختصت بتولي الحق سبحـانـه لمن اختصـه بهـا ، من غير أن يكله إلى طلب أو سعي يعتمده بنفسه .

(١) تقدمت ترجمته صفحة ٨٦ .

فالسالك لطريقهم ينبغي له أن يسلكه على هذا النحو ولا ينحرف عنه ، وليتخذ مثلاً حاله فيما فهمه من حقيقة طريق التصوف وشرف قدر من اتصف به ، عبرة يتوصل بها إلى منازلته والتحقق به . ولا شك أنه يتحقق ضرورة فهمه لذلك وتعقله له ، ولولا ذلك لم يطلبه ولم يحرص على التوصل إليه ، إذ لا يتصور طلب شيء لا يتعقل فهمه بذلك وتعقله له ، إذ ليس من تلقاء نفسه ، بل هو مجعول فيه بواسطة عقله المهيأ لذلك . فإذا نظر إلى هذا علم أن الله تعالى أنعم عليه في هذا التصور والتعقل نعماً ثلاثاً : وجدان العقل وتهيؤه لإدراك هذا الشيء النفيس ، ونفس التصور والإدراك ، وجميع ذلك حاصل له من غير حول منه ولا قوة ولا ثبوت أهلية . وكم من شخص لم يرزق واحدة من هذه الثلاث فضلاً عن مجموعها ، فإذا أحاط علماً بما ذكرناه ، كان لله تعالى عليه نعمة رابعة ، وهي أكبر هذه النعم وأجلّها ، معرفته بأن لا مدخل له في شيء منها . فهذه أربعٌ من النعم . فإذا كانت على ذكر من العبد وتيقظ لها ، وقصد إلى نيل ما تصوره وحصوله له ، فأول ما يتبادَرُ إلى ذهنه رؤية عجزه وفقره وعدم قوته وحيلته ، وأن المان بذلك والقادر عليه مولاه عزّ وجلّ ، وأنه لا يسعه في الوصول إلى ذلك والظفر بما هنالك إلاّ التّأدُّب بين يديه ، وفراره من نفسه إليه ، واعتماده في جميع أحواله عليه ، وعند ذلك يكفيه كل مؤونة ، ويهون عليه كل صعب ، ويُيَسّر عليه كل عسير ، ويكون له في هذا الشهود والنظر مجالٌ للعِبَر ، بحيث يحمله على أن لا يتحرك لطلب ولا سبب بتخير منه ، فإن دام على التيقظ في هذا فقد وصل إلى مقام ينتظم له كل مقام ، وحصل على مرام يستحقر في جنبه كلّ مرام ، وإن لم يحصل له هذا التبادر ، بل انزعج في الحال إلى طلب سبب يصل به ، غافلاً عن المنعم عليه بالنعم المذكورة ابتداء من غير استحقاق ، وغير ذاكر له ، كانت مصيبته بذلك أعظم من مصيبته بعدم نيل ما طلبه ، ومن تعبه في الطلب ومن ضيق صدره من التعب . فحينئذٍ يكون رجوعه إلى تصحيح ذلك أولى به ، وهذه هي الإنابة التي هي مقدمة الهداية « وإنما حُرِموا الوصول بتضييعهم الأصول » .

ثم بعد هذا يعمد إلى عملٍ واحدٍ مثلاً من أعمال أهل السلوك مما يتعين عليه القيام به ، وقد كان حصل له عمله من قبل ، ولو لم يكن إلاَّ توبةً عن معصية أو تورعاً عن شُبهة ، أو غير ذلك من أعمال ظاهرة أو أعمال باطنة ، ويبادر إلى إيقاعه مخافة فوته ، ولا يترقب وقتاً ثانياً يتوقف فيه وجدان مطلبه من شيخ أو كتاب . فإذا فعل ذلك مراقباً لله تعالى ، ومصحّحاً تقواه له ، وعاملاً بما أمره به ، فقد حصل على أعظم الرجاء في أن يعلّمه الله تعالى ما جهله مما يحتاج إليه في سلوكه تحقيقاً لوعده في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَاتَّقوا اللهَ وَيُعَلِّمُكَمُ اللهُ ﴾ [البقرة : ٢/٢٨٢] . وفي قوله عزَّ مِنْ قائل : ﴿ ياأيُّها الَّذينَ آمَنوا إنْ تَتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُم فُرْقاناً ﴾ [الأنفال : ٨/٢٩] ، ويكون ذلك إما بأن يقيض له شيخاً يهديه ويؤدبه ، أو يفتح عليه من كتاب ، وإما بأن يلقي ذلك في قلبه من غير توسط بسبب من الأسباب ، ألا يرزق الله عبده المؤمن من حيث لا يعلم ؟ ومن الرزق الغير المعلوم للعبد أرزاق العلوم والفهوم . وكم من مسألةٍ مشكلةٍ على بعض الناس يتحير فيها فيسأل عنها من يظن به القدرة على بيانها والكشف عنها ، فلا يصدق ظنّه فيه ، ولا يجد عنده معرفةَ ما أشكلَ عليه ، ثم يستمع في ذلك البيان الشافي ممَّن هو دونه ممن لا يظن به ذلك ، فإن لم يكن ذلك بسؤال منه فواضح أن لا مدخل له في ذلك ، وإن وقع منه السؤال فقد كان عند إيراده له قد تصوَّر في خاطره أموراً جميلة ، وهو ينتظر الجواب ببعض تفاصيلها ، فيجيبه بأمر لا يتصوره جملةً ولا تفصيلاً ، فيتحقق حينئذٍ كونه معزولاً عن أمره كله .

وحبَّذا ذلك ، لأنه من جملة الأدلة لنا على وجود عزّة الله تعالى وكبريائه ، إذ العزيز الكبير لا يتوصل إلى شيء مما عنده بقوة ولا حيلة ، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلاَّ بتصحيح الصدق وإخلاص القصد ، والتحقق بالافتقار والذُّل بين يديه ، فهو المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع .

فهذا هو مبدأ طريق السالك إلى منازل حال التصوف ، ولا نهاية له إلاَّ بالتحقق

بما تخلق به من المعاني التي ذكرناها لا غير ، و ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة : ٥/٥٤] .

والأمر المتفق عليه عند العارفين أنْ لا وصول إلى الله إلاَّ بالله ، ولا حجاب للعبد عن الله إلاَّ نفسه ، والنفس لا تجاهد بالنفس ، وإنما تجاهد النفس بالله ، فإذا جوهدت النفس بالله لم يتصور في طريق السلوك قاطع ولا مانع ، لوجود الله وكلاءته وتأييده للمريد السالك بما شاء ، وكيف شاء ، ولا تزال حجب نفسه الظلمانية والنورانية ترتفع وتزول شيئاً فشيئاً حتى يأتيه اليقين .

فإن قيل : هذا منزع غريب وأمر عجيب ، لم يذهب إليه أحد من أهل السلوك ، لا سيا أصحاب المناظرة ، فإنهم فرضوا غاية للوصول ينتهي إليها السالك ، وجعلوا بينه وبينها مفاوز ومهامه ، وقد ترصد له فيها أعداء وقُطَّاع يمنعونه من السلوك ، ويوقعونَهُ في أشراكهم وحبائلهم . وقد اتفق أصحاب المناظرة على هذا ، وإنما اختلفوا هل يكتفي بالكتب في قطع تلك المفازات والمهامه ؟ أو لا بد من الشيخ أيضاً ؟ ولم نرَ أحداً من المصنفين اعتمد ما ذكرتموه ، ولو كان صحيحاً لنصوا عليه ولاكْتَفَوْا به عن كل ما رسموه وطوَّلوا الكلام فيه .

فأقول : ما ذكرناه هو حاصل كلامهم ولباب ما عندهم ، وليس ذلك بخلاف لهم . وكيف يكون ذلك ، ومن كلامهم استنبطناه ، وعلى منوالهم نسجناه ؟ لكن من المعلوم المقرر أن عقول الناس مختلفة ، وفهومهم متفاوتة ، وأحوالهم لا تجري على منهاج واحد ، بل لكل منهم وجهة هو مُوَلِّيها ، ولهم في ذلك أغراض الله أعلم بها ، فترى بعضهم يرمز ويومئ ، وبعضهم يصرِّح ولا يكني ، وتجدهم يعبرون بعباراتٍ كثيرة والمقصود من ذلك معنى واحد ، ويعبرون باللفظ الواحد والمراد منه معانٍ كثيرة ، وتارةً يُفَصِّلون وأخرى يُجملون ، وطوراً يُقْدِمون وطوراً يُحجِمون ، وكل ذلك على حسب الوجوه التي يوجههم الله تعالى إليها ، والمسالك التي يسلك بهم عليها . ولا شيء من العلوم أكثر اختلافاً فيما ذكرناه من هذا العلم .

فمن نظر إلى ما رسموه ، وقصد إلى تعرف الحق منه ، تشعبت عليه المسالك ، ولم يحصل إلاّ على الحيرة والدهشة ، لا سيا مَنْ ألِفَ العلوم الظاهرة ، وتمرّن فيها وجُبِلَ عليها ، ثم قصد إلى تعلم علوم القوم والتصرف فيها على حسب ما تقتضيه قواعد علومه ، فإنه أبعد الناس عنها ، وأشدهم إفلاساً منها ، وكل ما فهمه وأحاط به إدراكه لا يخرج عن مبادئ هذا العلم ومقدماته ، وأما حقائقه فلا يحظى منها بشيء لمباينة ذلك لعلومهم المباينة التامة .

ولأجل ذلك وقع منهم الإنكار على الصوفية وامتحن كثير من المشايخ على أيديهم ونسبوا إلى الكفر والزندقة ، وغير ذلك من أنواع الضلال والبدعة . ولولا سر الخصوصية التي ذكرناها لكان هؤلاء الظاهريون أولى الناس بنيله والحصول عليه ، لما هم عليه من كثرة الاجتهاد والنظر ، ولما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية . ولو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلاّ بتتبع جميع ما ذكروه بالتفهم والتصحيح ، ثم العمل على مقتضى ما فهمه وصح عنده ، لم يصل إليه أبداً ، ولَذَهَبَ عمرُه ضائعاً .

ولهذا كان اعتماد الكتب غير مجدٍ لصاحبه ولا نافع من علته ، كيف والأمر ، بحمد الله ، أقربُ من هذا كله ؛ لأن الله تعالى بعث إلينا رسوله ﷺ بالحنيفية السمحة ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج ، وأي حرج أعظمُ من معاناة السلوك على حال ما الناس عليه من التفرق والاختلاف ، وعدم الهُداة المرشدين ، فإذا وجدنا طريقاً إلى الله مختصراً قد اتصف بالسهولة والسعة ونفي الحرج والمشقة ، علمنا أنه طريقنا إلى الحق ، وليس ذلك إلاّ ما ذكرنا بدايته ، وأشرنا إلى نهايته ، ويشترك في السلوك عليه كل من اختصه الله تعالى بالإيمان والتوحيد ، وإنما يتفاوتون في السرعة والإبطاء لا غير بحسب تفاوتهم في الخصوصية ، ثم يصل كل سالك منهم إلى ما قُدّر له .

وليس للسالك غايةٌ ينتهي إليها ، بل له في كل حال سلوك ووصول ، وعليه في كل حين تَخَلٍّ ، ثم له بعده تَحَلٍّ وتجمّل ، على حسب ما ينزله من المنازل ويحل فيه من المواطن . وليس في طريق الله تعالى مفازة ولا متاهة كما توهمه أصحاب المناظرة ، بل

يكـون لـه في كل منزل ينزلـه دار وقرار ، ويتـأتى لـه في كل حـال وترحـال أعـوان وأنصار ، وإنما تكون المفازات والمتاهات في إقامة العبد على مألوفـاتـه ومعتـاداتـه حين يجد طعم نفسه ، ويقف مع نظره وحـدسـه ، ويتبين لـه مصـداق هـذا عنـد انكشـاف الغطاء ، ونعوذ بالله من سوء القضاء .

فـإذن لا ينبغي للعبـد أن يمتنع من الأخـذ في السلوك بسبب عـدم وجـدان شيـخ يراجعـه في جزئيـات سلوكـه ، ويبقى منتظراً لوجود الشيخ ، بل يبـادر إلى السلـوك على النحو الذي ذكرناه من قبل ، وما يحصل له من نتائج بدايته مزيـدٌ كبير لا ينبغي أن يستحقره المريد ، بل يغتبـط بـه ويَشُـدُّ يـدَ الضنين عليـه ، وذلـك من شكر هـذه النعمة المقتضى لوجود المزيـد منهـا ، ولا ينبغي لـه أيضـاً أن يشتغل عن ذلـك بطلب الشيخ ، فإن الوصول إليه بالطلب المجرد لا يتصور ، لأنه من منح الله تعـالى وهـدايـاه للعبـد المريـد إذا استفرغ في السلوك جهـده ، واستنفـد جميع مـا عنـده ، قلَّ أو جـلَّ . ولأجل هذا يُقيضه الله تعالى له ، على أفضل حال ، سالماً من البـدع والضلال ، فيـأمنُ بذلك المريد مما يقع فيه كل من اعتمـد الشيخ بـالطلب والتفتيش من الآفـات السـابقـة واللاحقة ، كما وقع لأرباب النحل والمذاهب .

فإذا علم المريد هذه الجملة علم يقين ، استقام له الدخول في هـذه الطريق بقرَّةِ عينٍ وانشراحِ صدر ، ولم يتعب نفسه ولا عقلـه بـالنظر فيما ذكره أصحـابُ المنـاظرة من أمر غير واجب فإن ذلك مما يشوشه ويدهشه ويوجب لهُ التقاعـد والتكاسل عن الأخـذ في هذا الطريق ، وينسد عنه باب السلوك بالكلية .

ولو دفع الإنسان إلى تصحيح أكثر تلك المعاني التي ذكرها أصحاب المناظرة وكونـه مأموراً بمراعاتها ، والقيام بمقتضى حقائقها بالأدلة الشرعية على طريقة علماء الظاهر ، لم يحصل منه وفاء بذلك ، بل يعجز عن تصورها أيضـاً . وغـايـة مـا طلب من العبـد أمر واحد وهو إخلاص العبودية لله تعالى : إسلاماً ، وإيماناً ، وإحسانـاً ، ولا مـانع للعبـد

من إقامتها في مقامها إلاّ هواه المتبع ، وهوى كل أحد ظاهر له ، إذ هو حقيقة نشأته ، ومجبول خلقته ، وكيف يخفى على الإنسان حاله إذا كان منصفاً من نفسه ، ناصحاً لربّه ، عاملاً في صلاح قلبه .

فإذن اعتيادُ المريد مخالفة نفسه في كل ما تدعو إليه مما لا يخاف ضرره في عقله وجسمه ، والتزام عدم التمسك بكل ما يظهر له فيا يرجع إلى عقده وفهمه أي آفة تصيبه ، بل له في ذلك أعظم الفوائد ، وغاية ما يعرض من الآفات التي يتوهمها المريد في مخالفة نفسه أن تدعوه إلى نوع من الطاعات ، ولم يظهر لها وجود حظها فيه ، فيخالفها مع ذلك فتفوته تلك الطاعة ، وذلك في التزامه عدم التمسك بما يدركه عقله إذا ظهرت له حقيقة من الحقائق ، فيتعامى عنها ويضرب عنها صفحاً . ولا ضرر عليه في جميع ذلك ، بل هو سالك أنهج المسالك ، والعبد أبداً شأنه العجز والقصور ولو بلغ في العلم والعمل كل مبلغ ، وليس الضرر الذي يتوهمه المريد في ذلك بأعظم من ضرره الحاصل له من علمه بخلاف الصدق ، ومن ضرره الواقع به من جحوده على اعتقاد ما يظهر له أنه جلية الحق ، بل لا ضرر عليه في ذلك ، بل له في ذلك أعظم المنافع إن عقل وعرف .

فإذا عمل المريد على هذا كله ملتزماً للصدق في حاله ، لم يُخَلِّه الله تعالى ونَفْسَه ، بل يبعث له من يسدده ، ويسبب له من يعينه ويؤيده . فعلى العبد البداية ، ومن الله تعالى التمام والهداية .

وهذا عندي هو الطريق إلى التحقيق وهي في غاية القرب ، لأن أكثرها سلوك روحاني ، وباقيها من المعاملات البدنية ، وسالكها لا يخاف على نفسه من وجود قاطع ولا مانع لازمها .

وفي التعلق بالله تعالى والافتقار إليه ، والاعتماد عليه ، ورؤية النعم منه ما يكفيه كل مؤونة في ذلك ، وما عداها من الطرق التي توهّمها الناس وراموا السلوك عليها

محفوفة بالمخاوف ، كثيرة المهالك والمتالف ، سلوكهم فيها بخلاف الصدق ، وعملهم بما يضاد طريق الحق ، من رؤيتهم لأنفسهم ، ورجوعهم إلى حولهم وقوتهم . وقد قال ابن عطاء[1] الله رضي الله عنه : « ما تَوَقَّف مطلبٌ أنت طالبُه بربِّك ، ولا تيسَّر مطلب أنت طالبه بنفسك »[2] .

وإذْ بلغنا الغرض من هذا النمط فلنرجع إلى ما كنا بسبيله من أمر الشيخ والكتب .

ونقول : الطائفة التي اعتمدت الكتب غالطة من وجهين :

أحدها أنهم لم يُصحِّحوا قصدهم باستعمالهم للمعاني التي ذكرناها في أول هذه النبذة ، وصحة القصد هو الأساس الذي ينبني عليه أمر السلوك .

والثاني أنهم استعملوا في سلوكهم أشياء ليست من شأن سالكي هذا الطريق بلا شيخ مربي ، كاستدامتهم للصيام والوصال والخروج بالكلية عن الأهل والمال ، والتقطع في المفازة والجبال ، وتركوا العمل اللائق بهم من الوقوف على حدِّ الشرع ومجاهدة أنفسهم ، ولا شيء أشد على النفس من متابعة الشرع ، وهو التوسط في الأمور كلها ، فهي أبداً متفلتة إلى أحد الطرفين لوجود هواها فيه .

والطائفة التي اعتمدت الشيخ غالطة من وجهين أن اشترطوا الشيخ وتربيته وقصروا الأمر عليه دون شيخ التعليم .

---

(١) ابن عطاء الله ، أحمد بن محمد بن عبد الكريم ، أبو الفضل ، تاج الدين ، الإسكندري ، متصوف كبير ، من كبار العلماء ، له كلام في غاية الجزالة والحكمة ، جمع بين الأسلوب الرفيع والمعنى البديع ، له عدة مؤلفات من أشهرها (الحكم) . توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ . (الدرر الكامنة : ٢٧٣/١ ، الأعلام : ٢٢١/١) .

(٢) شرح الحكم لابن عباد : ٢٤/١ .

أحدهما أنهم ضيقوا طريق السلوك باشتراطهم لهذا الشرط ، والأمر أوسع من ذلك كما تقدم .

والثاني أنهم ألزموا خصومهم طلبه ، لا على الوجه الذي ذكرناه ، وأنَّى لهم بذلك ! فتضيع أوقاتهم في الطلب ، ولا ينجح لهم قصدٌ ولا أرب .

والطائفتان عندي غالطتان من كونهم دقَّقوا في هذا الأمر واستوعروا طريق السلوك بالتزامهم صحة أكثر تلك التربيات والأوضاع التي اشتملت عليها المناظرة ، وقطعوا زمانهم النفيس في تلفيق الحجج ، من غير مبادرة إلى سلوك سواء المنهج . ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢١/٤٧] .

فهذا ما ظهر لي أن أذكره لكم تأدية لحق سؤالكم ، والتماساً لبركة دعائكم ، وفيه كفاية وغنية ، بل فيه فضول كثير تداعى بعضه إلى بعض حرصاً على تمام الفائدة .

ونحن نستغفر الله تعالى من جميع ذلك ، وإنما أوردناه هكذا على أسلوب الخطاب ، وعدلنا في أكثره عن الطريق البرهانية ، وإن كان حال أصحاب المناظرة يقتضي ذلك ، لأني لم أرَ أحداً من أهل هذا الطريق سلك طريق البرهان في أكثر مسائلهم ، ولنا فيهم الأسوة والقدوة .

وأيضاً فإن أكثر المطالب فيه تتعذر إقامة البرهان في هذه المعاني ، بخلاف ذلك فلا بد أن تؤخذ فيه المقدمات مسلمة ، ومثل هذا لا يقتنع به الطالب الذي من شأنه البحث والنظر ، وقد قالوا : « أقوى العلوم أبعدها عن الدليل » ، وأيضاً فإن الداعي إلى الله تعالى إذا توصل إلى ذلك بأي وجه أمكنه ، لا يلزمه إقامة دليل على ما يكون فيه من الدعاوي ، وإذا لم يلزم كان في ذلك متبرعاً ، والتبرع فيه نوع من التكلف ، ولا يسلم من الدخل ، ولا ينبغي للمدعي أيضاً أن يطلب ذلك من الداعي إذا لم يعلم منه ما يقدح في دعائه ، من اتِّباع هوًى أو ميل إلى حظ ، ولا ينبغي للمدعي أن يبحث عن ذلك ، وإنما يحب المولى من عبده أن يجيب لكل من دعاه إليه من غير

وجدان حَرَجٍ في صدره من ذلك ، ولا يُطلَب منه إقامة دليل ولا برهان . وبهذا يتبين مقدار عظمة المولى في قلب عبده ، وبه يتحقق طهارة ذات العبد وطيب عنصره وكرم سجيته ، وإليه الإشارة بما ورد في الخبر : « المؤمنُ غِرٌّ كريمٌ والفاجِرُ خَبٌّ لَئيمٌ »[(١)] ، وبما قال بعضهم : « مَنْ خَدَعَنا باللهِ انْخَدَعْنا لَهُ » . وقد قيل : « التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام »[(٢)] .

فإن لم يقنع بهذا وطلب التوثق لنفسه في الأدلة والبراهين كان مناضلاً عن نفسه ، ذا روغانٍ عن عبودية ربِّه ، وذلك من لؤم أصله ورداءة فطرته ، وخبث جِبِلَّته ، وهو دليل الخذلان ، وعلامة النقصان والخسران ، أعاذنا الله من ذلك ، وحمانا من أسباب المهالك ، بمنِّه وفضله . ونسأله جلَّ وعلا أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتِّباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه . وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . والسلام معاد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

---

(١) هو حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن غِرٌّ كريم ، والفاجرُ خبٌّ لئيم » ، أخرجه أبو داود رقم ٤٧٩٠ في الأدب ، والترمذي رقم ١٩٦٥ ، وهو حديث حسن ، ورواه البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد في المسند ، والحاكم : ٤٣/١ ، جامع الأصول : ٧٠١/١١ .
قال ابن الأثير : الغِر : الذي لم يجرب الأمور ، وإنما جعل المؤمن غرّاً نسبة له إلى سلامة الصدر ، وحسن الباطن والظن في الناس ، فكأنه لم يجرب بواطن الأمور ، ولم يطلع على دخائل الصدور ، فترى الناس منه في راحة ، لا يتعدّى إليهم منه شرٌّ ، بل لا يكون فيه شرٌّ فيتعدّى .
الخبّ : الخدّاع المكّار الخبيث ، ولذلك قابل به (الغرّ) لأن الناس يتأذون به لما يصلهم من شرّه . جامع الأصول : ٧٠١/١١ .

(٢) هو قول أبي جعفر محمد بن علي القصاب ، وقد مرَّ في كتاب شفاء السائل .

فتوى أبي العباس القباب

في سلوك طريق الصوفية

وهو رد على سؤال وجهه إليه أبو إسحاق

إبراهيم بن موسى الشاطبي

ترجمة أبي العباس القباب

هو القاضي أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي الشهير بالقباب ، فقيه مالكي كبير ، ولد بفاس سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤ م ، وأخذ عن علمائها ، وولي الفتوى بفاس ، والقضاء بجبل الفتح ، ثم اعتزل ، وعكف على التدريس والفتيا في المدينة البيضاء ، فالجامع الأعظم بفاس ، وعُرض عليه قضاء الجماعة فامتنع واختفى مدةً ، وعاد إلى التدريس والفتيا ، وحجَّ ، ثم ولي الخطابة بالجامع الأعظم بفاس في النصف الثاني من ذي القعدة سنة ٧٧٨ هـ ، وتوفي إثر ذلك ، له كتب منها :

- شرح قواعد عياض .
- اختصار أحكام النظر لابن القطان .
- شرح مسائل ابن جماعة في البيوع .
- فتاوى كثيرة (أثبت بعضها الونشريسي في المعيار المعرب) .
- لب الألباب في مناظرات القباب (وهي مناظرات مع سعيد العقباني) .

توفي بفاس ليلة الأربعاء خامس ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ/١٣٧٧ م .

مراجع ترجمته :

سلوة الأنفاس ٢٤٤/٣ .

الديباج المذهب ٣١ .

نيل الابتهاج ٧٢ .

الأعلام للزركلي ١٩٨/١ .

معجم المؤلفين ٢٣٠/١ .

اعتمدت في إخراج نص هذه الفتوى على ما أورده الونشريسي في كتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب) في الجزء الحادي عشر ص ١١٧ حتى ص ١٢٣ .

واستعنت بما نشرة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي لهذه الفتوى بآخر شفاء السائل .

فتوى القباب في سلوك طريق الصوفية

سئل أبو العباس القباب عن مسألة تظهر من جوابه فأجاب :

الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام التامان الأكملان على محمد نبيه وعبده ، وعلى آله وأزواجه وذريته من بعده .

وبعد يا أخي ـ حفظ الله ودَّك ، وأدام بمَنِّه جدّك ـ فقد وصلني مكتوبكم متضمناً ما جرى عندكم من المناظرة في شأن سلوك طرق الصوفية من غير شيخ ، وما احتج به الفريقان من ذلك ، وطلبتم مني ـ آخر ذلك كله ـ أن أكتب لكم بما هو الحق عندي في ذلك ، مفصَّلاً على فصول المناظرة المذكورة ، ملخصاً آخراً ، ليرجع جميعكم إلى ما أرسمه في ذلك كله . وأكَّدتم الطلب بالسؤال بالله تعالى . ولا يخفى عليكم ما في السؤال بالله ، وأنَّى لمثلي بمعرفة الحق في ذلك . وأنا من هذا العلم خليُّ الذِّهن ، فارغُ اليدين ، لا علم عندي بمصطلحات القوم ، ولم أُخصَّ في شيءٍ من علومهم ، ولا أخذتُ نفسي بطريق من طرقهم ، ولا مارستُ مشايخهم ، ولا جالست أعلامهم ولا عرفت على التحقيق مقاصدهم ، مع أن طريقهم ـ كما علمت ـ لا يكفي فيه التعلم من غير ذوق ، ولا ينفع فيه تحصيل المقال دون اتِّصاف وتحقق بتلك الأحوال ، ولو أن غيركم كان المخاطب بهذا الخطاب ، لقطعت قطعاً أنه بي ساخر ، وبما ضمنه من علوم القوم علي فاخر ، لكن حسن الظن بأخوَّتكم يصرف عندي هذا التأويل ، ويجعله من قبيل المستحيل . لقد استسمنتَ ذا ورم ، ونفختَ في غير ضَرم[1] .

أُعيذُها نَظَراتٍ منك صادقةً ... أن تحسبَ الشَّحم فيمن شحمه ورَمُ[2]

(١) المقامات للحريري ص ١٧ .

(٢) البيت للمتنبي في ديوانه : ٣/٢٦٦ .

وبحسب مـــالي في جهتكم من الحب وحسن الاعتقـــاد ، وعلمي أن مثلكم يُقيـــل العثرة ، ويستر من أخيـه الـزَّلَّـة ، أرجـع إليكم بمـا عنـدي في هـذه القضيـة ، لأنـه علم لا ينشر ، بـل إنـه شيء يقصر غنـه ويستر ، لمـا وجب علي من إجـابـة عظيم القسم بالله تعالى الذي لا يحلُّ إهماله ، ثم توفية لحق أخوتكم .

وذلك أني استحسنت ما احتجَّ به الفريق الذين قـالوا : إنـه لا بـد في الطـريق من شيخ ، وليس ما احتج بـه من حجـة ، وليس بعـد بيـانـه في ذلـك بيـان . ولقـد فصَّل القضية في تمثيله ذلك ، بمن سلك مفـازة عظيـمة مخوفـة بوصف وصَّـافٍ لـه . فـإن قـال خصمه : إن الـوصف يكفي ، فمـا رأيتُ العقـلاءَ ولا الحمقى يتجـاسرون على ذلـك ، ولا يقذفون بأنفسهم في تلك المهالك ، فما رأيت خصمه أجاب عن هذا بجواب محرر غير قوله : فهذه الكتب المصنفـة في الطريقـة ، إن كانت مفيـدة هـذا المقصود ، فهو المراد ، وإلاَّ فهي عبث . وجواب هذا أن يقال له ياأخي : هذه كتب الطب والفقـه والأصول والنحو فمـا يمنعـك من النظر فيهـا ، والاطِّلاع على معـانيهـا ، والتحقيق في مراسمهـا ، لتكـون من علمـــائهـــا ، وتـــداوي ـ بنظرك في الكتب ـ المرضى ، وتجيب في النـــوازل الفرعيـة والنحويـة ، وتضبـط بهـا لسـانـك ، وتفهم معـاني اللسـان العربي ، وتصير من العلماء ، دون مجالسة أهل تلك الفنون ، بلا رحلة ولا تذلل بين أيدي الرجال ؟

فإن قال : إن ذلك ممكن لكل واحد ، فقد كابر مكابرة تسقـط بهـا مكالمتـه ، وإن اعترف بـأن ذلـك لا يمكنـه تحصيلـه من الكتب ، قيـل لـه : فمـا فـائـدة هـــذه الكتب إلاَّ تحصيل المراد ، وإلاَّ فهي عبث ؟ فمـا يكون عن هـذا جوابـه ، فهو أيضـاً جوابُـه . ولقد سلك بعض الناس شيئاً من هذه المسـألـة قـديمـاً وحـديثـاً ، أعني أخـذ العلوم من الكتب دون شيخ ، فسقطوا أبعد من الثريا ، وصاروا في العـالم ضُحْكَـةً ، ويقـال : إن ابن حـزم[1] مـع عظيم حفظـه ، إنمـا أتى عليـه من هـذا البـاب ولـذلـك يقـول الشيـخ

(١) ابن حزم : هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظـاهري ، عـالم الأنـدلس في عصره . ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ ، انصرف منذ نشأته إلى العلم ، فكان من صدور الفقهاء الحفّاظ ، وانتقد كثيراً =

أبو حيان[١] :

يَظُنُّ الغُمرُ أنَّ الكُتْبَ تَهْدي	أخا فَهمٍ لإدراكِ العُلومِ
وما يَدري الجَهولُ بأنَّ فيها	غَوامِضَ حَيَّرتْ عَقلَ الفَهيمِ
إذا رُمْتَ العُلومَ بغيرِ شَيْخٍ	ضَلَلتَ عن الصِّراطِ المستقيمِ
وتَلتبسُ الأمورُ عليكَ حتَّى	تَصيرَ أضلَّ من تُوما الحَكيمِ

ولهذا قال العلماء : كان العلم في صدور الرجال ، ثم انتقل إلى الكتب ومفاتيحه بأيدي الرجال . ومع أن طريق الصوفية ـ كما وصفه المحتج في هذه المناظرة أشد غموضاً من هذه العلوم ، وأكثر اصطلاحاتهم غير مصرح بها ، بل مذكورة على جهة الرمز أو الكناية ، والخوف فيها ـ كما ذكر ـ أعظم ، لأن الخطأ في كثير منها ضلال وكفر ، فكيف يقدر على خوض هذا العلم من الكتب بغير شيخ مع ذلك ، ولا يقدر على سائر العلوم المصرح فيها بمقاصد أهلها التصريح التام المبينة بأوضح بيان ، بضرب المثل ، وبيان الحقائق . ما هذا إلاَّ غلط واضح ، أو مغالطة قبيحة وقد رامَ الخصمُ التفريق بأن الطريق إنما عُمدته العمل ، ويكفي فيه الوصف ، فلما عورض بأن أكثره علم ، أجاب بأن ذلك في الكتب .

وأجاب مرة أُخرى : بأن ما يأتي به الشيخ إمَّا ما احتوتْ عليه الكتبُ ، فهي كافية ، أو غيره ، فهي بدعة .

وقالوا أيضاً : ما استبدَّ به الشيخ إن أمكن عنه التعبير ، صحَّ أخذُه من الكتب .

= من العلماء ، فتالؤوا على بغضه ، له مؤلفات كثيرة من أشهرها : (الفصل في الملل والنحل) و (المحلّى) و (جمهرة الأنساب) وغيرها . توفي سنة ٤٥٦ هـ . (الأعلام : ٢٥٤/٤) .

(١) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي النفزي ، من كبار علماء العربية والتفسير والحديث والتراجم ، ولد سنة ٦٥٤ في إحدى جهات غرناطة ، ورحل إلى مالقة ، وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة ، وتوفي فيها سنة ٧٤٥ هـ . له مؤلفات عدة أشهرها : (البحر المحيط) ، (تحفة الأريب) ، وغيرها (الأعلام : ١٥٢/٧) .

وقالوا : السلوك بدون شيخ إما ممتنع لذاته ، لأمر خارج .. إلخ .

وكل ينقطع بالمعارضة بمثله في سائر العلوم ، لكن كتب القوم مشتملة على فنين :

أحدهما : معرفة المقامات والأحوال ، وأخذ النفس بالاتّصاف بتلك الصفات ، وملاحظة تلك الخواطر ، ومدافعة ما يعرض في ذلك من العوارض .

والفنُّ الآخر : معرفة ما فيه قوام المعاملة وتصفيتها من الشوائب المفسدة ، ومعرفة عيوب النفس وكيفية مداواة عللها ، والخوض في هذا الفن الآخر متأكدٌ لا غنى لأحدٍ عنه ، والغرر فيه أخف ، لأن أكثره أمورٌ بينة ، وعللها ظاهرة ، فمن وجد شيخاً يهديه سبيله ، فليلزمه ، ومن لا فلابدَّ له من هذه الكتب .

وأما الفن الأول فلا إذ صاحبه طالب رِبْحٍ ، وقاصدٌ لأمر لم يُكلَّف به حتماً ، فليس من شأن العقلاء المخاطرةُ في طلب ربح بسلوك طريق مخوفة بغير دليل إلاَّ وصفاً من كتب ، ولا يَرِدُ هذا في الفن الآخر ، فإنه حتم على الإنسان ، ولا بدَّ للمرء من سلوك تلك الطريق ، فإذا لم يجد الدليل ، فإمَّا سلك بغير وصف أو بوصف ، ولا شك أنه مع الوصف أحسن ، وإلى السلامة أقرب ، مع ما تقرر من وضوح أمر هذه المفازة ، وغموض تلك .

وهذا هو العدل الذي ظهر لي في القضية ، والناس إليه في غاية الحاجة ، فلو اشتغلوا به وطلبوا الحق فيه ، لما وسِعَهم غالباً التفرُّغُ لسواهُ ، ويا عجباً كيف يفني عمره في البحث عن المقامات والأحوال ، قبل مطالبة النفس في التخلص من التَّبِعات المالية والعرضية . وقبل البحث عما يلزمه فرضاً مجمعاً عليه ، وهو أن لا يقدم على فعل ولا قول ولا حركة ولا سكون حتى يعرف حكم الله تعالى عليه في ذلك .

وقد نقل العلماء الإجماع على وجوب ذلك ، فلو أشغل الإنسان نفسه بذلك ، لما وسعه غيره . ثم إذا أحاط به علماً طالب نفسه باتِّباع الواجب منه حتماً ، والانكفاف عن

المحرم منه في الاعتقادات والضمائر والحركات والسكنات ، وسائر الأحوال ، فيبحث عن عقيدة أهل الحق ، فيؤمن بها عن دليل وبرهان ، لا تقليداً ليخرج من الخلاف ، ثم يجتنب معاطب الضمائر من سوء الظن والحسد والمخادعة ، والكبر والرِّياء والعُجب ، ويقوم بالفرائض في سائر الجوارح ، فيضبط أمر لسانه من الفحش والغيبة والكذب والنميمة ، ويقوم بالواجب عليه ، من قول الحق حيث وجب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث تعين . ويتفقد جوارحه في كل لحظة ، ويأخذها باستعمال ما يجب عليه في كل جارحة ، ويتجنب ما يجب تجنُّبه ويحاسب نفسه كل صباح ومساء على جميع ما صدر منه في جميع الأوقات ، ويجدد التوبة ، ويطلب الإقالة مَهْما صدرت منه هفوة وبرزت زلَّة ، أو كان منه تقصير وغفلة . وإذا أصبح سأل من أين نصُّه ؟ وإذا أمسى سأل من أين فرعه ؟ وإذا شغله شاغل عن لحظة في صلاته فرَّغ سرَّه منه ، بالخروج عنه ولو كان يساوي خمسين ألفاً كما فعله المتقدّمون .

فهذه إشارة إلى هذا الفن الواجب ، وما أظن المشتغل به حقَّ الشغل يفرغ لغيره .

ولقد أتيت يوماً الشيخ الصالح أبا العباس بن عاشر[1] لزيارته والتَّبرُّك به ، وما رأيت مثله في هذا الشأن فلقد كان فيه عجباً ، وحاز منه أعلى الرُّتب فخرج إليَّ من منزله وقال لي ما معناه : إني في شغلٍ عن لقاء الناس ، وقال لي : لا تظن أن شغلي نافلةٌ ، بل إنما أشتغلُ بالفرض . مع ما اشتهر به من انقطاعه عن جميع العلائق الذي يكثر بسببها الشغب ، فكيف بنا لطف الله بنا . فإنا في عطبٍ إن لم يعفِ اللهُ سبحانه . ولولا رجاء الله ما سكنت نفس ، وحاشاك من إشغال النفس بخدع الشيطان ، وإهمال الفرائض المتعينة المجمع على وجوبها .

وهذا ونحوه هو السبب فيما نقل إلينا من يوثق بنقله عن الشيخ العالم الصالح الكبير أبي محمد الفشتالي ـ وكان في هذا القطر في وقته ، هو المشار إليه بحَوز رتبةِ

---

(١) أبو العباس أحمد بن عاشر فقيه صوفي مشهور ، توفي سنة ٧٦٥ هـ ، (نيل الابتهاج ٧٠) .

الولاية مع ظهور الاستقامة ، وشياع ما يحكى عنه من الكرامة والتحقيق في العلوم ، وخصوصاً الامتياز بهذا الفن الصوفي ـ من أنه يقول لمن يريد التوبة على يديه : عليك بالفقيه أبي محمد صالح . فإنَّ باب التوبة وشروط صحتها المتفق عليها والمختلف فيها قد تولته كتب الفقه . ونستغني عن شيخ آخر ، لما وراء التوبة ، فإن الذي وراء التوبة غاية لا تدرك ، وطريق مخوف عسير غير مأمون ولقد قلَّ وارده والدالُّ عليه ، فاقتصار التائب على ما عند فقهاء الظاهر أولى وأسْلَم ، بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة أصلاً . فإنهم يخوضون في فروعها ويهملون شروط صحتها . وهو باب التوبة ، إذ لا يصح بناء فرع قبل تأسيس أصله . وكان يقول : لو وجدت تواليف القشيري بأسرها لجمعتها وألقيتها في البحر ، هذا مع اتفاق العلماء على أنه سني متبع . قال : **وكذا كتب الغزالي** يجب بأن تقبل حيث يتكلم في المسائل الفقهية ، **فهو فيها إمام** متفق على تقديمه . وما وراء ذلك من غوامض العلوم المتعلقة بالعالم الغائب ينبغي للضعيف أن يعزل سمعه عنها فقد خاطر في ذلك بنفسه ، وربما يدخل في اعتقاد سامع كلامه في ذلك ما هو مستغن عنه . وكان يقولُ أيضاً : إني لأتمنى على الله أن أكون معَ الشيخ أبي محمد بن أبي زيد[1] يوم الحشر بل مع أبي محمد يشكر ، فذلك أكثر أمْناً لي على نفسي ولا أتمنى أن أكون مع الغزالي في ذلك اليوم . وكان يقول : إذا كان لا بد للمريد من مطالعة كتب الزهاد ، فعليه **بتواليف الحارث بن أسد المحاسبي** انتهى ما نقل عنه .

وأبو محمد صالح وأبو محمد يشكر المشار إليهما في كلامه فقيهان كانا بفاس وإشارته في طرح **كتب القشيري** إلى المعنى الذي أشرنا إليه من أنها طريق مخوفة ، وليست بضرورية ، لا سيا اليوم الذي اشتغل الناس بها عما هو المقدم عليها ، وبمثابة الأساس فيها . وما زلت أتمنى أن لوقيض الله تعالى رجالاً لهم حظ من العلوم وعناية بهذه

(١) هو عبد الله بن عبد الرحمن النفزي ، الفقيه المالكي المشهور ، المعروف بابن أبي زيد ، له كتاب (الرسالة) في الفقه المالكي ، وهو عمدة عند المالكية ، توفي سنة ٨٨٦ هـ . (الديباج المذهب : ص ١٤٠) .

الطريق إلى تلخيص **كتاب الإحياء** . فإن كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره ، لا سيا الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات ، ومعرفة عيوب النفس . وكيفية مُداواتها فهو فيها غاية المطلوب ، لكنه يشوبه من الاستشهاد بالأحاديث الواهية الإسناد ما يضرُّ بالجاهل إذا لقي الله ، فإنه يعتقد جميع ما فيه صحيحاً لا مطعن فيه وأشدها عليَّ أيضاً من هذا ما شحنه به من العلم الذي يسميه علم المكاشفة ، وهو الذي عبر عنه الشيخ أبو محمد الفشتالي بالعالم الغائب ، فإن فيه أموراً يخفى غورها على كثير ، ولخفاء أكثرها يضر العامة سماعها لأنهم عن فهمها بمعزل .

هذا ما حضرني من القول في ذلك والميل مع إحدى الطائفتين ، مع التبري من كثيرٍ مما جرى منها في الاحتجاج من الغلو والإفراط .

وأما الكلام على جميع فصول المناظرة فصلاً فصلاً ، فلا أقدرُ عليه ، وأنا معترف بالعجز عنه ، مع أن الكلام فيه ينتشر جداً حتى يخرج عن الحد ، فإن قَوْلَ الْمُناظر : إن أكثر أهل الزيغ كان ضلالهم من اتِّباعهمُ الكُتب دون شيخ بصير بالطريق ، دعوى مجردة ، يطالب عليها بالدليل ، وما يؤمنه من عكسها عليه ؟ فيقول خصمه : أكثرُ من هلك إنما كان باتباع أشياخ يظنونهم أئمة هدى فيُضلونهم . وربما يشهد لهذه الدعوى أن أكثر أهل الزيغ منسوبون لشيوخ النِّحَل ، كالسبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، والكاملية أتباع أبي كامل ، والبيانية أتباع بيان بن سمعان ، والمغيرية أتباع المغيرة العجلي ، والمنصورية أتباع أبي منصور العجلي ، والخطابية أتباع أبي الخطاب الأسدي ، إلى غير ذلك من الفرق التي يطول ذكرهم ، حتى السَّبْعينية أتباع ابن سبعين ، فيقول الآخر : إنما طلب أشياخ الهُدى ، لا أهل الزيغ ، فيقول خصمه : وكل شيخ إنما يدْعو لما يزعم أنه الحق وبأي شيء يُعرف الحق من الباطل . وبأي أمارة أعرف كون هذا الشيخ مُحقّاً في مذهبه ، صادقاً في دعاويه ، مالكاً لأحواله ، غير مملوك لها ، وأنا إن كنت مميزاً بين هذه الأحوال ، لم أحتج إليه ، وإنما حاجتي إليه في تمييز الصحيح منها من السقيم ، ولعل من أظنه مُحِقّاً هو المبطل ، ولا سيما إن كان ذا كرامة ، فإن النفس إليه أميل ،

وأنت تقول : إنه ربما يكون في يد شيطان ، فأي شيء اعتمده مع هذا الاحتمال ؟ وقد سلمنا أن الفرق بين الفريقين عسير .

فإن قلت : فأُحسِّنُ الظَّن بالجميع وأتَّبع كل من رَأيت .

قلت : لم آمَنْ أن يكون من اتبعتَ هو الزائغ فيحتاج في معرفة الشيخ الْمُحِقِّ إلى شيخ هدى يَبين لنا الحق من الباطل وما لزم في الأول لزم في الثاني إلى غير ذلك مما يسع عنده مجال القول ، فرأيت الاقتصار على الغرض المقصود اللائق ، فأعرضت عن تتبع الفصول ، معترفاً بالتقصير حالاً ومآلاً اعترافاً حقيقياً وأنا أحَضُّ الناس على الحق ، ولا أقوم بواجبه ، وأدعو إليه وأنا أبعد الناس منه أسألُ الله العفو بمَنِّه .

حكم الالتزام بالشيخ في التربية الصوفية

تأليف

الشيخ المربِّي الحسن بن مسعود اليوسي

رحمه الله

المتوفى سنة ١١٠٢ هـ

ترجمة اليوسي

أبو علي نور الدين الحسن بن مسعود بن محمد بن علي اليوسي ـ نسبة إلى بني يوسي بالمغرب الأقصى ـ.

ولد حوالي سنة ١٠٤٠ هـ بمنطقة ملوية العليا من بلاد فازاز ، وتعلم بالزاوية الدلائية ، وتنقل في الأمصار ، فأخذ عن علماء سجلماسة ، ودرعة ، وسوس ، ومراكش ، ودُكالة ، واستقر بفاس مدرساً ، واشتهر .

قال العياشي في رحلته :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه ، وحج وعاد إلى بادية المغرب فمات في قبيلته سنة ١١٠٢ هـ ، ودفن في (تمزرنت) بمزدغة . له مؤلفات كثيرة منها :

- المحاضرات (ط) في الأدب طبع طبعة حجرية سنة ١٣١٧ هـ .
- فتح الملك الوهاب أو الفتوحات السوسية (في التفسير) .
- زهر الأكم في الأمثال والحكم (في الأدب) .
- الفهرست (وهو ترجمة له ولشيوخه) .
- رحلته .
- قانون أحكام العلم (ط) .
- ديوان أحكام العلم (ط) .
- ديوان شعر (ط) .
- القصيدة الدالية (ط) .

وللتوسع في مؤلفاته وأماكن وجود مخطوطاتها انظر مقدمة رسائل أبي علي اليوسي ص ٥٤ـ٦٤ .

ـ رسائله طبعت باسم (رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي في جزأين بتحقيق فاطمة خليل القبلي) .

ـمراجع ترجمته :

عجائب الآثار للجبرتي ٦٨/١ ، نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي لليفربي ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للقادري ، سلوة الأنفاس للكتاني ٨١/٣ ، فهرس الفهارس للكتاني ٤٦٤/٢ ، شجرة النور الزكية ٣٢٨ ، الأعلام ٢٢٣/٢ ، معجم المؤلفين ٥٩٣/١ ، ومقدمة رسائل اليوسي الجزء الأول ص ٣٢ـ٦٤ ، وكتاب (اليوسي وقضايا الثقافة المراكشية في القرن السابع عشر) لجاك بيرك بالفرنسية طبع سنة ١٩٥٨ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة جواب لعدة أسئلة أرسلها أحد المريدين إلى الشيخ حسن بن مسعود اليوسي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ يسأله عن أمور فقهية وأمور سلوكية في التصوف .

وقد اكتفيت من هذه الأجوبة بما يخص موضوعنا وهو السلوك على يد شيخٍ مُرَبٍّ يرشدُ المريدَ إلى الله .

ولا شكَّ أن لهذه الرسالة أهميةً خاصةً تدلنا على أن المسألة التي ثارت من أجلها الخصومة بين المتنازعين في أواخر القرن الثامن الهجري في الأندلس ـ وهي قضية التزام المريد بالشيخ ـ هذه القضية بقي الحديث عنها مستمراً حتى القرن الحادي عشر الهجري ، وهذه الرسالة تتضمن البحث والسؤال عن حكم الالتزام بالشيخ ، ومدى هذا الالتزام وكيفيته وأدبه ، ودرجاته ، واختلاف الحكم بذلك بنوع السلوك . ومؤلفها من كبار علماء الصوفية في عصره علماً وعملاً وسلوكاً .

اعتمدت في إخراج هذا النص على مخطوطة المكتبة الصبيحية بالرباط ـ سلا ، ورقمها ٢٠٦ . وهي بخط مغربي ورمزت لها بـ (ص) .

وكذلك قارنت بينها وبين المطبوع من رسائل اليوسي التي حققتها فاطمة خليل القبلي وطبعت في جزأين بالدار البيضاء سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م .

وموضوعنا يقع في الرسالة العاشرة من الجزء الثاني من ص ٤٠٨ـ٤١٥ .

والحمد لله ربِّ العالمين

فأجاب رضي الله عنه ونفعنا به وأسكنه من الجنان فسيحها بما نصه بعد
البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أما حكم الشيخ فاعلم أن المكلف محل مسائله
في دينه فطلب أن يطلبها ويسأل عنها كل من علم ايلها من شيخ فيها أو بواسطة
وهذا واجب وأما الشيخ المذكور في طريق التصوف بمعنى الذي منه في حوائج السالك أن لم يكتف
عنه بأخ صالح وقد اختلف المتأخرون في الاستغناء عنه بالكتب فقيل نعم إن كان ذكيا وإن كان
غبيا فلا بد له من شيخ ومعه العمل على كل حال وقيل يختلف ذلك باختلاف المجاهدات فيجب في مجاهدة
التقوى لا يجب ولا كن وجوده للأحسن وفي مجاهدة الاستقامة كذلك وهو فيهما أوكد وفي مجاهدة
الكشف الحقيقي طريق تجريد النفس عن رذائلها وعوائدها التمكن فيها الحقيقة واجب — الكشف
اللهم إلا أن يغنيه الله تعالى عنه بالجذب والتراخي لا يذكر في الدين والتوسط عند الضرورة لا يمنعني
عنه وأما الزيارة فليست من ذاتها واجبة وإنما المراد ما فات الشيخ ومشافهته
للاستفادة منه وكان من حق المريد إذا أحب شيخا أن لا يفارقه حتى يحل أنه يستغني عن
قوله ومن فعله ويستمد من مشاهدته فلا ينبغي له أن يفارقه لو أمكنه ليلا ونهارا
حتى يكمل ويأذن له في الذهاب كما أن الرضيع لا يفارق أمه حتى ينفطم ولا كن ضرورات
المعاش تلجئ المريد إلى الذهاب فمتى أمكنه الاجتماع فلا يعدله طلب المعاش الذي يبقى له
ولا يعد ذلك بمنزلة ما ظاهره للمسلمين أو أخ أو قبر مما يقول بعض زيارته واجبة أو مستحبة
بل كلام في ذلك فيما يستمر له فنعم لو كمل وانقطع عن شيخه ولم يبق عليه إلا التبرك والمكافأة وقضاء
الحقوق كانت الزيارة إذ ذاك مثل ما ذكر لذلك وتختلف باختلاف قوته وضعفا قربا وبعدا وبعد الموت
إن قلنا له في نفسه بيان أنه باق على التربية الاستمداد منه كحال الحياة فهو كذلك وإلا فكالمسائل
وأما أخذ المريد شيخا آخر بعد موت الأول والتكميل ما بقي عليه فهو على
أصل الجواز كما تتخذ للرضيع ظئرا مات أمه ولا كن من المشايخ من لا يفعل ذلك حماية لقلب المريد
أن يتزلزل أو يضعف في علم من شيخه ذلك فليمسك إن كان شيخه متصرفا بعد الموت أو

فإن عينه [illegible] أوقف فلا بأس لأنه يرجى له بركة الصدق والوفاء بالعهد ومن لا فلا يجعل البدل
من أمامه ومن خلفه والسهل لنا [illegible] وأما الورد فجعل له وقت معلوم إلى آخر المسألة من الأمر يكون
إلى الشيخ الذي يعطيه ويملي المريد تلقينا وأما ـــــــ الاختصاص بالورد إذا الإرشاد وهو
ما يكون على طريق الأسماء أو بطريق الذكر فلا ينبغي تلاوته أن يسمعه من لا يريد ليكون [illegible] إلا إذن الله
وأما ـــــــ الاجتماع على الذكر والأمر فليس من السنة ولا أكرهه إلا أن حدث العمل بشيء من ذلك من غير
أن يقع منكر ولا تغيير سنة منفردة فيغتفر ابتغاء لرواج الدين [illegible] وأما حضور
المريد مجلس السماع فلا يكون اختيارا منه حتى ينظر العلماء [illegible] عليه أن يجلس [illegible] بل
مع الحق تعالى بجلاء قلبه في الحضور فإن نزل عليه وارد بغير اختياره فهو في حكم من
يقع والمعصوم من عصمه الله وبعد ذلك لا يسمعه المحل وأما نداء الشيخ عند الشدة فلا بأس به
وليتوسل بجاهه إلى الله تعالى وكيف ما أمكنه التعبير فلا بأس وليحافظ على الأدب وأما
النظر إلى وجه الشيخ فحسن ولكن من غير الإكثار منه مخافة زوال الحياء وأما
حضور الشيخ عند موت الفقير وعند السؤال وعند الميزان فهو من الأمور الجائزة
الحاصلة ولا ينبغي إنكار القول باستنابته ولا لزومه وقد وقع للشيخ زروق في كتبه
ما [illegible] من ذلك وقد سألت شيخنا الإمام العلامة أبا عبد الله محمد بن ناصر رضي الله
عنه أيحضر الشيخ وفاة المريد فقال الشيخ الكامل يحضر [illegible] على صورته وأما
الشفاعة فلا تنضبط بل هي فضل من الله تعالى يجعلها إن شاء الشيخ للمريد [illegible] أو لم
ولغيره بخصوص أو عموم وأما ـــــــ السبحة فهي من التعبير والتذكير وشعار
فلا ينبغي لمن يليق رفعها وأما إخفاؤها وإظهارها فعلى حسب نيته فإن خشي رياء
فإخفاؤها أولى وإلا فالإمام فصل تنبيه [illegible] فالإظهار أولى وإلا فسواء
الإخفاء والإظهار ولا بأس أن يظهرها قصد الإظهار [illegible] الغرض الخوف
به [illegible] لا يجوز ذلك لأن استحبابه [illegible] وأما ـــــــ إحضار المعنى عند الهيللة فمن ذلك

السؤال :

ما حكم الشيخ ؟ هل الوجوب أو الندب أو الجواز ؟ وعلى الوجوب هل على الفور أو التراخي ؟ وهل لا بد من ملاقاة الشيخ عند أخذ الورد ، أو يكتفى بواسطة لعذرٍ كالأنوثة والبعد ...

فأجابه ـ رضي الله عنه ، وبرَّد ضريحه ، وأسكنه من الجنان فسيحه ـ بما نصه بعد البسملة والصلاة على النَّبي ﷺ بقوله :

أما حكم الشيخ فاعلم أنَّ كل مكلَّفٍ جهل مسألةً في دينه ، فلا بدَّ أن يطلبها ويسأل عنها ، وكل من علَّمه إياها فهو شيخه فيها مباشرةً ، أو بواسطة ، وهذا واجب . وأما الشيخ المذكور في طريق التصوف فهذا لا بدَّ منه في حقِّ المريد السالك إن لم يكتف عنه بأخٍ صالحٍ ، وقد اختلف المتأخرون في الاكتفاء عنه بالكتب فقيل : نعم ، إن كان ذكياً ، وإن كان غبيّاً فلا بدَّ له من شيخ ، وهو أكمل على كل حال ، وقيل : يختلف ذلك باختلاف المجاهدات : ففي مجاهدة التقوى لا يجب ، ولكن وجوده أحسن ، وفي مجاهدة الاستقامة كذلك ، وهو فيها أوكد ، وفي مجاهدة الكشف أعني طريق تجريد النفس عن رذائلها ورعوناتها لتتمكن فيها الحقيقة واجب ، اللهم إلا أن يغني الله تعالى عنه بالجذب ، والتراخي لا يذكر في الدين ، والتوسط عند الضرورة لا غنى عنه .

وأما الزيارة فليست من ذاتها واجبة ، وإنما المراد ملاقاة الشيخ ومشاهدته ، للاستفادة منه ، وكان من حق المريد إذا صحب شيخاً ألاَّ يفارقه طرفة عين ، لأنه يستفيد من قوله ومن فعله ، ويستمد من مشاهدته ، فلا ينبغي له أن يفارقه لو أمكنه ليلاً أو نهاراً ، حتى يكمل ويأذن له في الفراق ، كما أن الرضيع لا يفارق أمه حتى ينفطم ، ولكن ضرورات المعاش تلجئ المريد إلى الفراق ، فمتى أمكنه الاجتماع فلا يفلته طلباً للمعاش الروحاني الذي يبقى له ، ولا يعدُّ ذلك بمنزلة فاضل من المسلمين ، أو أخ ، أو قبر ، مما يقول : هل زيارته واجبة أو مستحبة . كما قررنا لكم فافهموه .

نعم لو كمل وانفصل عن شيخه ، ولم يبق عليه[١] إلا التبرك والمكافأة وقضاء الحقوق ، كانت الزيارة إذ ذاك متأكدةً لذلك ، وتختلف باختلاف [الناس][٢] قوةً وضعفاً ، قرباً وبُعداً ، وبعد الموت إن قام له[٣] في نفسه بيان أنه باقٍ على التربّي والاستمداد منه ، كحال الحياة فهو كالأول ، وإلاَّ فكالثاني .

وأما صحبة المريد شيخاً آخر بعد موت الأول ، لتكميل ما بقي عليه فهو على أصل الجواز ، كما تتخذ للرضيع ظِئْر ، إن ماتت أمه ، ولكن من المشايخ من لا يقبل ذلك ، حمايةً لقلب المريد أن يتزلزل أو يضعف ، فمن علم من شيخه ذلك فليمسك ، وحينئذٍ إن كان شيخه متصرفاً بعد الموت أو /٣ب/ ناب عنه قطب الوقت فلا بأس ، وإلاَّ فيرجى له ببركة الصدق والوفاء بالعهد وحسن الأدب ، أن يجعل الله له من أمره فرجاً ، والله بكل شيء محيط .

وأما الوِرْد : هل له وقت معلوم ، إلى آخر المسألة ؛ فذلك أمر موكول إلى الشيخ الذي يعطيه ، وعلى المريد تقليده . وأما التحدث بالورد إذا كان سرّاً ، وهو ما يكون في طريق الأسماء ، أو في طريق الذكر ، فلا ينبغي مخافةَ أن يسمعه من لا يريده ، فيكون ذلك ابتذال له .

وأما اجتماع على ذكرٍ واحد فليس من السُّنَّة ، ولكن إن جرى العمل بشيء من ذلك من غير أن يقع منكر ، ولا تغيير سنة متقررة فيغتفر إبقاء لروايح[٤] الدين ما أمكن . وأما تحريك[٥] المريد عند السماع فلا يكون اختياره[٦] ، حتى ينظر أيقوم أم لا ، بل يجب عليه أن يجلس متأدباً مع الحق تعالى ، مجاهداً قلبه في الحضور ، فإن

(١) في ط : له .
(٢) ما بين معقوفتين ليست في ط .
(٣) ليست في ط .
(٤) في ط : روائح .
(٥) في ط : تحرك .
(٦) في ط : فلا يكون على اختياره .

نزل عليه وارد بغير اختيـاره بقي في حكمـه حتى يرتفع ، والمعصوم من عصمـه الله ، وفي هذا كلام لا يسعه المحل .

وأما نداء الشيخ عند الشّدة فلا بأس به ، وليتوسل بجاهـه إلى الله تعـالى ، وكيف ما أمكنه التعبير فلا بأس ، وليحافظ على الأدب .

وأمـا النظر إلى وجـه الشيـخ فحسن ، ولكن كرهـوا الإكثـار منـه مخـافـةَ زوال الحياء . وأما حضور الشيخ عند موت الفقير ، أو عند السؤال ، أو عند الميزان ، فهو من الأمور الجائزة الفضلية[١] ، ولا ينبغي إطلاق القول بـامتنـاعـه ولا لزومـه ، وقـد وقع للشيـخ زَرُّوق في كتبـه إنكار على من يلـزم ذلـك . وسـألت شيخنـا الإمـام الجـامـع[٢] أبا عبد الله محمد بن ناصر[٣] رضي الله عنه : أيحضر الشيخ وفاة المريـد ؟ فقـال : الشيخ الكامل يحضر هو ، أو روحاني على صورته .

وأما الشفاعة فلا تنضبـط[٤] ، بل هي فضل من الله تعـالى ، فجـائز أن يمنحهـا[٥] الشيخ للمريد وحده ، أو له ولغيره ، بخصوص أو عموم .

وأما السبحة فهي عدة[٦] الفقير وآلته وشعاره[٧] ، فلا ينبغي له أن يفارقها ، وأما إخفاؤها وإظهارها فعلى حسب نيته ؛ فإن خشي رياءً فالإخفاء أولى ، وإلاَّ فإن قصـد تنبيـه غـافـل ، أو اقتـداء مقتـد ، فـالإظهـار أولى ، وإلاَّ فسـواء الإخفـاء والإظهـار ، ولا بأس أن يظهرها قصداً لإظهار الزِّي دفعـاً للضرر ، كالخوف في الطريق ، ولا يجوز ذلك لاستجلاب دنيا .

(١) في ط : الفضيلة .
(٢) ليست في ط .
(٣) في ط : أبا عبد الله بن ناصر .
(٤) في ط : تضبط .
(٥) في ط : يَمنحها المريد .
(٦) في ط : عمدة .
(٧) في ط : وشغله .

الفهارس

فهرس الآيات الكريمة

الآية	صفحة ورودها	رقمها	سورتها
سخر لكم ما في السموات والأرض	٥٧	٢٠	لقمان
إنا عرضنا الأمانـة على السموات والأرض والجبـال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسـان إنـه كان ظلومـاً جهولاً	٥٦	٧٢	الأحزاب
إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم	٧٨	٤	يس
أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه	٦٣	٢٢	الزمر
قل يا عبـادي الـذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله لا يغفر الذنوب جميعاً إنـه هو الغفور الرحيم	٥٠	٥٣	الزمر
من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها	٥٨	٤٦	فصلت
فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم	١٩٠	٢١	محمد
أشداء على الكفار رحماء بينهم	٧٧	٢٩	الفتح
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	٥٩	٥٦	الذاريات
وجعلنـا في قلـوب الـذين اتبعـوه رأفـة ورحمـة ورهبانية ابتدعوها مـا كتبنـاهـا عليهم إلا ابتغـاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون	٩٦ ، ٩٧	٢٧	الحديد
كل نفس بما كسبت رهينة	٥٨	٣٨	المدثر
فأما من أعطى واتقى وصـدق بـالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى	٥٨	٥ ، ١٠	الليل

فهرس الأحاديث الشريفة والأخبار

فهرس الأقوال المأثورة عن شيوخ الصوفية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الكتب المعرّف بها

فهرس المصطلحات


1996
لبناء
مجتمع قارئ

Dar al Fikr
Damascus-Syria

Dār al Fikr al Mu'āṣir
Beirut - Lebanon

شفاء السائل وتهذيب المسائل

كتاب (شفاء السائل وتهذيب المسائل) للعلامة الفقيه المؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتبه جواباً عن المناظرة الصوفية التي كتبها الشيخ أبو إسحاق الشاطبي، سائلاً علماء عصره بالعدوة المغربية الجواب عنها، والفصل فيها، نهج ابن خلدون فيه -كعادته في كتبه- المنهج العلمي المعتمد على العرض والتحليل والاستنتاج والمناقشة، مورداً لكل مسألة دليلها، ولكل رأي حجته، لينتهي بعد ذلك إلى النتائج التي ساق إليها البحث الجاد المؤدي إلى القناعة العلمية، والغاية الصحيحة.

وبذلك يكون الكتاب مرجعاً مهماً في علم التصوف، ألفه عَلَم خبير، وناقد بصير، جمع هذه القضية فأوعى.

وألحق بالكتاب ثلاث رسائل في السلوك الصوفي:

١- جواب مسألة سلوك طريق الصوفية، هل يصح ذلك بالكتب الموضوعة فيه؟ أو لابد من الشيخ؟ وفيه ذكر الطريق الموصل إلى الله، للشيخ المحقق ابن عباد الرُّندي النفزي.

٢- فتوى أبي العباس القباب في سلوك طريق الصوفية، وهو رد على سؤال وجهه إليه أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي.

٣- حكم الالتزام بالشيخ في التربية الصوفية، للشيخ الحسن بن مسعود اليوسي.


ISBN 1-57547-295-3
9 781575 472959

Curing the Enquirer and Rectifying Matters
Shifā' al-Sā'il wa Tahdhīb al-Masā'il
By: Ibn Khaldūn
Rev: Dr. Muhammad Mutī' al-Hāfiz

http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info@Fikr.com